وَصفُ إفريقيا

نشر هذا الكتاب بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول
المنعقد بمدينة الرياض في الفترة من ٢١/٢/ إلى ٢٨/٢/ ١٣٩٩ هـ.

المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية العلوم الاجتماعية

وصف إفريقيا

ألفه بالأيطالية
جان ليون الافريقي (وهو الحسن بن محمّد الوزان الزياتي)
وترجمه من الايطالية إلى الفرنسية ترجمة جديدة

آ. إيبولار
A. EPAULARD

وعلق عليها

آ. إيبولار، ت. مونو، هـ. لوت، و ر. موني
A. EPAULARD, TH. MONOD, H. LHOTE et R. MAUNY

تضم إحدى عشرة خارطة منها خارطة بحرية بأربعة ألوان وأربع لوحات
وترجمه من هذه الترجمة الفرنسية إلى العربية

الدكتور عبد الرّحمن حميدة

دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة باريس
استاذ الجغرافيا بكلية العلوم الاجتماعية
بجامعة الإمام محمّد بن سعود الاسلامية
رئيس قسم الجغرافية بجامعة دمشق سابقاً

وراجعه

الدكتور علي عبد الواحد

دكتور في الآداب من جامعة باريس
عضو المجمع الدولي لعلم الاجتماع
رئيس قسم الاجتماع وعلم النفس بكلية العلوم الاجتماعية
بجامعة الامام محمّد بن سعود الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد سيد الانبياء والمرسلين وبعد :

لم يكن الحسن بن محمد الوزان الزياتي ، الذي نضع كتابه لأول مرة باللغة العربية ، أقول لم يكن شخصية غير مرموقة في الأوساط العلمية الأوروبية ، وذلك منذ منتصف القرن العاشر الهجري (اواسط القرن السادس عشر الميلادي) بقدر ما ظلّ مجهولاً ، بصورة تكاد تكون تامة في العالم العربي والاسلامي ، وهذا حتى اواخر القرن الثالث عشر الهجري (او التاسع عشر الميلادي) .

فقد نشر راموزيو كتابه « وصف افريقيا » سنة ١٥٥٠ م (٩٥٧هـ) في مدينة البندقية ، أي قبل ٤٤١ عاماً هجرياً ، وبعد فترة لا تزيد عن اربعة وعشرين عاماً من فراغ الحسن الوزان من تأليفه مصنفه المذكور باللغة الايطالية ، وذلك في جملة قصص رحلات جغرافية ، وأهداه لشخصية علمية وسياسية كبيرة ، هو جيروم فراكاستور .

وفي سنة ١٥٥٥ ظهرت الترجمة الفرنسية بجهود تامبورال ، وفي العام التالي تمت ترجمته الى اللاتينية بقلم جان فولريان ، اي في ٩٦٦ هـ ، في مدينة آنفرس البلجيكية ، وفي سنة ١٦٠٠ ظهرت الترجمة الانكليزية على يد جون بوري ، وتم نقل « الوصف » الى اللغة الهولندية في عام ١٦٦٥ ، وفي ١٨٠٥ تمت ترجمته الى الألمانية ، وفي ١٨٩٦ ظهرت طبعة ايطالية حديثة . وفي ١٨٩٦ اعاد براون نشر الكتاب بالانكليزية اعتماداً على طبعة بوري بينما كان يعمل ش . شيفر على نشره بالفرنسية في باريس ، في عامي ١٨٩٦ و١٨٩٨ .

هذا وقد خصصت له الاستاذة كودازي مقالة ممتازة في الموسوعة الايطالية للعلوم والآداب والفنون ، الصادرة في روما سنة ١٩٣٣ ، مجلد ٢٠ ، ص ٨٩٩ ، كما كان للمستشرق الايطالي آلدو ميالي الفضل في إبراز عروبة « يوحنا الغرناطي » وإسلامه في كتابه « العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي » ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى ، طبع الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، ونشر دار القلم سنة ١٣٨١ هـ أو ١٩٦٢ م .

هذا وقد كرّس له المستشرق الفرنسي ماسينيون دراسة مستفيضة ضمن بحثه عن تاريخ المغرب المعنون « المملكة المغربية في اوائل سني القرن السادس عشر ، لوحة جغرافية استناداً الى ليون الافريقي » . وفي عام ١٩٥٢ ظهرت في مدريد الترجمة الاسبانية ، وفي نفس الفترة أفرد له المستشرق الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي بحثاً جيداً في مؤلفه الضخم « الأدب الجغرافي عند العرب » ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم .

وبعد نفاذ الطبعة الفرنسية التي نشرها شيفر ، قام الطبيب الفرنسي الجنرال ايبولار ، الذي سلخ شطراً كبيراً من حياته في اقطار المغرب العربي ، ولاسيا في المملكة المغربية ، قام بتحقيق كتاب الوزان مع شروح ضافية . ولكن المنية عاجلته سنة ١٩٤٩ وحالت دون نشر مخطوطه ، الى ان حصل اصدقاؤه العلماء الثلاثة : ت . مونو ، هـ . لوت ، ور . موني ، على المخطوط من أرملته ، وعملوا على طباعته مع إضافات لا يستهان بها على الشروح والتعليق ، وظهر الكتاب في حلته الجديدة سنة ١٩٥٦ (١٣٧٥ هـ) ، ضمن جزأين . وهذه النسخة هي التي اعتمدناها في الترجمة ، وذلك بمبادرة من كلية العلوم الاجتماعية في جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية ، وبمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافي الاسلامي الأول العتيد ، في مطلع عام ١٣٩٩ هـ ، أو ١٩٧٩ م .

***

أما التعريف بالحسن الوزان في الاوساط العلمية العربية فقد جاء ـ ويا للأسف ـ متأخراً جداً . فقد ورد ذكره لأول مرة في مجلة المقتطف المصرية ضمن « بحث الجغرافية وجغرافيي الإسلام » ج ٧ ، ص ٥٩٣ ـ ٧١٣ ، ضمن خطبة ألقاها سليم ميخائيل شحادة الغزيري ، في المجمع العلمي الشرقي ، في جلسة آذار ١٨٨٣ م ، كما خصص له الباحث المغربي محمد المهدي الحجوي ، مقالة بالفرنسية نشرت في مجلة هسبيريس ، الصادرة عن دار كولان ، في باريس ، ج ٢ ، ص ٩٤ ـ ٩٨ . هذا كما تعرض له الاستاذ

عزيز بنعبدالله في كتابه « الطب والأطباء في المغرب » المطبوع سنة ١٩٦٠ . وذكره الاستاذ احمد ابو سعد بايجاز في كتابه « ادب الرحلات » المنشور في بيروت سنة ١٩٦١ في جملة منشورات دار الشرق الجديد وفي سنة ١٩٦٢ كتب الاستاذ محمد عبد الله عنان مقالة عن « الحسن الوزان أو ليون الإفريقي » في مجلة العربي الكويتية ، عدد ٤٣ ، وبعد عشرة أعوام عادت المجلة المذكورة فنشرت في عددها ١٦٣ نشر مقال ثان في نفس الموضوع تحت عنوان « الحسن بن محمد الوزان ، رحالة عربي ، ومصنف اجنبي » للدكتور جمال زكريا قاسم .

وفي سنة ١٩٧٠ كتب زميلي . الدكتور مصطفى مسعد بحثاً يقع في ٢٥ صفحة ، في مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ، العدد الأول ، كتب بحثاً معنوناً « الحسن بن محمد الوزان (ليو الافريقي) ، أضواء على رحلته في بلاد السودان ومصر . وفي عام ١٩٧٢ كتب المرحوم الطبيب الاستاذ شوكت الشطي ، الذي توفي في صيف ١٣٩٨ هـ ، بحثاً يحمل عنوان « نظرات الى ثقافة العرب الطبية في الحضارة الاندلسية » خصصه للحسن الوزان . وقد اشرف الدكتور محمد السيد غلاب ، مدير معهد الدراسات الافريقية على رسالة ماجستير عن الحسن الوزان واهمية كتابه في جغرافية السودان الغربي ، والتي تمت مناقشتها سنة ١٣٩٨ هـ ، وقام بها السيد محمد أحمد زوام.

ويكفي أن نورد هنا بعض الشواهد من كتابات العلماء الاوروبيين للتدليل على قيمة كتاب الحسن الوزان على الصعيد العلمي » إذ ظل كتابه ـ حسب قول توماس ديكين ـ المرجع العمدة طيلة قرنين من الزمن في اوروبا ، في كل ما يختص بالأقطار العربية الإفريقية ودول شعوب اقطار الساحل ، اي الواقعة الى الجنوب من الصحراء الكبرى » ، ويقول هارتمان الألماني بعد قرابة قرنين من الزمن من ظهور كتاب الوصف « إن ما يتصف به مصنّفه من ميزات أمر معروف للجميع ، ولن أتردد في تكرار ما قاله البحاثة قبلي من أن كتابه كنز من الذهب ولولا وجوده بين يدي لخفيت عليّ أشياء كثيرة » ، ويقول شيفر في اواخر القرن الماضي « إن ما يورده ليون الإفريقي من تفاصيل في وصف المغرب تتميز بالدقة الشديدة ، بل لقد اثبتت الابحاث الاخيرة صدق قوله حتى في المواضيع التي اثارت الشك فيما مضى » .

* * *

هذا ولا يزال الكثير من جوانب حياة الحسن الوزان غامضاً ، ولاسيما عن فترة إقامته

في ايطاليا ، وعلى الأخص بعد عودته الى تونس . فالمعروف ان ولادته كانت سنة ٨٩٤ هـ ، وأنه سقط بالأسر عام ١٥١٨م (٩٢٦ هـ) ، وكان عمره حينذاك في حدود الثلاثين سنة ، وأنه صنّف كتابه « وصف إفريقيا » لقرائه الطليان سنة ١٥٢٦ م ، أي بعد ثمانية أعوام من الإقامة في ايطاليا ، درس خلالها الايطالية واللاتينية ، وقرأ كتاب بلين المؤ رخ الروماني الشهير ، وألمَّ بالثقافة الاوروبية التي كانت تتمخض عن « عصر النهضة» ، ويبدو ان تعلّمه الايطاليه واللاتينية لم يكن عسيراً عليه ، إذ يرى كراتشكوفسكي أنه كان يعرف اللغة الاسبانية التي كانت بالنسبة له لغة مفهومة ، لأنه امضى طفولته في غرناطة التي نزح عنها بعد سقوطها بأيدي الملكين الكاثوليكيين سنة ١٤٩٢م .

هذا وتشير أكثر المصادر التي أوردناها إلى أنه استطاع الإفلات من ايطاليا ، رغم عتقه ، بين عامي ١٥٢٨ و ١٥٣٠ قاصداً تونس ، بعد إقامة في الغربة لم تتجاوز عشرة أو اثني عشر عاماً . ويدعم هذه الرواية كاتب معاصر أسمه فيدماتشتات الذي يقول أن الوزان مات في تونس سنة ٩٤٤ هـ ، وعمره خمسون عاماً . ويقول آلدو ميالي : « إن إقامة الحسن الوزان بمعزل عن محيطه الأصلي كانت بلا ريب ثقيلة على نفسه ، والواقع انه عاد الى تونس سنة ١٥٥٠م ليحظى بالوفاة في ارض الاسلام المقدسة وفي حمى دينه الحقيقي ، ونفتقد آثاره منذ ذلك الحين ، ويبدو أننا لن نعرف تاريخ وفاته » ترجمة الدوميالي ص ٥٣٣ ، مما يدل على أن إقامته في ايطاليا امتدت على فترة تناهز اثنين وثلاثين عاما ، أي عاد الى تونس وعمره ٦٤ سنة تقريباً .

ويقول كراتشكوفسكي . . وعقب فراغه ـ من تأليف كتابه ـ بقليل ، وربما كان ذلك في عام ١٥٢٨ ، تمكن بطريقة ما من الإفلات راجعاً الى افريقية وما لبث ان اطرح المسيحية الى دينه القديم . وقد توفي الوزان ، على ما يبدو ، في تونس في عهد آخر ملوك بني حفص ، وذلك عام ١٥٥٢ » عن عمر يناهز الستين عاماً . ويرى البعض من الباحثين ان الكرادلة الطليان من اصدقائه أرسلوا وفداً لإقناعه بالعودة الى ايطاليا ولكن دونما طائل ، في حين يرى بعضهم انه لم يغادر ايطاليا وظل يدرِّس اللغة العربية فيها حتى اواخر ايام حياته .

***

والواقع لقد كانت حياته العلمية في ايطاليا خصيبة للغاية . ففي عام ٩٣٠هـ/

١٥٢٤م نجده يؤلف معجماً عبرياً عربياً لاتينياً من أجل طبيب يهودي ، هو يعقوب بن سيمون ، لا تزال مخطوطته ، التي عثر عليها الحجوي ، محفوظة بمكتبة الاسكوريال ، مثلما عثرت الاستاذة كودازّي على رسالة في القياس المسطح ما يشهد على اتساع مروحة معارفه الموسوعية . وفي العاشر من آذار ١٥٢٦ أنجز تدبيج كتابه « وصف افريقيا » بالايطالية ، والذي يرجح اكثر الباحثين أنه وضعه أصلاً بالعربية على شكل مذكرات على الأقل ، ويرى آخرون مثل ش. شيفر أن الكتاب كان بحوزته عند وقوعه بالاسر ، مثلما قيد فيما بعد « إن مخطوطته قد وجدت طريقها الى احد هواة الكتب الطليان ، وهو ف. بينللي ، ولكنها فقدت منه في الطريق الى نابولي عند هجوم القراصنة » ، اذ يقول شيفر « أن الوزان أنشأ كتابه بالعربية ثم باللغة التوسكانية ، ونقدمها الآن بالفرنسية » .

وفي سنة ١٥٢٧ ألّف بالّلاتينية كتاباً جامعاً في سير ثلاثين من مشاهير العرب في مضمار الفلسفة والطب ، والذي نشره هوتينغر في عام ١٦٦٤ في زوريخ بسويسرا ثم اعيد نشره سنة ١٧٤٦ في هامبورغ ، وكان أول سفر يقدم معلومات ذات اهمية بالنسبة لأوروبا في تاريخ تطور العلوم عند العرب .

هذا كما تحوي مكتبة الاسكوريال نسخة في نحو اللغة العربية ربما يكون قد ألفها لفائدة تلاميذه الطليان اثناء تدريسه اللغة العربية في مدينة بولونية . ويذكر لنا في مناسبات عديدة كتابه « الوجيز في الشريعة الاسلامية » و« الوجيز في التواريخ الاسلامية » ولكن لم يصلنا شيء منهما ، مثلما يذكر لنا اعتزامه على اصدار ثلاثة مؤلفات ، احدها الكتاب الذي بين ايدينا ، والآخر عن اوروبا ، والأخير عن الاقطار التي زارها في جزيرة العرب وآسيا الصغرى وارمينيا وبلاد فارس والتتر والقسطنطينية .

والحسن الوزان الذي خاض في شبابه معارك عديدة ضد البرتغاليين ، يوردها في مناسبات عدة في تضاعيف كتابه ، مع جيوش بني مرين الوطّاسيين ، لا يخفي كرهه للبرتغاليين والاسبان القساة وسواهم من نصارى اوروبا الذين كانوا لا يكفون عن الإغارة على بلاد المسلمين والتنكيل بأهلها مدفوعين بنزعة صليبية مقيتة تجلت على الخصوص لدى فرسان القديس يوحنا ، مثلما كان يعبر عن مقته تجاه الأعراب الذين كانت بعض قبائلهم لا تتورع عن التطوع للمحاربة في صفوف البرتغاليين ، لاسيما وهم الذين نشروا الفوضى والتخريب واساءوا ايما اساءة للاقتصاد الغربي فقوضوا اركان الزراعة كما في

منطقة افريقية حتى جوار تونس ذاتها ، مما ادى بصورة مباشرة لرهن دول المغرب ، وبالتالي لتمهيد السبيل امام الاسبان والبرتغاليين لانتزاع بقاع عديدة من اقطار المغرب العربي مثل طرابلس وبجاية ودهران وآزمور وآسفي ، وحيث لا تزال بعض المواقع في ايديهم حتى كتابة هذه الاسطر ولاسيما مدينتي سبتة ومليلة ، ولولا ان قيض الله العثمانيين الذين تصدوا لهؤلاء النصارى وأبلوا البلاء الحسن لكان تاريخ المغرب غيره اليوم . ولكن الوزان لا يضمر ازدراءه للصوفيين ولأصحاب المذاهب المنشقة،وما أدخلوه على الاسلام من ترهات وبدع كانت نتائجها اللااخلاقية وخيمة على المجتمع ، مثلما لو يضنى بسخريته اللاذعة على المشعوذين والعرافين والسحرة وكثيراً ما يعف قلمه عن فضح الكثير من تفاصيل حياتهم استحياء من ناحية وتحاشياً لسأم القارىء من جهة اخرى .

والخلاصة يتميز كتاب الوزان بروح نقدية وبأسلوب نستشف فيه تأثير التلاقح الثقافي الخصيب مما يضفي على مصنفه طابعاً ذا اصالة يشد القارىء اليه مثلما يجد فيه الجغرافي والمؤرخ مصدراً غنياً بالمعلومات فضلاً عن أن ترجمته عن الايطالية وشرحه والتعليق عليه تعتبر جميعاً مدرسة قائمة بذاتها تشهد على بروز روح البحث العلمي وحب الاستقصاء .

د. عبدالرحمن حميدة

مقدمة

لقد ظهر في البندقية ، عام ١٥٥٠[١] مؤلف ذو قيمة فريدة . فقد عمد عالم ذو ثقافة عالية يدعى جان باتيست راموزيو ، وكان أمين سر لمجلس الأمناء العشرة ، إلى نشر عدة قصص رحلات باللغة الإيطالية لم يسبق نشرها تحت عنوان « في الملاحة والرحلات » ، وكانت أكثر هذه الرحلات أهمية هي « وصف إفريقيا » بقلم جان ليون ، الملقب بالإفريقي .

وقد كان لكتاب راموزيو النجاح الذي يستحق . فمنذ عام ١٥٥٦[٢] ظهرت ترجمتان لهذا الكتاب . فقد نشر جان فلوريان في آنفرس في بلجيكا ، ترجمة لاتينية عن كتاب « وصف أفريقيا » ونشر جان تامبورال ، من ليون في فرنسا ترجمة فرنسية له . وتعتبر الترجمة اللاتينية عديمة القيمة وخالية من أية فائدة ، بينما تبدو الترجمة الفرنسية ممتازة بالنسبة لذلك العصر . فلغتها هي الفرنسية القديمة التي كانت مستخدمة في القرن السادس عشر . ولعل ذلك هو الذي أضفى عليها جاذبية خاصة . وجعل العلماء - حتى في عصرنا الحاضر - يؤثرون نقل نصوص كاملة من هذه الترجمة على الرجوع إلى الأصل الإيطالي . وظلت ترجمة تامبورال هي المعتمدة في فرنسا . بيد أن هذه الترجمة تبدو عند بحثها بدقة منطوية على مآخذ جلية للعيان ، فلغتها القديمة صعبة الفهم ومتعبة للقارىء العادي ، والمحقق الذي يراجعها على نص راموزيو لا يلبث أن يعثر فيها على الكثير من الأخطاء والنقاط الغامضة . ومن ثم لم تعد قط أداة جيدة للبحث ، وأصبح من الضروري إعادة ترجمة كتاب راموزيو من جديد .

وها نحن أولاء نقدم اليوم ترجمة لكتاب « وصف إفريقيا » لصاحبه جان ليون ؛ وإذا كانت كل قصص الرحلات التي نشرها راموزيو في عام ١٥٥٠ ذات فائدة كبيرة من وجهة النظر التاريخية والجغرافية ، فإن « وصف » ليون يحوي من الفائدة ما يتجاوز

---

(١) ٩٥٧ هـ .

(٢) ٩٦٤ هـ .

ذلك . وسيظل الكثير من المعلومات التي قدمها ليون ، حتى عصر طويل قادم ، موضع ثقة ، وعلى الأخص من وجهة النظر التاريخية البحتة . ولهذا كان من الأهمية أن نقدم لكتاب ليون ترجمة عصرية دقيقة وأمينة قدر المستطاع .

ويوجه راموزيو ، في إهدائه كتابه إلى عالم كبير في زمانه ، هو جيروم فراكاستور ، يوجه انتباهنا إلى أن ليون كان مغربيا . ويذكر لنا بأنه ، بعد أسره في جزيرة جربه[٣] ، قُدِّم هدية للبابا الذي أحسن وفادته حتى أنه عمَّده ومنحه اسميه جان-وليون ، وأنه تعلم الإيطالية . وقد ألف ليون في هذه اللغة كتابا في الجغرافيا اعتمادا على مذكراته المكتوبة بالعربية . وهذا الكتاب المنسوخ بقلم المؤلف نفسه ، هو الذي وصل ليد راموزيو ، والذي أبان عن طريقة نقله له إذ يقول« لن ندخر وسعا في أن نجعله واضحا ممكنة قراءته ، وأن نلتزم بكل أمانة ممكنة » .

وقد جرى البحث بدون طائل ـ وكان لا بد أن يحدث ذلك ـ عن المخطوط العربي . فقد رجح المستشرق لويس ماسينيون ، الذي نشر في عام ١٩٠٦[٤] تحت عنوان « المملكة المغربية في السنوات الأولى من القرن السادس عشر »[٥] لوحة جغرافية عن ليون الافريقي ، ويعتبر كتاب لويس ماسينيون كبير القيمة ولا يزال وثيقة أساسية فيما يتعلق بمؤلف« وصف إفريقيا » ، اذ يرجح أن ليون كتب مؤلَّفه مباشرة بالإيطالية استنادا إلى مذكرات مسجلة بالعربية . فليس لهذا المخطوط أصل عربي نقل عنه ، وإنما اعتمد صاحبه فقط على مذكرات كانت لديه باللغة العربية . ولكن هل اختفى النص الإيطالي الأصلي الذي استعان به راموزيو ؟

لقد أتيح للمكتبة الوطنية في روما ، عام ١٩٣١[٦] أن تحصل بطريقة الصدفة في مناسبة بيع كتب ، على مخطوط يحمل عنوان هذا الكتاب « وصف إفريقيا » ووضع في ثبتها تحت رقم ٩٥٣ ، ولكن هذا النص يختلف كثيرا ، في شكله ، عن النص الذي طبعه راموزيو ، ومن المؤكد أن هذا الكتاب هو نسخة جيدة عن الأصل الذي استخدمه راموزيو .

---

(٣) جزيرة تقع تجاه الساحل الجنوبي التونسي قرب الحدود الليبية (المترجم) .

(٤) ١٣٢٤ هـ .

(٥) العاشر الهجري .

(٦) ١٣٥٠ هـ .

ولكن هذا الكتاب مكتوب برطانة ، دفعت براموزيو إلى القول بأنه ، حتى بالنسبة لأبناء ذلك العصر ، من اللازم القيام بنقله إلى لغة سليمة . وقد بذل جهدا ، كما قال هو نفسه ، في جعله صالحا للقراءة وذلك مع كل الأمانة الممكنة .

وقد كان من الممكن نشر مخطوط المكتبة الإيطالية في روما منذ زمن طويل نوعا ما لولا أن الأحداث العالمية(٧) اعترضت سبيل ذلك . وقد عهدت وزارة التعليم العام بهذه المهمة لأكثر الأشخاص كفاءة في هذا المضمار ، وهي السيدة آنجيلا كودازّي ، أستاذة التاريخ والجغرافيا الشهيرة في جامعة ميلانو . وأفردت السيدة كودازي « لجان ليون » مقالة رائعة في الموسوعة الإيطالية للعلم والأدب والفن (روما ١٩٣٣ ، المجلد ٢٠ ص ٨٩٩) . وتنوي هذه الأستاذة قريبا نشر هذا المخطوط ، مع شروح ستكون بالتأكيد جزيلة الفائدة ، سواء لسعة اطلاع المؤلفة أو بسبب الوثائق التي تستطيع الحصول عليها محليا ، لأن ليون كتب كتابه في روما لقرائه الطليان في عام ١٥٢٦ (م)(٨) .

ولقد انتظرنا طويلا نشر المخطوط لتقديم ترجمته وليس ترجمة نص راموزيو . ولكننا لاحظنا أن النص الأخير مكتوب بلغة إيطالية سهلة جدا تتواءم مع نقل يكاد يكون حرفيا إلى الفرنسية . فإذا أخذنا فقرة من نص المخطوط وعملنا على تفسيرها بلغة فرنسية مفهومة ، فإننا نحصل بالضبط على نفس النتيجة التي نحصل عليها من ترجمة مباشرة لنفس الفقرة من نص راموزيو . إذن ليس هناك كبير فائدة من وراء استخدام نص المخطوط . غير أن راموزيو من طرف ، والناسخ من طرف آخر ، قد ارتكبا أخطاء في قراءة الأصل الذي استندا عليه ، وهي أخطاء تختلف في نوعها ، وتسمح الموازنة بين النسختين بتصحيح عدد لا بأس به من هذه الأخطاء . وقد استطعنا ، بفضل التلطف الكبير الذي أظهرته السيدة آنجيلا كودازّى ، أن نقابل بين نسختي المكتبة الوطنية في روما ، وأصبح في إمكاننا أن نقدم التصويبات على نسخة راموزيو ، والتي تبدو في أنظارنا جوهرية .

ونود أن نؤكد للسيدة كودازى كل عرفاننا . ونحن مقتنعون أن عملها لن يكون عبارة عن تكرار لعملنا هذا ، بل على العكس سيكمله بصورة مفيدة ، إذ سيقدم الأول التوثيق الإيطالي ، في حين يوفر الآخر التوثيق الإفريقي .

---

(٧) تقصد بذلك الحربين العالميتين الأولى والثانية (المترجم) .

(٨) ٩٢٤ هـ .

ونظرا لهذا الواقع فإننا لن نتوقف كثيرا عند سيرة حياة جان ليون ، و التي لا نعرف عنها فعلا أكثر مما كتبه المستشرق الفرنسي ماسينيون في كتابه . وتتلخص هذه السيرة فيما يلي :

ولد الحسن بن محمد الوزان الزياتي في غرناطه في تاريخ غير معروف بدقة ، يتراوح بين عامي ١٤٨٩ ، ١٤٩٥ (م)[٩] . والحسن هو اسمه ، ومحمد اسم والده ، والوزان لقب أسرته ، مما يدل على أن أحد أجداده شغل وظيفة في مصلحة الموازين العامة . والزياتي كلمة تدل على نسبه القبلي ، أي تدل على قبيلته الأصلية التي انحدر منها . ولم نستطع تحديد النسب المذكور ، غير أن كتاب نزهة الهادي ، ترجمة هوداس ص ٢٢٧ و ٣٢٢ يذكر أنه كان في القرن السادس عشر والسابع عشر (م)[١٠] شخصيتان مغربيتان تحملان هذا النسب ، هما الشارح الأديب الحسن الزياتي والإمام سيدي الحسن الزياتي .

وعلى أثر استيلاء الملكين الكاثوليكيين ، فرديناند الخامس وإيزابيلا في كانون الثاني (يناير) عام ١٤٩٢ م[١١] والذي أعقب طرد المسلمين المتمسكين بدينهم ، التجأت أسرة الحسن إلى فاس ، حيث شغلت وظيفة مرموقة ، وقد أتم هذا الولد تحصيله متبعاً الأسلوب الذي لا يزال حتى اليوم أسلوب مثقفي أيامنا في مدارس فاس وفي جامعة القرويين الإسلامية . وعمل بعد ذلك مدة عامين أمينا عاماً لمستشفى الأمراض العقلية في فاس ثم أصبح « طالباً » كالطلبة الذين نرى الكثير منهم حالياً في المغرب ، وتجول في سن مبكرة في البلاد ، وكان لديه شغف في استنساخ شواهد القبور لبعض مشاهير الرجال . وعمل من ذلك مجموعة قدمها هدية لشقيق السلطان . وتعطينا هذه التفاصيل فكرة عن مستواه الاجتماعي . أما أبوه فقد كان موظفاً حسبما تشير بعض الدلائل . ويروي لنا أيضاً أن صاحب الترجمة قام برحلة ، وهو لا يزال شاباً ، إلى القسطنطينية والمشرق العربي ، وصاحب أحد أعمامه ، وهو في سن السابعة عشر ، في رحلته إلى تومبكتو . وكان عمه هذا خطيباً مفوّهاً اختاره السلطان سفيراً له في تومبكتو ، لدى السلطان السوداني الكبير ، اسكيا محمد توره .

وقد ثابر على تجواله في بلاد المغرب لحساب السلطان ، وذلك قبل قيامه برحلة ثانية

---

(٩) أي بين ٨٧٨ هـ و ٨٨٤ هـ .

(١٠) أي العاشر والحادي عشر الهجريين .

(١١) ٨٩٧ هـ .

إلى بلاد السودان ، والتي يقول بشأنها إنه انتقل فيها من تومبكتو حتى مصر مارا ببلاد الهوسة ومملكة غاوغة في شرق التشاد ثم عاد إلى المغرب بحرا .

وقد أمضى معظم عامي ١٥١٤ ، ١٥١٥ م في المغرب[١٢] وكان يعمل حينئذ في خدمة السلطان وبعض قواده . ومما لا ريب فيه أنه كلف بمهمات يحتمل أنها سياسية واقتصادية ، لأنه يبدو لنا مطلعا في صورة عميقة على بورصة الأسعار ؛ وتزايدت هذه البعثات أهمية مع الزمن لدرجة يظهر لنا فيها وسيطا في المفاوضات بين سلطان فاس محمد البرتغالي ، وسلطان مراكش الناصر بن يوسف الهنتاتي ، وأمير السوس وحاحه ، الشريف أحمد الأعرج ، مؤسس أسرة السعديين الذي يمكننا أن نفترض أنه كان رفيقه في الدراسة في بعض مدارس فاس . وفي آذار (مارس) من عام ١٥١٤ كانت له مقابلة مع حاكم بادية آسفي ، عامل ملك البرتغال ، واسمه يحيى أو تعفوفت . وفي عام ١٥١٥ وبمناسبة حملة دكالة التي قام بها سلطان فاس برزت شخصية محمد بن الحسن الوزان بروزا كبيرا وظهر أكبر نشاط له . ومنذ هذه الحملة نستطيع تتبع تاريخه في صورة أدق ، ومن المحتمل أن كفاءاته الخاصة وثقافته كانت تحظى بتقدير كبير لدى سلطان فاس ، حتى لقد عهد إليه بمهمة في المشرق ، فغادر فاس فجأة في شهر آب (أغسطس) ١٥١٥ م . وليس من المؤكد أنه كان مكلفا بسفارة لدى سليم الأول السلطان العثماني في القسطنطينية ، كما اعتقد بعضهم ، إذ لا يتوقع أن يسافر إلى القسطنطينية بتجهيزات تافهة كحبال الخيام التي ذهب إلى شرائها بنفسه من سوق بسكرة بالجزائر . ويضعف من هذا الاحتمال أيضا أنه يذكر لنا أنه كان في مدينة رشيد بمصر في أثناء وجود السلطان سليم في هذه المدينة ، ولكن بدون ان يتحدث كثيرا عن هذا السلطان، ولو أنه كان موفداً إليه وأتيح له في هذه المناسبة مقابلته لتحدث عنه بإسهاب .

ولكنه لم يكن بالتأكيد موظفا دبلوماسيا ضئيل الأهمية ، لأننا نراه في نفس الرحلة وهو يحرف طريقه كي يذهب للتحادث مع حاكم دبدو ، ثم يقصد بلاط ملك تلمسان أبي عبد الله محمد ، ثم يحل في مدينة الجزائر ضيفا على « وجيه » أندلسي الأصل ، سبق له أن أوفد من قبل سكان مدينة الجزائر كي يتفاوض في شأن عقد هدنة مع الحكومة الأسبانية ، ثم يقصد بجايه لمقابلة أمير البحر الشهير عروج بربروس ، الشقيق الأكبر لأمير البحر خير

---

(١٢) ٩٢٢ و ٩٢٣ هـ .

الدين بربروس[١٣] . وفي النصف الثاني من شهر أيلول (سبتمبر) اضطر عروج للالتجاء إلى مدينة جيجل الجزائرية ، وتابع الحسن رحلته باتجاه تونس مارا بمسيلة في منطقة الحضنة الجزائرية . ويقول لنا أنه بلغ تونس مع جوادين فقط وعانى صعوبة في الحصول على الشعير اللازم لهما ، وهذا يدل على ضعف تجهيزاته كسفير . وعند وصوله إلى تونس لم يجد السلطان فيها ، لأنه كان قد غادرها في رحلة إلى الجنوب ، واتصل بالقصر الملكي ولكن يبدو أنه لم يحظ بمقابلة الملك أبي عبد الله محمد ، لأنه لا يذكره بخير كثير , ولكن من المؤكد أنه استطاع أن يجمع خلال وجوده في حاشية الملك كمية من المعلومات عن بلاد نوميديا التونسية ، والتي قدم عنها تفاسير غير واضحة . ومن المحتمل أن يكون قد تابع رحلته حتى مدينة قفصة وقابس ، وهما آخر مدينتين تونسيتين يظهر أنه رآهما رأي العين .

هذا ولا نعرف شيئا عن المكان الذي أبحر منه الحسن قاصدا القسطنطينية ، ولا تاريخ سفره ولا عن إقامته في المشرق ، اللهم إلا وجوده في مصر في شهر حزيران (يونيو) ١٥١٧[١٤] ، في مدينة رشيد ، في نفس الوقت الذي كان فيه السلطان سليم العثماني في هذه المدينة . وقد أدى فريضة الحج في أثناء إقامته في المشرق ، وعاد من مصر إلى المغرب بحرا وتوقف في طرابلس سنة ١٥١٨[١٥] (ونلاحظ أنه هنا قد استعمل التأريخ الميلادي لأول مرة) . ويغلب على الظن أنه سقط في الأسر خلال توقف سفينته في جزيرة جربة على يد القرصان الصقلي بيتروبوفا ديغليا واقتيد إلى إيطاليا ، حيث قدم هدية للبابا ليون العاشر[١٦] ، واسمه جان دوميديسيس ، وحظي بكرم الوفادة لدى هذا الحبر الشهير ،

---

(١٣) استشهد عروج هذا في معركة مع الأسبان قرب تلمسان سنة ١٥١٨ م ، أما خير الدين فكان قائد أسطول السلطان سليمان العثماني ، وقد حصن مدينة الجزائر ، وكسر أمير البحر الإيطالي آندريادوريا في خليج آمبراس على الساحل اليوناني ، وزار مرسيليا على رأس أسطوله كصديق للملك الفرنسي فرانسوا الأول ، وتوفي في القسطنطينية سنة ١٥٤٦ (المترجم) .

(١٤) ٩٢٥ هـ .

(١٥) ٩٢٦ هـ .

(١٦) ولد هذا البابا في فلورنسا سنة ١٤٧٥ ومات في روما ، وهو ابن لوران الكبير وشغل منصب البابوية بين ١٥١٣ و ١٥٢١ . وكان من المعجبين بالآثار القديمة وحاميا للفنون والآداب والعلوم . واستحق أن يمنح اسمه لأزهى العصور التاريخية . وقد حاول ، شأن البابا جول الثاني ، أن ينقذ إيطاليا من النير الأجنبي ، فتصدى لقوات البندقية وملك فرنسا وذلك عن طريق تحالفه تارة مع هذا وتارة مع أولئك . فوقع مع فرانسوا الأول اتفاق بولونية سنة ١٥١٦ وقد أدى بيعه لصكوك الغفران الجديدة ، التي كان ريعها مخصصا لإنجاز بناء كنيسة القديس بطرس ، إلى تمرد لوثر وبالتالي إلى حرمانه سنة ١٥٢١ ، ودفع لظهور حركات الإصلاح الديني وبالتالي لانتشار المذهب البروتستانتي (المترجم) .

حامي الفنون ، الذي حمله على اعتناق النصرانية على أيدي ثلاثة أساقفة في قصر سانتانج الذي أقام فيه إقامة جبرية سنة كاملة . وأخيرا تم تعميد الحسن بن محمد الوزان الزياتي ، على يد البابا نفسه في كنيسة القديس بطرس ، في روما بتاريخ السادس من كانون الثاني (يناير) عام ١٥٢٠[١٧] ، وسمي جوهانيس ليود وميديسيس[١٨] ، أما هو فقد اتخذ لنفسه اسم جان ليون غراناتينو ، وبالعربية يوحنا الأسد الغرناطي . وقد عرف فيما بعد تحت اسم ليون الإفريقي ، وهو الاسم الذي أطلقه عليه راموزيو ، وذلك استنادا إلى ما اشتهر به بين معاصريه .

هذا ولا تزال تفاصيل إقامته في إيطاليا غير معروفة . ونعرف أنه كان يدرِّس العربية في مدينة بولونية الإيطالية ، وأنه كان يتردد على رجال الأدب . ولكن هل ختم حياته في إيطاليا قبل عدة أعوام سبقت تاريخ ١٥٥٠[١٩] ، كما ورد في مقدمة الطبعة الرابعة التي أصدرها راموزيو عام ١٥٨٨ ؟[٢٠] ، وهل قفل من إيطاليا عائدا إلى تونس كما عبر عن نيته صراحة في كتابه « وصف إفريقيا » ابتداء من عام ١٥٢٥[٢١] ؟ وهل عاد إلى حظيرة الإسلام كما تؤكد ذلك بعض النصوص ؟ وهذا هو الأمر الأكثر احتمالا . ولم يكن عمره يتجاوز الأربعين عاما عندما دبج كتابه . فقد كان نشاطه الثقافي كبيرا جدا استناداً إلى مشاريعه في التأليف ، والذي يعرضه علينا في نهاية كتابه الثامن عن وصف أوربا ، ثم عن القسم الآسيوي الذي زاره ، وأخيرا عن إفريقيا . وفي الواقع لقد سبق له أن انتوى ، أو ربما كتب فعلا ، مختصرا في التاريخ الإسلامي ، الذي يتكلم عنه في أكثر من مكان ، مما يحملنا على الاعتقاد بأنه أنجز فعلا هذا المؤلف ، بالإضافة إلى كتب تاريخ إفريقيا الحديث ، وكتاب البلاغة في اللغة العربية ، وكتاب في النحو الخ . . وحتى أيامنا هذه لم يمكن العثور إلا على الجزء العربي من مفردات بلغات متعددة ، صدر في بولونية بتاريخ كانون الثاني في (يناير) ١٥٢٤[٢٢] والذي تحتفظ به مكتبة الاسكوريال في مدريد .

ومن الواضح أن كتابه « تاريخ إفريقيا الحديث » سيكون ثمينا للغاية بالنسبة

---

(١٧) ٩٢٨ هـ .

(١٨) نقلا عن السيدة الأستاذة كودازي .

(١٩) ٩٥٧ هـ .

(٢٠) ٩٦٦ هـ .

(٢١) ٩٣٣ هـ .

(٢٢) ٩٣٢ هـ .

لمؤرخي تلك الفترة الغامضة . ونحن نأمل أن تكون السيدة آنجيلا كودازى ، التي تتابع أبحاثها المتأنية منذ بضعة أعوام ، قد تمكنت من جمع الوفير من المعلومات وأن تصبح معارفنا بفضلها أكثر دقة في هذا التاريخ .

وقد ظل « الوصف » الذي قدمه ليون موضع ثقة في خلال أكثر من ثلاثة قرون ، إذ ثبت أن مخطوط ليون كان معروفا ويستفاد منه على نطاق واسع منذ ١٥٢٩ م . وقد كان هذا المؤلف وثيقة جغرافية أساسية ، وخاصة بالنسبة لعلماء الخرائط الجغرافيين الذين يبدو أنهم استفادوا من مصادر أخرى لا يستهان بها . ولا تزال الدهشة تعترينا من صحة بعض التفاصيل التي قدمها ليون ، ومن صواب نظراته كباحث كان ، على الرغم من تكوينه العلمي القديم ، متمتعا بروح عصرية ، وكان تجرده كبيرا . فلم يكن لديه أية كراهية إلا « للأعراب » الذين نسب إليهم ، كما فعل ابن خلدون ، مسئولية تخريب بلاد الشمال الإفريقي* . وفي هذا المجال نحرص على أن نوضح للقارىء غير المتمرس أن عرب القرن السادس عشر لم يكونوا سوى أحفاد قبائل عربية ، أو من افخاذ قبائل عربية فوضوية تخلص منهم خلفاء مصر الفاطميون بأن دفعوا بهم لكي يبحثوا عن معيشتهم في المغرب حوالي سنة ١٠٥٠ م . أما العرب الأصلاء الذين قاموا بفتح البلاد ، أو الذين حكموها بعدئذ ، فقد انصهروا منذ زمن طويل في السكان البربر ، ما عدا بعض الحالات الاستثنائية النادرة . وحتى لو كان ليون نفسه ، وهذا محتمل جدا ، ينحدر من أصل عربي بعيد جداً ، فهو لن يرتاح اذا وصف بانه عربي ، وشبِّه بأولئك الناس ، الذين كان بعضهم رجال أمن ، وبعضهم قطاع طرق والذين كان عدد كبير منهم يعيث فسادا في أرياف إفريقيا الشمالية .

وإذا كان لكتاب ليون مزايا رفيعة جدا ، ويقدم توثيقا يعتبر من أثمن المصادر ، فهو مع هذا يبدو حاويا على عدد ضخم من الأخطاء الناجمة عن أسباب عديدة . فقد كتب بدون شك كثيرا منه اعتمادا على الذاكرة التي كانت رائعة أكثر مما أشار إليه في مناسبات عديدة ، ولكنها لم تكن أمينة كل الأمانة ولا معصومة ؛ فقد ارتكب أخطاء بارزة جغرافية

* يقصد ابن خلدون بكلمة « العرب » في جميع الفصول التي وردت فيها هذه الكلمة في « المقدمة » البدو الرحل ، وخاصة المشتغلين بمهنة الرعي (انظر كتابنا « عبقريات ابن خلدون » صفحات ٢٣٨ ـ ٢٤٤ ومقالنا في مجلة « الأصالة » الجزائرية عدد سبتمبر وأكتوبر ١٩٧٣ بعنوان « اتهام ابن خلدون بالتحامل على العرب » وتعليقنا رقم ٣٥٩ على مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٩ « الجزء الثاني » الطبعة الثانية للجنة البيان . . . (المراجع)

وتاريخية . واعتمد أحيانا على روايات رحالة غير صحيحة ، أو مفسرة تفسيرا غير صحيح ، كما أنه لم يقرأ مذكراته مرة ثانية بدقة . وهكذا تتعذر قراءة نص ليون إلا في ضوء شرح مفصل .

وقد بذلنا جهدا لجعل الترجمة حرفية قدر الإمكان ، حتى لو كان ذلك على حساب اللغة الفرنسية ، التي فقدت هنا فتنتها الحقيقية التي عرفتها في ترجمة تامبورال ، والتي كانت متأنقة على حساب المعنى . وقد توسعنا في الشروح التاريخية لنمهد السبيل أمام القارىء كي يدرك الوقائع في الصورة المتسقة مع الحقيقة التي يسمونها التاريخ ، وهي لا تعدو أن تكون حقيقة نسبية غير مطلقة . ولن يفوت العلماء المختصين كشف أخطاء بارزة في هذه الشروح . ونحن نعتذر عنها مؤكدين بأنه لم تكن لدينا مطلقاً نية تقديم عمل علمي في ثوب جديد ، إذ لم نتصدر لدراسة « وصف » ليون إلا بناء على ما لدينا من معرفة لا بأس بها عن بلاد إفريقيا الشمالية ، ولا سيما المغرب بشكل خاص . ومن المسلم به مثلا أن مسألة النقود والأوزان والمقاييس بحاجة لمعالجة جديدة على أيدي المختصين . كما أن ليون نفسه لم يكن يرمي إلى إعطائنا أرقاما دقيقة ، وقد حاولنا أن نعطي ما يكافىء هذه الأرقام بصورة معقولة بالفرنسية الحديثة . وعند هذا الحد توقفت أبحاثنا التي لا تزال بدون شك في حاجة إلى كثير من التصحيح . وقد وجه المترجم السابق تامبورال في عبارة ودية نظر القارىء إلى هذه الحقيقة إذ يقول : « وهكذا سنلاحظ أن ليون ، مؤلف هذا التاريخ عن افريقيا ، والذي كتب مؤلفه في روما ، باللغة الإيطالية ، إنما استخدم أميالا معروفة محليا ، يعادل اثنان ونصف منها مرحلة فرنسية » ولكن الميل الإنجليزي ، الذي يعادل ١٦٠٩ أمتار هو الذي يقابل تقديرات ليون . .

وقد سمحت لنا أبحاثنا الخاصة والتي أكملتها الملاحظات الثمينة التي أخذناها عن المهتمين بهذه الناحية ، أقول سمحت لنا بتشخيص عدد من الأمكنة الجديدة ، ولا يزال عدد منها يتطلب تحديد مكانه بشكل دقيق ، إذ يكون من اللازم ضبط كتابتها بصورة صحيحة .

هذا ولم يكن باستطاعتنا إنجاز هذه المهمة الكبيرة نسبيا لولا العون الكبير الذي تلقيناه في العديد من المجالات بفضل المساعدة الفعالة والتضلع اللذين وجدناهما لدى عدد كبير من الأشخاص الذين آسف كثيراً لعدم استطاعتي سرد أسمائهم جميعا هنا .

ومن المؤكد أنه لولا التعاون النشيط من جهة السيد تيودور مونو الاستاذ في « الموزيوم »* ومدير المعهد الفرنسي لإفريقيا السوداء في دكار ، والذي التحق به بعدئذ السيد ريمون موني ، مساعده ، ولولا هنري لوت الملحق بمتحف الإنسان في باريس وجوّاب الصحراء الكبرى المشهور ، لما اقتصر الأمر على قصور مراجعنا قصورا كبيرا فيما يتعلق بالموضوعات ، المعروفة لديهم ، بل لما استطاع الكتاب نفسه أن يرى النور .

وندين بالشيء الكثير للسيد روبير ريكار ، الأستاذ في السربون ، والذي يعتبر اتساع معرفته عن قضايا إفريقيا ، في عصر ليون ، فريدا جدا . كما تفضل الأستاذ جاستون فييت ، مدير المتحف العربي في القاهرة ـ والذي يعتبر كتابه « تاريخ مصر » حجة ـ بمراجعة الجزء الخاص بمصر في هذا الكتاب . وقدم لنا كل من الأستاذ بوانسو في تونس و ج . مارسيه في الجزائر معلومات ثمينة . ووضع الأساتذة : ليفي بروفنسال ، الأستاذ في السربون ، والسيد كولان الأستاذ في مدرسة اللغات الشرقية ، والسيد مارسي ، المختص المشهور بالدراسات البربرية ، أقول وضع هؤلاء كفاءتهم العالية في خدمتنا . وكذلك تفضل السيد رونيه جروسيه ، عضو الأكاديمية الفرنسية ، بإرشادنا في بعض الأبحاث التاريخية .

ولم نعمد إلى سرد أسمائهم لإعطاء ضمانة لهذا العمل ، لأن هذا سيكون نوعا من سوء الاستغلال . ولكننا سنستوحي من تواضع راموزيو في إهداء كتابه للعالم جيروم فراكاستور ، وهو الإهداء الذي سنرى ترجمته بعد قليل ، وسنؤكد لهم عرفاننا الصادق للفائدة التي قدموها لهذه المحاولة الرامية إلى نشر « وصف » ليون كائنة ما كانت نواقصها .

*** « الكسيس بولار »

---

* يقصد به متحف التاريخ الطبيعي في باريس (المراجع)

لقد توقف نشر هذا المؤلف بغته ، بينما كان العمل يقارب نهايته ، بسبب الوفاة الفجائية للطبيب الجنرال ايبولار[1] الذي نحنيّ هنا ذكراه ، في أعقاب ظروف مؤلمة . فقد ظل المخطوط مفقودا خلال بضعة أعوام رغم بحث أهم معاونيه الذين كانوا حريصين كل الحرص على نشر الكتاب الذي أتمه صديقهم العظيم .

وأخيرا وبفضل عناية السيدة إيبولار (أرملة المأسوف عليه إيبولار) تم وضع المخطوط بين يدي الأستاذ هـ . تيراس مدير معهد الدراسات العليا المغربية ، الذي اهتم بنشاط بنشر الكتاب ، ووصل الكتاب أخيرا ليدي السيد لوت ، الذي عهد إليه بشئون الطباعة بشكل خاص .

وقد أعيدت كتابة بعض التحقيقات أو أضيفت ولا سيا في الجزء المتعلق بالصحراء الكبرى والسودان ، والملاحظات التي تحمل الحروف الأولى من الأسماء هي التي تعكس بشكل خاص رأي أحد المحققين .

ونظرا لنفاذ ترجمة تامبورال لكتاب ليون ، وهي الترجمة التي قام بطبعها شيفر بين عامي ١٨٩٦ و١٨٩٨ ، والتي لم تعد في متناول الجمهور ، بينما لا تزال ـ نظرا لنوعيتها والقدر العظيم من المعلومات التي تشتمل عليها ـ كتابا مفيدا لأبناء هذا العصر ، لذلك نأمل أن يقدر المختصون بالدراسات الإفريقية هذه الطبعة الجديدة حق قدرها والتي أنجزت لخدمتهم . ذلك أن النهضة التي تتخذها الدراسات التاريخية عن إفريقيا جعلت من الضروري وضع هذا الكتاب تحت تصرفهم ، والذي يظل معينا قيما لدراسة ماضي هذه القارة ، بعد أن كان أساس المعارف الجغرافية عن هذا الجزء من العالم خلال عدة قرون من الزمن .

ت . مونو ، هـ . لوت ، ر . موني .
TH. MONO D H. LHOTE et R.MAUNY

ملحوظة : لقد أخذت الخرائط التي حضرّها ايبولار شكلها النهائي بجهود هـ . لوت ، وتم رسمها في مكتب الرسم في متحف الإنسان في باريس . ونود هنا أن نشكر هذه الدائرة لتعاونها الثمين وأن نعبر عن عرفاننا للسيد الأستاذ فالوا للتسهيلات التي تكرم بها علينا لإنجاز هذا العمل .

---

(١) توفي الطبيب الجنرال ايبولار بتاريخ ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٩

إلى سعادة السيد جيرومو فراكاستور

من جان باتيست راموزيو

لقد كان من عادة القدامى ، والتي لا زالت معهودة حتى أيامنا ، أن يعمد الذين يرغبون في نشر تصانيفهم ، سواء المنثور منها أو المنظوم ، إلى إهدائها لرجال قادرين على الحكم عليها ، أو للأصدقاء الذين يودون قراءتها ، أو للذين يضفي بريق أسمائهم على المؤلفين مزيدا من الثقة والشهرة .

وأود أن أحافظ على هذا التقليد ، وذلك بمناسبة العمل الذي فرغت من إنجازه ، والذي يتمثل في تجميع بعض التصانيف عن شئون إفريقيا والهند . ولم أجد أية شخصية أخرى سوى سعادتكم أستطيع أن أقدم لها عملي ، فهي وحدها التي تستجيب أفضل استجابة للهدف الذي أقوم بعرضه . وفي الواقع لا أتصور أبدا أن هناك احدا ـ بفضل ما له من مكانة ـ يمكن أن يكون أحسن منكم حكما على مؤلفي ، أو أشد حفاوة به أو تقديرا له .

وهذا يعود أولا إن سعادتكم أرسخ من أعرفهم قدما في علم الجغرافية ، وإلى أنكم ارتأيتم أنني سأجلب بعض المسرة للناس بفضل هذا المؤلف ، وإلى أنكم منذ البداية شجعتموني على القيام بهذا المشروع ، ولأسباب كثيرة أيضا شددتم عزيمتي في عدة مناسبات ، وذلك بفضل المحادثات الحكيمة والمناقشات الودية التي كانت لي مع السيد الكريم الكونت ريموندو ديلاّتوره ، الذي سبق له أن أنصت بسرور لجنابكم وأنتم تتكلمون بعلم غزير عن كثير من الأمكنة والكثير من المواقع .

وأخيرا رغبت في أن أترك للخلف ، بعملي هذا ، نوعا من شاهد على صداقتنا الطويلة الطاهرة . ولن أستطيع أن أصنع خيرا من ذلك تجاه الاحترام الذي أدين به لجنابكم ، وللمودة التي تحملونها لشخصي ، وإنني لعلي يقين بأن هذا المؤلف سيكون عزيزا عليكم وستقرءونه عن طيب خاطر .

ولكنني إذا كنت أريد إتمام رغبتي في رؤية عملي هذا حيا بين الناس ، فلن أستطيع

أن أعمل خيرا من أن أقدمه لاسمكم الشهير . إنني مقتنع بأنه بعد فناء الجسد ينبغي أن يظل هذا الاسم خالدا ، نظرا لأن جنابكم كان الوحيد ، في عصرنا ، الذي عمل على إحياء طريقة القدامى الجليلة في الكتابة في مجال العلوم . فأنتم لم تقلدوا ، ولم تحرفوا ، ولم تنقلوا كتابا عن كتاب ، كما لم تنسبوا لأنفسكم أشياء الآخرين كما فعل الكثيرون ؛ بل عملتم على تمحيص الوقائع بحذق ودراية . وقدمتم للعالم عددا من الطرق الجديدة التي لم يسمع أحد كلاما عنها من قبل بل التي لم يتصورها أحد . وهذا ما حدث في علم الفلك ، فقد اكتشف شخصكم الحركات السماوية مع يقين مطلق ، وأوجد نظرية غاية في احكامها عن وحيدات المركز . وفي الفلسفة ، فقد مهدتم للطريقة السرية التي تولد فينا الذكاء والطريقة التي كانت مجهولة للبحث عن أسباب ظاهرات غريبة ، أسباب ظلّت مخفية خلال العديد من القرون ، كأسباب التوافق والتنافر الطبيعية ، والتي نلاحظها في ظروف كثيرة . أما في مجال الطب فقد درستم أسباب الأمراض السارية وأفضل الطرق وأسرعها في علاجها . وإني لأترك جانبا قصيدة مرض الزهري ، التي على الرغم من أنها كتبت بقلم جنابكم في سن الشباب ، والتي تبدو كأنها لعبة ، فهي مع ذلك مليئة بأفكار فلسفية وطبية وبديعة جدا ، وموشاة بحلة قشيبة من أفكار قدسية ، ومزدانة بأزهار شعرية متنوعة ، حتى أن رجال عصرنا لا يعتورهم ريب في أنها تعادل القصائد القديمة ، مما يضعها في عداد القصائد التي تستحق البقاء وأن تقرأ خلال قرون لا نهاية لها .

لقد اعتبرت الدول والإمارات والثروات والأشياء التي من هذا القبيل والتي يمنحها الحظ ، اعتبرت دائما أمورا غير مستقرة وقصيرة البقاء . وهي في الحقيقة كذلك . أما كنز العقل ، ولا سيما إذا كانت قيمته من مستوى عقل جنابكم ، فمن المعروف يقينا بأنه متين ، يقاوم أية إهانة ويصمد لكل صرف من صروف الدهر ، ويعمل جاهدا ، رغم أنف الزمن ، ليصبح سرمديا وخالدا . وما أقوله هو الحقيقة . وإن من يرغب في التكلم عن حياة عدد ضخم من كبار الأمراء أو الأشراف الذين عاشوا في إيطاليا أو في أجزاء أخرى من العالم ، بل من يرغب في التكلم عن المعاصرين أنفسهم ، فإنه بلا شك سيجد فيما يتعلق بكثير منهم ، إن لم نقل فيما يتعلق بأكبر عدد منهم ، أن اللحد الذي احتوى أجسادهم قد أسدل رداء النسيان على أسمائهم ، بينما نرى أن ذكرى العديد من العلماء والكتاب الذين ماتوا منذ عدة قرون ، لا تزال تعيش بين ظهرانينا ، وتنعم بنضارة نامية في كل ساعة تمضي .

وهكذا أحسب إذن أنني قمت بأفضل اختيار ، باعتبار الهدف الذي كنت أرمي إليه قبل كل شيء . فقد جُذبت إليه بنوع من غريزة محبة عفوية وتبجيل تجاه رجال الأدب الذين يهتمون خاصة بالعلوم الفلكية والطبيعية .

ويتراءى لي في الواقع أن العلوم المذكورة تحوي شيئا الاهيّاً نوعا ما مما يجعلها مؤهلة للتشريف والإعجاب بين الناس . ولكن السبب الذي حدا بي لبذل الكثير من العناء ، عن طيب خاطر ، في هذا العمل بالذات ، هو التأكد الذي حصلت عليه من دراسة وتمحيص لوحات بطليموس الجغرافية ، فقد وجدت أن اللوحات التي تصف أفريقيا والهند تشكو من نقائص كثيرة تجاه المعرفة الواسعة التي لدينا حاليا عن هذه المناطق وقد قدرت أن جمع أقاصيص كتاب عصرنا ، الذين كانوا في هذين الجزأين من العالمَ والذين تكلموا عنها بصورة مفصلة سيكون عملا ثمينا وجزيل الفائدة . وإذا ضممنا إليه صورة عن الخرائط البحرية البرتغالية ، فسيكون صنع عدد مكافىء من اللوحات عملا ذا فائدة كبيرة لأولئك الذين يهتمون بهذه المسائل ، إذ سيصبحون على يقين من درجات العرض والطول ، وذلك على الأقل بالنسبة لسواحل كل هذه الأصقاع ، ومن أسماء الأمكنة ، والمدن والأمراء الذين يقطنون فيها حاليا ، وسيتمكنون من موازنة هذه اللوحات مع ما كتبه الأقدمون .

ترى كم كابدت روحي الكليلة والصغيرة من عناء في هذا العمل ، ولا سيما بسبب تنوع اللغات التي كتب بها هؤلاء المؤلفون ، ولا أريد أن أشير إلى ذلك الآن كيلا يظهر أنني أبالغ في الكلام عن متاعبي وسهدي . ولكن آمل من قرائي الكرام أن يلاحظوا ذلك ، في بعض الأمكنة ، عندما يفكرون في هذا الأمر . وإذا كنا قد ارتكبنا عددا كبيرا من الأخطاء ، وهذا ما أعترف به حقيقة ، فهذا لم يصدر عن قلة في العناية من جهتنا ، بل يعود ذلك بالأحرى إلى أن مستوى ذكائنا عجز عن مجاراة حماس إرادتنا الطيبة .

وفضلا عن ذلك فإن نسخ المؤلفات التي وصلت إلى يدي كانت مضطربة للغاية ومغلوطة ، وهذا ما كان يخيف أي نفس جلودة وجريئة إذا لم تكن مدعومة بفكرة الحبور الذي يستشعره هواة المسائل الجغرافية ، ولا سيما من معرفة ذلك الجزء من إفريقيا الذي كتبه جان ليون . وليس هناك ، كما نعرف ، أي مؤلف آخر في عصرنا أعطى مثل ذلك القدر من المعلومات عنه ، وبمثل تلك الغزارة وذلك اليقين .

ولكن ماذا أقول عن المتعة التي سيحصل عليها الأدباء والدارسون ؟ ومن ذا الذي يرتاب في أن العديد من الأشراف والأمراء ستنشرح نفوسهم من هذه المطالعة ؟ ومن حق هؤلاء أكثر من سواهم أن يعرفوا أسرار هذا الجزء من العالم وخصائصه ، وتفاصيل تلك المناطق وأقاليمها ومدنها ، والعلاقات المتبادلة بين الأشراف وبين الأقوام التي تسكنها ، حتى لو كانوا مطلعين ، أو عرفوا بعض الحقائق من أشخاص آخرين سبق لهم أن جابوا هذه الأقطار ، او قرأوا ما كتبه هؤلاء ، أو استمعوا إلى ما سردوه عليهم ، وكان لديهم بفضل ذلك فكرة مسبقة عن عدد هذه المواقع واتساعها ، فإني لعلي يقين أنهم عند مطالعة هذا الكتاب ، وبعد الإلمام بما يحتويه ، وما هو معروض فيه ، سيظهر لهم أن المعلومات التي لديهم تبدو بالمقارنة مع مكنونات هذا الكتاب ، معلومات مبتسرة وناقصة وقليلة القيمة ، تلك هي الثمرة التي سيجنيها القراء من هذا الكتاب والتي ستوفر لهم كل ما يحبون .

ولقد تردد مؤلِّفنا (يقصد جان ليون) كثيرا على قصور أمراء بلاد المغرب ، كما اشترك معهم في عدة حملات حربية ، في عصرنا ، وسأروي عن حياته ما ورد عن أشخاص جديرين بالثقة من الذين عرفوه وترددوا عليه في روما .

لقد كان مغربيا مسلما ، ولد في غرناطة ، وعندما استولى الملك الكاثوليكي على هذه المملكة ، كان هذا في جملة الذين التجأوا إلى بلاد المغرب مع أسرته ، وأتمَّ تحصيله بالعربية في مدينة فاس . وقد كتب في هذه اللغة عدة مؤلفات في علم التاريخ ولكنها لم تصل إلينا حتى الآن ، فضلا عن كتاب في علم النحو يقول الأستاذ يعقوب مانتينو أنه بحوزته . ولقد جاب كل أرجاء الشمال الإفريقي ، وبلاد السودان ، وجزيرة العرب ، وبلاد الشام ، مسجلا كل ما رآه وما سمعه . وفي آخر مرحلة سقط في الأسر ، في جزيرة جربه ، في عهد البابا ليون ، بواسطة أحد مراكب القرصان . وقد اقتيد إلى روما حيث قدم هدية لقداسته . ولما رآه البابا ، وأدرك أنه يهتم بقضايا الجغرافيا ، وأنه سبق أن ألف كتابا يحمله معه ، أكرم وفادته وأثنى عليه كثيرا ومنحه مرتبات طيبة كي لا يغادر البلاد . وبعدئذ ناشده أن يعتنق النصرانية وأوصله لذلك ومنحه اسميه جان وليون . وهكذا سكن ليون مدة طويلة في روما بعد ذلك . وتعلم فيها اللغة الإيطالية قراءة وكتابة وترجم كتابه من العربية قدر استطاعته . وهذا الكتاب الذي كتبه بيده وصل إلينا في أعقاب أحداث عديدة سيكون ذكرها نوعا من إسهاب . أما نحن فقد بذلنا أحسن عناية بإمكاننا وقد اجتهدنا في سبيل إخراجه للنور ، بكل أمانة ، على الصورة التي يقرأ فيها الآن .

وَصف افريقيا
وَما فيها من أشياء
جَديرة بالإهتمام

القسم الأول
منشأ إسم إفريقيا

تدعى أفريقيا بالعربية ، إفريقية ، من كلمة فَرَقَ التي تقابل معنى الكلمة اللاتينية Separarit وهناك رأيان حول أصل هذه التسمية . فالأول يرتكز على أن هذا الجزء من العالم ينفصل عن أوربا وعن جزء من آسيا بواسطة البحر المتوسط . ويرى القول الثاني أن هذا الاسم مشتق من أفريقوس ملك بلاد العرب السعيدة ،[1] على اعتبار انه أول من جاء وسكنها ، فبعد أن هزم هذا الملك في معركة مع آشور وطرد من مملكته عجز عن العودة اليها ، فعبر النيل على عجل متابعا طريقه نحو الغرب ولم يتوقف قبل وصوله الى ضواحي قرطاج . ولهذا فان العرب لا يقصدون بإفريقية سوى ضواحي قرطاج ذاتها ، ويطلقون على مجموع افريقيا اسم المغرب .[2]

حدود إفريقيا

يعتبر النيل ، وذلك استنادا الى العلماء الأفارقة والجغرافيين ، تخما شرقيا لافريقيا ، وهذا ابتداء من روافد بحيرة غاوغه جنوباً[3] وحتى مصب هذا النهر في البحر الابيض المتوسط ، وتمتد غربا حتى اعمدة هرقل . وتذهب غربا من هذا المضيق حتى نون ، وهي

---

(١) اليمن .

(٢) الواقع كان الرومان يسمون آفر Afer وجمعها أفرى Afri ، المواطن البوني من اهل قرطاج وذلك عندما اجتاحوا قرطاج عام ١٤٦ ق . م ، وخربوا المدينة وانشأوا مقاطعة افريقيا Provincia Africa أو اقليم الأفر اختصارا ، اما العرب فقد تحولت عندهم كلمة افريقيا الى إفريقية Ifrikiya وهو اسم كانوا يقصدون به تقريبا بلاد تونس الحالية ، في حين كانت كلمة مغرب أي بلاد المغرب ، تعني عندهم كل المنطقة المحصورة بين ضفة النيل اليسرى والمحيط الأطلنطي .

(٣) بحيرة غير محددة الموقع تماماً ، لأن أعالي النيل لم تكن معروفة عند العرب في القرن السادس عشر .

آخر موقع من ليبيا على المحيط .[٤] وتبدأ افريقيا في الجنوب من رأس نون وتمتد على طول المحيط الذي يطيف بها حتى صحراء غاوغه .[٥]

أقسام إفريقيا

تنقسم افريقيا ، كما يرى كتابنا الى أربعة اقسام وهي : بلاد البربـر ، نوميديا ، ليبيا ، وبلاد السودان . وتبدأ بلاد البربر في الشرق من جبل معيز ، وهو آخر بروز من جبال الاطلس على مسافة ثلاثة آلاف ميل تقرٰيبا من الاسكندرية .[٦]

ويعتبر البحر المتوسط حدا شماليا لها ابتداء من جبل معيز حتى اعمدة هرقل . وفي المغرب تبدأ حدودها من هذا المضيق وتحاذي ساحل المحيط حتى آخر بروز من جبال الاطلس ، أي عند النهاية الغربية لهذه الجبال ، على حافة المحيط ، عند المكان الذي تقوم فيه مدينة ماسّه .وتنتهي بلاد البربر جنوبا قرب جبال الاطلس. أي عند سفح هذه الجبال المطل على البحر الابيض المتوسط . وهنا نجد أشرف جزء من افريقيا حيث نجد أناسا من الجنس الابيض يسيرون وفق نظم منبثقة من التفكير السليم ومن القوانين الوضعية .

أما القسم الثاني فيسمية اللاتين نوميديا ، والعرب يدعونه بلاد الجريد وهي البلاد التي ينمو فيها النخيل ،[٧] وتبدأ نوميديا شرقا من الواحات ، وهي مدينة على مسافة مائة

---

(٤) يتخيل المؤلف واحة تحمل اسم نون تقع في الجنوب على الساحل في المنطقة الصحراوية ، أي في أراضي موريتانيا الحالية . وقد اطلق قدامى الملاحين الأوربيين اسم رأس نون على بروز ساحلي كانوا يحاذون الساحل حتى بلوغه كي يتجهوا بعدئذ نحو جزر الخالدات (كناري) وظل هذا الرأس لمدة طويلة أبعد النقاط التي يترددون عليها جنوبا وغربا . ويجهل السكان المحليون اسم رأس نون الذي أطلقه البحارة الاوروبيون على هذه المنطقة ، كما يعتقد انهم كانوا يصلون من هذا الموقع الى وادي نون المأهول وذي الحركة التجارية النشيطة ، ويغلب على الظن أن هذا الرأس والوادي يقعان في جوار منطقة إيفني ، قرب ضريح سيدي ورزيك .

(٥) وهنا يجدر بنا ان نذكر ان الاوروبيين كانوا يعرفون حينئذ أن البرتغاليين قد داروا حول القارة الافريقية لبلوغ الهند وذلك عام ١٤٨٧م/ ٨٩٢هـ ، في حين ظل الجغرافيون العرب على المفاهيم الجغرافية للقرون السابقة لهذا التاريخ » ويعود هذا لدمار أساطيلهم بفعل الحصار الذي ضربه البرتغاليون حول السواحل العربية سواء في المغرب او المحيط الهندي (المترجم) .

(٦) كان الجغرافيون العرب يعتبرون جبال الاطلس سلسلة متواصلة ممتدة من ساحل المحيط الاطلنطي حتى العقبة جنوبي خليج السلوم ، أما جبل معيز الذي يحدده المؤلف على مسافة ٥٠٠٠ كم من الاسكندرية فلم يمكن التعرف عليه بشكل دقيق .

(٧) اطلق اللاتين بالفعل كلمة اقليم نوميديا ، على الكتلة الجبلية التي تؤلف تقريبا حوض نهر المجردة ، أي السهل الواقع الى الشرق في منطقة قرطاج ، فقد كان مأهولا بجماعات الآفري ، وهي أقوام كانت تعيش في الغرب ، منتشرة حتى ساحل المحيط وكانت مشمولة باسم مورى ، في حين كان كل السكان المحليين في الهضاب العليا وما وراءها ، ابتداء من الساحل التونسي حتى الساحل الأطلنطي ، كانوا معروفين تحت اسم الجتولي . أما تسمية نوميدية او النوميديين فقد كانت على الارجح اسما من

ميل من مصر .[٨] وتبدأ نوميديا غربا حتى نون الواقعة على ساحل المحيط . وتمتد شمالا حتى جبال الاطلس على السفح الجنوبي . وبذلك تتاخم رمال صحاري ليبيا من الجنوب ، ويطلق العرب [٩] نفس الاسم على كل هذه الاصقاع التي تنتج التمور لأن لها جميعا نفس الموقع .

ويدعى القسم الثالث ليبيا في اللاتينية ، ولكنه لا يحمل في العربية اسما آخر سوى الصحراء أي القفار [١٠] . وتبدأ شرقاً من تخوم الواحات كي تمتد غربا حتى المحيط . وتتاخم نوميديا من الشمال بلاد النخيل وتتاخم من الجنوب بلاد السودان ، ابتداء من مملكة ولاته شرقا ، والتي تقع على المحيط .[١١]

ويبدأ القسم الرابع ، أي بلاد السودان ، من شرقي مملكة غاوغه ويستمر غربا حتى مملكة ولاّته [١٢] وتتاخم بلاد السودان من الشمال صحراء ليبيا . وتنتهي بلاد السودان جنوبا في أمكنة نجهلها ، ولكننا نملك عنها معلومات جديدة استقيناها من تجار يأتون من هذه المناطق الى مملكة تومبوكتو . ويمر من أواسط بلاد السودان نهر النيجر ، الذي يتولد في صحراء تدعى سو ، وحيث يخرج من بحيرة .[١٣] واستنادا الى ما يؤكده جغرافيونا فان نهر النيجر هو عبارة عن فرع من النيل يغور تحت الارض ، ومن ثم ينبثق منها كي يشكل هذه البحيرة . ويقول البعض ان هذا النهر ينشأ في الغرب ، في جبال ، وثم يجري

أصل بربري ، ولكنه التبس منذ العصور القديمة مع عبارة نوماد الإغريقية ، ومعناها الرعاة ، او الرعاة المتنقلون ، حتى لقد اشتملت هذه التسمية المحلية للقبائل الجبلية المستقرة أقواماً بدوية ، وكان هذا الاتساع في التسمية راجعاً على الاخص الى المؤلفات الأدبية : هذا ولا توجد وثائق قديمة معروفة تتكلم على الخصوص عن الواحات وتعطيها اسما اجماليا ومعنى عبارة بلاد الجريد بلاد النخيل .

(٨) ويقصد بالواحات هنا البلدة الرئيسية في واحة الخارجه ، المرتبطة في أيامنا بنهر النيل بواسطة خط حديدي طوله ١٠٦ أميال أو ١٧٠ كم . أما في كتابه الرابع ، فيضع الحسن هذه الواحات في ليبيا .

(٩) أي البدو من بني هلال وسليم وسواهم .

(١٠) لم تكن ليبيا بالنسبة للإغريق أولا ، ثم بالنسبة الى اللاتين ، عبارة عن المناطق الصحراوية الحالية فحسب بل كل المنطقة المأهولة بالجنس الابيض بين نهر النيل والمحيط .

(١١) الواقع ان بلاد ولاّته ، التي لم تكن مملكة بحد ذاتها ، لم تمتد مطلقا حتى ساحل المحيط الاطلنطي .

(١٢) ان العبارة ايثيوبيا نفس معنى السودان باللغة اليونانية ، وسيستعمل المؤلف احيانا هذه التسمية كما سيقصد ايضاً بكلمة اثيوبيا او بعبارة ايثيوبيا العليا الحبشة الحالية .

(١٣) الواقع كانت ضفاف بحيرة تشاد مأهولة سابقا بقوم من الزنوج يدعون ساءو . (انظر كتاب « حضارة التشاد » الصادر عام ١٩٥٠ في باريس عن دار بايو) .

نحو الشرق كي يتحول الى بحيرة . وهذا غير صحيح ، فقد ركبنا متن هذا النهر بالفعل منطلقين من تومبوكتوشرقا وسرنا مع تيار الماء حتى مملكة جنه ، وحتى مملكة مالى ، وكلاهما الى الغرب من تومبوكتو (١٤) وأجمل بلاد السودان هي تلك التي تمتد على طول نهر النيجر . وأوجه انتباهكم إلى انه نظرا الى ما يقوله الجغرافيون ، فان قسما من بلاد السودان التي يخترقها نهر النيل في قسمها الغربي ، تمتد شرقاً حتى بحر الهند ويبلغ في بعض النقاط البحر الاحمر في اتجاه الشمال ، في جزء من هذا البحر يقع الى ما وراء المضيق الذي يفصل هذه البلاد عن بلاد العرب السعيدة ، (١٥) ولا يعتبر هذا الجزء من إفريقيا لأسباب عديدة وردت في مجلدات طويلة ويسمّي اللاتين هذا القسم أثيوبيا ، ومن هناك يأتي بعض الرهبان الذين تكون وجوههم موسومة بالنار ويمكن رؤية بعضهم في كل أوربا ، ولا سيما في روما . ويحكم هذه البلاد رئيس ، هو نوع من بطريق يسميه الطليان الكاهن حنا . والقسم الاكبر من هذه المنطقة يقطنه نصارى . وهناك زعيم مسلم يملك فيها مع ذلك ولاية كبيرة .

أقسام وممالك هذه الأجزاء الأربعة من إفريقيا

تقسم بلاد البربر الى أربع ممالك :

الأولى هي مملكة مراكش التي تقسم الى سبع مناطق هي : حاحه ، السوس ، مراكش ، جزولة ، دكالة ، هكسورة ، وتادلة . (١٦)

والثانية هي مملكة فاس وتضم عددا مماثلا من المناطق وهي : تامسنة ، إقليم فاس ، أزغار ، الهبط ، الريف ، غارت ، والحوز .

الثالثة هي مملكة تلمسان التي تشمل ثلاث مناطق هي : الجبال ، تينس ، والجزائر .

الرابعة وهي مملكة تونس التي تخضع لها أربع مناطق هي : بجاية ، قسنطينة ،

---

(١٤) تدل هذه الجملة بصورة جلية أن المؤلف لم يقم بهذه الرحلة .

(١٥) مضيق باب المندب واليمن .

(١٦) نلاحظ هنا ان المؤلف الذي يكتب بالايطالية كان يلاحظ قاعدة اللغة العربية التي لا تضع لام التعريف امام الأسماء البربرية .

طرابلس والزاب. وتنتسب الأخيرة في معظمها الى نوميديا .

أما منطقة بجاية فقد كانت دوما منطقة متنازعا عليها . فأحيانا كان يملكها ملك تونس ، وتارات أخرى كانت تتبع ملك تلمسان . وقدتكونت منها في أيامنا مملكة مستقلة الى أن سقطت عاصمتها بيد الكونت بدرونا فارو باسم الملك فرديناند الاسباني .[١٧]

أقسام نوميديا
أي البلاد التي ينبت فيها النخيل

يعتبر هذا الجزء من افريقيا أقل شرفا من كل الاقسام الاخرى ،[١٨] ولهذا لم يمنحها جغرافيونا لقب مملكة . والأماكن المأهولة فيها متباعدة جدا بعضها عن بعض . وهكذا فان تيشيت[١٩] وهي مدينة من نوميديا ، تحوي ٤٠٠ أسرة ، ولكنها تقع على مسافة ٣٠٠ ميل ،[٢٠] من أية بقعة مأهولة في فيافي الصحارى الليبية . ولهذا لا تستحق إذن لقب مملكة . وسأقدم لكم ، مع هذا ، اسم هذه الاماكن المأهولة ، لأن بعض النواحي تكون مشابهة للمناطق الاخرى ، مثل دولة سجلماسة ، التي تنتسب الى موريتانيا ، ودولة الزاب التي تقع بمواجهة مملكة بجايه وبلاد الجريد التي تمتد في اتجاه مملكة تونس .[٢١]

أما بالنسبة لهذه الآونة فإني أترك امر الدراسة التفصيلية للقضايا المتعلقة بهذا الجزء من افريقيا لكتاب آخر من هذا المؤلف . وسأكتفي بسرد الاسماء التالية ابتداء من

---

(١٧) والواقع ان بجاية انتزعت من أيدي سلاطين تلمسان الزيانيين لحساب الحفصيين ملوك تونس في عام ١٣٦٠ م وظلت بأيديهم الى أن سقطت بيد الاسبان في ٢٥ ايار (ماي) ١٥٠٩ م/ ٩١٥ هـ . ولكنها كانت في معظم الاوقات تحت حكم امراء حفصيين . ومع هذا تمتعت بنوع من استقلال انقلب أحيانا الى تمرد على سلطة تونس المركزية .

(١٨) يقصد الجغرافيون العرب بعبارة « منطقة شريفة » أي منطقة غنية كثيرة الخيرات (المترجم) .

(١٩) في موريتانيا الحالية . وهكذا يذكر الحسن الوزان هذه المدينة في نوميديا ، وكذلك اعتبر توات وقوراره وطوقورت وورقلة وغدامس وفزان من مدن هذه المنطقة ، والتي هي في الواقع عبارة عن مواقع او مناطق صحراوية مما يبرهن على ان الوزان لم يكن لديه اكثر من معطيات تقريبية عن المعنى الجغرافي الصحيح للاسماء في نوميديا وليبيا ويرتكب عند كلامه عن المرابطين الذي اسسوا مدينة مراكش نفس الخطأ فيقول انهم قدموا من صحاري نوميديا . ومن جهة اخرى سنرى بعد قليل عند كلامه عن البرابيش وبلدة تيشيت كيف يضعها في ليبيا . ويأتي هذا التشويش والبلبلة يقينا من ان الوزان كان يعتبر الإقوا الصحراوية نوميديين مما يؤدي لصعوبة تحديد صحيح لما كان يسميه نوميديا وليبيا - هـ . ل . H. LHOTE

(٢٠) حوالي ٤٨٠ كيلومتر .

(٢١) وهنا يحصرُ المؤلف هذه التسمية بمنطقة الجنوب التونسي الذي يدعى دوما الجريد .

الغرب : نيشيت ،ودّان ،ايفران ،عكا ،الدرعة ، تابلباله ، تودغه ، سجلماسه ، بني قومي ،فيقيق ،تسابيت ، تيقورارين ،[22] الزاب ، طوقورت ، ورقلة .

أما الزاب فهو اقليم يضم خمس مدن هي : بسكره ، البرج ، نفطه ، تولقه ، دوسن ، وتحتوي بلاد الجريد الحالية على نفس العدد من المدن هي : توزر ، قفصه ، نفزاوة ، الحامّة ، قابس . وتأتي بعد هذا الاقليم شرقا جزيرة جربه ، غريان ، مسلاته ، مصراته ، تاورغه ، غدامس، فزّان ، أوجله ، بردوة[23] والواحات[24]

تقسيم الصحاري الواقعة بين نوميديا وبلاد السودان

لا تحمل هذه الصحارى أي اسم دارج بيننا . بيد أنها تقسم الى خمسة اقسام اطلق على كل منها اسم القوم الذين يسكنون فيه ، ويجدون فيه وسائل معاشهم . . أولئك هم النوميديون الذين ينقسمون الى خمس مجموعات هي :

الزناقة ،[25] الونزيقة ، الطارقة ، اللمتة والبرداوه .[26] وتوجد في هذه المناطق بعض البقاع التي تتخذ اسماء فريدة بسبب نوعية البلاد من جودة أو رداءة ، مثل الأزواد ، التي عرفت بهذا الاسم بسبب عقمها وجفافها ، وآيير الذي هو عبارة عن صحراء بدوره ، والذي نال هذا الاسم بسبب عذوبة هوائه المعتدل .[27]

تقسيم بلاد السودان إلى ممالك

هذا وتقسم بلاد السودان كذلك الى ممالك يكون بعضها مجهولا مع ذلك بالنسبة لنا

---

(٢٢) اسم بربري حل محله اليوم اسم عربي مكافىء هو قوراره .

(٢٣) واحات الكفرة التي يقطنها التدا أو التبو ، وتذكرنا قرية برداي ، في تيبستي ، بهذا الاسم .

(٢٤) وهو اسم لا زال مستعملا في الواحة المصرية المسماة الخارجة ، ويضع المؤلف في الكتاب السادس ، هذه الواحة في ليبيا ، أي في الصحراء الكبرى ، وكذلك واحة الكفرة ، وواحة سيرت على ساحل البحر الابيض المتوسط .

(٢٥) لا تزال فئة من الزناقة تتكلم البربرية في شمالي مصب نهر السنغال في جمهورية موريتانيا الاسلامية .

(٢٦) هذا التقسيم مأخوذ جزئيا عن ابن خلدون الذي نقله بالتأكيد عن مؤلفين سابقين . اضف الى ذلك ان الحسن لا يعرف ان البرداوة لم يكونوا من البربر ، بل قوم متميزون من السود ، أما التدا فيسمون عادة التبو .

(٢٧) يبدو ان المؤلف ربط التسمية البربرية ازواد بالاصل العربي زود أو زاد أي مؤونة والذي يوحي بفكرة ضرورة تأمين زاد الرحلة ، أي ان هذه البلاد محرومة من الموارد ، كما خلط التسمية البربرية آيير مع الكلمة العربية هير أو خير وهو ريح الشمال .

وتكون بعيدة عن مدى تجارتنا . وهكذا لن أتكلم إلا عن تلك التي قصدتها والتي ترددت عليها لمدة طويلة ، وعن الممالك الأخرى التي كان ينطلق منها تجار لبيع سلعهم في البلاد التي كنت فيها والذين اعطوني عنها اخبارا وفيرة . ولا أريد أن أغفل اني ذهبت الى خمس عشرة مملكة في بلاد السودان ، ومكثت فيها مدة تبلغ ثلاثة أضعاف المدة التي قضيتها على الطريق ، وكل هذه الممالك كانت معروفة جداً ومجاورة لتلك التي أقمت فيها .[٢٨] وسأذكر أسماء هذه الممالك بدءاً من الغرب سائرا في اتجاه الشرق وهي : ولاّته ، جنه ، مالى ، تومبوكتو ، غاءو ،[٢٩] غوبر[٣٠] آغادس ، كانو ، كاتسنه ، زقزق ، وانغاره ، وانفاره ، بورنو ، غاوغه ،[٣١] والنوبة ، وهذه الممالك الخمس عشرة والتي يقع أغلبها على نهر النيجر[٣٢] ، يمر منها الطريق الذي يسلكه الذين يذهبون من ولاّته قاصدين القاهرة .[٣٣] وهذه الطريق طويلة ولكنها مأمونة جدا . وهذه الممالك متباعدة بعضها عن بعض . وتنفصل عشر منها بعضها عن بعض بصحارى رملية أو بواسطة نهر النيجر . وعلينا أن نعلم أن كل مملكة كانت في الماضي تحت حكم عاهل متميز . ولكن خضعت في عصرنا لهيمنة ثلاثة ملوك ، وهم ملك تومبوكتو[٣٤] الذي يملك القسم الأعظم من المماليك المذكورة ، وملك بورنو الذي يملك أصغر قسم ، وملك غاوغه الذي يستحوذ على الباقي تحت سلطته . ولكن من الصحيح ايضا القول بأن ملك دوكالا[٣٥] يملك هو ايضا دولة صغيرة . وهناك عدة ممالك اخرى تتاخم من الجنوب الممالك المذكورة آنفا ، مثل

(٢٨) يمكن الوثوق بصدق المؤلف في أنه قام فعلا برحلتين الى تومبوكتو . ومن المحتمل انه قام بالأولى في عام ١٥٠٤ وسنّه ستة عشر عاما ، والثانية كما يظن سنة ١٥١٢ م ولكن لا نعرف على الضبط البلاد التي زارها فيما وراء المدينة المذكورة .

(٢٩) غاءو باللغة البربرية غاوغه وحرفت بالعربية تارة على شكل كاوكاو ، وتارة اخرى على شكل كاغو ، وغاغو يمثل النطق المغربي لهذا الاسم .

(٣٠) وتلفظ Gober

(٣١) وتكتب غاوغه وغاوغاو ، وتعني بلاداً فسيحة واقعة بين كانم ، على ضفة التشاد ، وبين النيل .

(٣٢) والذي يتصور المؤلف انه ينبع من بحيرة تشاد .

(٣٣) هذا الطريق بين ولاّته ومصر عن طريق السافانه في جنوب الصحراء الكبرى والذي يتصل بدرب الاربعين (يوما) بين دارفور واسيوط هو طريق غير مطروق كثيرا ، ولا يبدو انه صار كذلك الا ابتداء من نهاية القرن الخامس عشر ، بعد سقوط مملكة النوبة النصرانية . وكانت كل الطرق المنطلقة من السودان الغربي الى مصر تجتاز الصحراء الكبرى بشكل مائل لتتحد في فزان . ولكن يجب على كل حال ان نذكر ان المعلومات التي وصلتنا عن طريق القوافل في الصحراء الكبرى وفي افريقيا السوداء انما جاءتنا من الرحالة العرب الذين كانوا يرحلون من افريقيا الشمالية الى السودان عن طريق الدروب التي تقطع الصحراء الكبرى ولهذا السبب تظهر معلوماتنا ضئيلة عن الاتجاه الغربي الشرقي عبر السافانه R .MAUNY ,H. LHOTE

(٣٤) وهو آسكيا حاكم غاءو .

(٣٥) سبق قلم ، والصحيح دنقله من بلاد النوبة

مملكة بوريه[٣٦] وتميام[٣٧] وداومه[٣٨] ومدره[٣٩] وقروان[٤٠] وملوك هذه الممالك وسكانها اغنياء وتجار نشيطون وينشرون العدالة ولهم حكومة جيدة . أما سكان الممالك الاخرى فيعيشون في اوضاع اكثر رداءة من البهائم .[٤١]

إعمار افريقيا ، مدلول كلمة البربر

يقول الجغرافيون والمؤرخون ان إفريقيا كانت خالية تماما في الأزمنة الغابرة باستثناء بلاد السودان .[٤٢] ويعتقد هؤلاء بأنه من الثابت ان بلاد البربر ونوميديا كانت خالية من السكان خلال العديد من القرون . أما الذين استوطنوها ، وأقصد بذلك الجنس الابيض فقد سموا البربر ، وهو اسم مشتق ، حسبما يقول البعض ، من فعل باللغة العربية وهو بربر ومعناه تمتم . وذلك ان اللسان الافريقي يظهر في سمع العرب كأصوات الحيوانات المبهمة الشبيهة بالصراخ والمجردة من المقاطع . ويرى آخرون ان كلمة بربر هي كلمة مزدوجة لأن البر في اللغة العربية يعني الصحراء . ويقال إنه في العصر الذي انكسر فيه الملك إفريقو على يد الاشوريين او ربما امام الاثيوبيين هرب باتجاه مصر . ولما كان مطاردا من قبل العدو ونظراً لأنه لا يعرف كيف يدافع عن نفسه فقد طلب الى جماعته أن يفتوه في أمره ويبيّنوا الطريق التي ينبغي سلوكها حفظا على سلامتهم . فلم يكن جوابهم سوى أن صرخوا « البر ، البر » أي إلى الصحراء الإفريقية . وينطبق هذا التفسير لاسم البربر مع رأي اولئك الذين يؤكدون أن الأفارقة يعودون اصلاً لبلاد العرب السعيدة .[٤٣]

---

(٣٦) وهي منطقة مشهورة بمعدن الذهب في اعالي نهر النيجر في اتجاه سيغيري .

(٣٧) اسم غير محدود مكانيا ويقصد به بلاد تميم التي يذكرها المقريزي حوالي العام ١٤٣٠ م .

(٣٨) بلاد غير معروفة . وربما يقصد بها بلاد دامونوا التي يذكرها المقريزي ، عام ١٤٣٠ م ، وهل هي الداهومي او بينين الحالية ؟ ربما كان ذلك ، ولكن لا يمكن توكيده ، بالرغم من ان علماء الخرائط في القرن السادس عشر وضعوا مملكة داومة التي يذكرها الحسن مكان بينين ، كما في خارطة تيفيه Thevet سنة ١٥٧٥ م .

(٣٩) اسم غير محدد المكان .

(٤٠) قروان أو القوارن وهم قوم يسكنون شمال شرق التشاد .

(٤١) كان الحسن يجهل انه كانت في عصره مملكة مزدهرة وذات مدنية عالية بجوار خليج بنين (ايفه ifé) .

(٤٢) لقد أظهر علم ما قبل التاريخ ان معطيات الحسن غير صحيحة إطلاقا ، لأن افريقيا برمتها كانت مأهولة خلال الدور الرابع (وهي المرحلة الجيولوجية التي نجتازها الآن) .

(٤٣) أما بالنسبة لقدامى الإغريق فان كلمة باربارس تعني الاجنبي الذي يتكلم لغة غير مفهومة وصعبة ، وكانت كلمة باربروس عند اللاتين تعطي نفس المعنى ، ولم تحمل هذه الكلمة مدلول التحقير للمسمى الا في زمن متأخر جدا . وثم

أصل الأفارقة

لا يختلف مؤ رخونا كثيراً فيما بينهم حول اصل الأفارقة . فذهب بعضهم إلى أن هؤلاء ينحدرون من الفلسطينيين ، لأن الفلسطينيين طردوا من بلادهم على يد الآشوريين فلجأوا الى إفريقيا ولما وجدوا هذا القطر طيبا وخصباً توقفوا فيه .

ويقدم الآخرون رأياآخر يرى أن اصلهم يعود للسبأيين ،[٤٤] وهم قوم كانوا يعيشبون في بلاد العرب السعيدة (اليمن) كما أشرنا الى ذلك فيما سبق ، وذلك قبل أن يطردهم الآشوريون او الاثيوبيون . ويرى آخرون أن الأفارقة كانوا من سكان بعض مناطق آسيا ، وأن أقواما آخرين شنت عليهم الحرب ، فانهزموا باتجاه بلاد اليونان ، التي كانت خاوية حينذاك . ولكن العدو تعقبهم فاضطروا لعبور بحر الموره . ولدى وصولهم الى إفريقيا استقروا فيها بينما استوطن أعداؤهم بلاد اليونان .[٤٥] ولا ينطبق هذا إلا على الأفارقة البيض ، أي أولئك الذين يسكنو ن بلاد البربر ونوميديا . أما أفارقة بلاد السودان ، فيعودن جميعاً من حيث الاصل إلى كوش بن حام بن نوح .[٤٦] ومهما يكن الاختلاف بين الأفارقة البيض والأفارقة السود فانهم جميعاً تقريباً ينحدرون من نفس الأرومة ،فاذا كان الافارقة البيض قد قدموا من فلسطين ، فإن الفلسطينيين هم من نسل مسرائيم بن كوش ،[٤٧] أما إذا كانوا ينحدرون من السبأيين ، فإن سبأ من جهته ، كان ابن

---

* شواهد كثيرة تحمل على الظن بأن العرب عند فتحهم هذه البلاد وجدوا هذا الاسم مستعملاً ، ويقصد به السكان الوطنيون الذين لم يتأثروا كثيراً بالمدينة الرومانية . أما الذي تفاعلوا مع المدنية الرومانية من السكان الوطنيين فقد سموا انفسهم بالافريقيين ، ومنها جاءت تسميتهم العربية الأفارقة ومفردها افريقي . أما المحتلون الرومان ، او روم بالعربية ، فقد اطلق عليهم العرب تسمية اليونان والرومان في آن واحد ، والواحد منهم ، رومي .

(٤٤) أي للحميريين .

(٤٥) ويلخص المؤلف هنا مسألة اهتم بها القدامى منذ ايام هيرودوت ، وقد شغف بها الكتاب العرب ، والتي لا زالت تثير فكر بعض الباحثين المعاصرين ، من الذين يفاجأون برؤية العديد من الاقوام من أجناس بشرية مختلفة الأنواع ، أومتباينة ، لا يعرف مبدأ وحدتها السياسية ، تشكل « شعبا » حقيقيا ، له نفس اللسان ، يعود تاريخه لعدة آلاف من السنين ، ومحافظاً على قوميته رغم التنوع الكبير في لهجاته « شعب » يتصف بخصائص فريدة بكل معنى الكلمة وظل محافظًا على شخصيته منذ العصور القديمة . ويهتم العلم الحديث بالهجرات الاكيدة من أقوام شمالية أقامت بين ظهراني البربر ، غير ان المؤ رخين القدامى لم يتكلموا مطلقاً إلا عن هجرات من الشرق ، مما أدى لتصنيف الشعب البربري ولغته في زمرة « الحاميين » ومن العجيب ان المؤلف يتكلم قبل بضعة قرون من اكتشاف الوثائق المصرية عن « اجتياح شعوب البحر » .

(٤٦) أي النبي نوح عليه السلام .

(٤٧) يذهب سفر التكوين (الفقرة السادسة من الاصحاح العاشر) ان مسرائيم أخ لكوش .

غاما وغاما هذا كان ابن كوش[٤٨] . وهناك بضع نظريات اخرى لا استطيع أن احتفظ منها بذكرى صحيحة اذ مضى على عشرة اعوام ، لم أر خلالها ولم ألمس اي كتاب في التاريخ المقدس .[٤٩]

تقسيم الأفارقة البيض إلى عدّة أقوام

ينقسم الأفارقة البيض الى خمسة أقوام هي : صنهاجة ، مصمودة ، زناته ، هوارة ، وغماره ،ويسكن المصامدة القسم الغربي من جبال الاطلس ابتداء من حاحه حتى نهر العبيد[٥٠] . كما يسكنون ايضاً السفح الجنوبي لجبل الاطلس وكل السهول المجاورة . وهكذا يشغلون اربعة اقاليم هي : حاحه ، السوس ، جزوله ومنطقة مراكش وتسكن غماره في جبال موريتانيا ، أي تحاذي البحر الابيض المتوسط . ويستوطنون الساحل الذي يحمل اسم بلاد الريف والذي يبدأ من أعمدة هرقل[٥١] كي يبلغ شرقا تخوم مملكة تلمسان ، تلك المنطقة المساة قيصرية عند اللاتين[٥٢] . وتعيش هاتان القبيلتان (المصامدة وغماره) منعزلتين عن الآخرين ، الذين يكونون على العموم مختلطين ومبعثرين في كل إفريقيا ، ولكنهم يتعارفون بعضهم على بعض بنفس الطريقة التي يميز بها المواطن عن الاجنبي . والاحتراب دائم فيما بينهم ويشتبكون في نزاعات دائبة لا تهدأ . تلك هي خاصة حالة سكان نوميديا . ويقول عدة من المؤلفين ان هذه القبائل الخمس تعتبر في عداد الذين يتخذون الخيام بيوتاً لهم في الأرياف[٥٣] . ويؤكد المؤرخون انه حدثت بينهم حروب طويلة في الأزمنة الغابرة . وبعد ان اصبح المغلوبون أتباعا للظافرين ، اجبروا على سكنى المدن ، في حين اصبح المنتصرون سادة الارياف حيث

---

(٤٨) لقد وقع المؤلفون العرب في التباس ، فحسب الاساطير القديمة ، لا يعتبر السبيئون أحفاد السبأ المذكور في سفر التكوين (الفقرة السابعة من الاصحاح العاشر) بل هم رعايا بلقيس ملكة سبأ الشهيرة ، التي قدمت الى سليمان ، وكانت عاصمتها سبأ التي عثر عليها في مأرب باليمن ويطلق على هؤلاء السبيئين اسم الحميريين أي الحمر ، وهم الذين اعطوا اسمهم للبحر الاحمر .

(٤٩) أي التاريخ الاسلامي طبعا (ويدل هذا على ان سقوطه بالاسر كان عام ١٥١٥ م . المترجم) .

(٥٠) حاحة هي المنطقه الساحلية الواقعة جنوب مصب نهر التانسفت ، اما نهر العبيد فهو رافد نهر ام الربيع . (المترجم) .

(٥١) أي جانبي مضيق جبل طارق وعلى وجه الدقة منطقة سبته وطنجة . (المترجم)

(٥٢) أي موريتانيا القيصرية عند اللاتين ، وعاصمتها شرشال ، وكانت تنطبق تقريبا على مملكة تلمسان .

(٥٣) أو البوادي حسب تعبير اهل المغرب (المترجم) .

أقاموا مساكنهم ويبدو هذا الزعم مؤيدا تقريبا لواقع وهو ان الناس الذين يقطنون الأرياف يستخدمون نفس لهجات سكان المدن ، فمثلا نجد ان زنانة الارياف يتكلمون كزنانة المدن ، وكذلك الحال بالنسبة للآخرين(٥٤) .

ونلاحظ ان في أرياف تامسنه قد تعايش ثلاث من هذه القبائل وهي زناتة وهواره وصنهاجه . فتارة يعيشون في سلام وتارة اخرى يحتربون بشراسة ، مدفوعين على ما أظن ، بخصومة قديمة .

وكان بعض هذه القبائل يهيمن على كل افريقيا . تلك هي حالة الزناتة ، الذين قاموا بطرد أسرة ادريس(٥٥) ملك مدينة فاس الشرعي ومؤسسها(٥٦) . ويدعى هذا الفرع من زناتة مكناسه . وجاء من بعدهم فرع آخر من زناتة نوميديا يدعى مغراوه ، وهو الذي أجلا مكناسه من المملكة ، وطرد منها الملوك الادارسة (٥٧) . وبعد قليل من ذلك تعرض هؤلاء الزناتة كذلك للطرد على يد أناس قدموا من صحراء نوميديا . وكان هؤلاء ينتسبون لفرع من صنهاجه يدعى لمتونه . فخربوا كل منطقة تامسنة وأبادوا كل السكان الذين كانوا فيها ، باستثناء من كانوا من جنسهم ، فقد نقلوهم الى دكالة . وتلك الاسرة هي التي بنت مدينة مراكش(٥٨) (واشتهرت دولتهم باسم دولة « المرابطين ») .

وقد حدث بعد ذلك ان جاء رجل على قدر كبير من الاهمية في العلوم الدينية ، دعي

(٥٤) يريد المؤلف أن بربر الأرياف لا يختلفون عن بربر المدن الا بوضعهم الاجتماعي ، ويعتبر كل الكتاب العرب ـ وهذا هو السائد كذلك عند البدو من البربر أنفسهم ـ ان الحياة الطليقة تحت الخيام تعتبر رمزاً للحرية والشرف ، بينما تعتبر حياة المدن رمزاً للعبودية

« اذا كان ذلك صحيحاً جزئيا بالنسبة لبعض العصور التاريخية ، فهو لا يصح مطلقا في القرن العشرين » . (المترجم) .

(٥٥) وذلك تدريجيا حتى عام ٩٢٦ م

(٥٦) هو إدريس بن عبد الله الذي يعتبر من سلالة الامام علي ، والذي قدم من المشرق ، وقد نودي به ملكا في ٦ شباط (فبراير) ٧٨٩ م وربما أسس فاس في نفس السنة .

(٥٧) في أواخر القرن العاشر الميلادي .

(٥٨) في حوالي العام ١٠٥٤ م بدأ التوسع المرابطي الذي قامت به قبائل صنهاجة ، التي لم تأت من الواحات ، بل من الصحراء الكبرى الغربية ، والفرع الرئيسي منها كان لمتونه . وكانت اسرة بني وطاس التي انتهى اليها الملك في هذه المرحلة كانت تدّعي ، رغم انها من زناته ، انها تنحدر بالولاء أو بالتحالف من أمير المرابطين يوسف بن تاشفين . وقد أسس هذا مدينة مراكش سنة ١٠٦٢ م . وقد اعتقد الحسن (محمد بن الحسن الوزان الزياتي مؤلف الكتاب) بأن يوسف بن تاشفين هو الذي اباد المنشقين عن الاسلام في تامسنه ، ولم يستثن منهم سوى اخوانه في الدم الصناهجة . والواقع ان زناته وصنهاجة ليستا اكثر من اسمين عربيين لمسمى بربري واحد لهذه القبيلة وهو كلمة إيزناغن . هذا ولا زالت هناك قبيلة موريتانية في دائرة كايهيدي ، على نهر السنغال ، تدعى لمتونة .

بالمهدي (ابن تومرت) ، فثار على دولة المرابطين ، وعقد حلفاً مع قبيلة الهرقة ، وهي فرع من مصموده . وطرد الاسرة الحاكمة من لمتونة ونادى بنفسه ملكا[٥٩] . وبعد وفاته تم انتخاب احد تلاميذه عبد المؤمن ، من قبيلة بني ورياغل ، من أجفاد صنهاجه ، وظلت السلطة بأيدي أسرة عبد المؤمن خلال فترة امتدت زهاء مائة وعشرين سنة وحكمت كل افريقيا تقريباً (واشتهرت دولتهم باسم دولة « الموحدين ») . وقد خُلعت هذه الاسرة على أيدي بني مرين الذين يعودون اصلاً لقبيلة زناته . ودام حكم هؤلاء مائة وسبعين عاما .[٦٠]

وقد استولى بنو وطّاس على السلطة ، وهم فرع من لمتونة[٦١] أما بنو مرين فقد كانوا دوما في حالة حرب مع بني زيان ، ملوك تلمسان ، الذين ينتسبون لصنهاجه من حيث الاصل[٦٢] ومن فرع مغراوه[٦٣] . وقاموا بحملات ايضا ضد الحفصيين ، ملوك تونس ، والذين يعودون من حيث الاصل لقبيلة هنتا ، وهي فرع من مصموده .[٦٤]
وهكذا نرى كفاح كل من هذه القبائل الخمس وما نجم عن كفاحها من آثار في هذه المناطق .

---

(٥٩) كان ذلك يوم الجمعة ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٢١ م ، وهذا المصلح الديني محمد بن عبد الله بن تومرت قد التجأ الى المصامدة في جبال الاطلس وقدمت له قبيلة هرقة الدعم ، ونودي به امام الموحدين مع لقب المهدي ثم أخذ يحارب المرابطين .

(٦٠)كان اول أمير من بني مرين ينادى به ملكاً وهو ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذي نودي به في ٢٧ رجب ٦٥٦ هـ المقابل ٣٠ تموز (يوليو) ١٢٥٨ م ، أي عام سقوط قرطبة ، وآخر أحفاده الذي كان على رأس الحكم هو عبد الحق بن علي الذي اغتيل بتاريخ ٢٧ رمضان ٨٦٩ هـ أو ٢٣ أيار (مايو) ١٤٦٥ م وهكذا دام حكم اسرة المرينيين ٢١٣ سنة هجرية .

(٦١) تم اغتيال عبد الحق بتحريض شريف ادريسي من فاس ، وهو أبو عبد الله محمد بن علي الجوتي ، الذي استلم السلطة واحتفظ بها خلال عامين . ولكن هذه المحاولة لاعادة حكم الأدارسة اصطدمت بمقاومة بني وطاس الأقوياء ، والذين أثاروا اضطرابات متلاحقة فاضطر الشريف محمد للهرب الى تونس في شهر آب (اغسطس) ١٤٦٧ م ، واستمر النزاع بين الوطاسيين انفسهم ، ونجهل حاليا التاريخ الذي بويع فيه واحد من اكثرهم نفوذا (وهو ابو زكريا محمد بن يحي الملقب بالشيخ) ملكا بصورة نهائية .

(٦٢) سبق قلم ، وهو يقصد زناته .

(٦٣) كان يغمراسن بن زيان ، مؤسس اسرة الزيانيين او بني عبد الواد ، في تلمسان في سنة ١٢٣٦م أميراً على بني عبد الواد وهي قبيلة تنسب الى زغراوة .

(٦٤) كان لدى المهدي بن تومرت وخلفه عبد المؤمن معاون اسمه ابو حفص عمر الهنتاتي ، أو اينتي ، وهو رجل ذو قيمة فريدة ، وكان حفيده ابو زكريا يحي بن عبد الواحد بن عمر ، حاكم تونس منذ عام ١٢٢٨ م ، والذي نادى بنفسه ملكا عام ١٢٣٦ م ، وبذلك أسس اسرة الموحدين في تونس ، والتي استمرت حتى ١٣ ايلول (سبتمبر) ١٥٧٤ م ، في أعقاب احتلال العثمانيين البلاد التونسية .

والحقيقة أنه لم يحمل أحد من قبيلتي غماره وهوراه لقب ملك ، ولكن كان منهما أمراء في بعض المناطق ، كما نقرأ ذلك في تاريخ الأفارقة . ويقع العصر الذي مارستا فيه هذه السلطة بعد دخول الدين الأسلامي إلى إفريقيا . فقد كان لكل قبيلة منهما حينئذ موطنها المحدد في البوادي محميه برجال عصبتها . ثم تقاسمت فيما بينها الأعمال الضرورية للحياة ، فانصرف سادة البوادي لتربية الماشية في حين عكف سكان المدن على المهن اليدوية وزراعة الأراضي(٦٥) .

وانشعبت هذه القبائل الخمس الى عدد كبير جداً من الفروع في مجملها ، كما عرض ذلك أحد كتابهم . وهو ابن رقيق(٦٦) الذي قرأت كتابه عدة مرات ، غير أن كثيراً من المؤرخين يذهبون الى أن ملك تومبوكتو الحالي ، وملك مالي وملك آغادس ترجع أصولهم الى قبيلة زناقة ، إي من أولئك الذين يسكنون الصحراء(٦٧) .

الاختلافات والمطابقات في اللغة الأفريقية

تستعمل هذه القبائل الخمس - التي تبدو منقسمة الى مئات الانساب والى آلاف المساكن - لغة واحدة يسمونها عادة آوال آمازيغ ، اى اللغة النبيلة . ويطلق عليها العرب اللغة البربرية . تلك هي اللغة الافريقية الوطنية : وهي لغة فريدة تختلف عن اللغات الاخرى . الا اننا نجد فيها بعض كلمات من اللغة العربية . وهذا هو الدليل الذي يعتمد عليه من يذهبون الى ان الافارقة ترجع أصولهم الى السبئيين ، وهم قوم من سكان بلاد العرب السعيدة ، اى اليمن ، كما ذكرنا ذلك فيما سبق . ولكن أنصار الرأي المقابل يؤكدون ان الكلمات العربية التي نعثر عليها في هذه اللغة انما تسربت اليها بعد ان دخل

---

(٦٥) هذا المفهوم الاجتماعي ، المستغرب جدا بالنسبة لنا نحن الأوروبيين ، هو مفهوم الباحثين العرب . وقد عرضه ابن خلدون بإسهاب وقوة . فالرعاة يهتمون بقطعانهم فحسب . ولهم تفوق اجتماعي بارز جدا ، بينما كان سكان المدن وكذلك القرى ، وإجمالا الحضر ، من حرفيين وفلاحين ، خاضعين عمليا للضرائب وللسخرة ، مثلما كانوا في وضع اجتماعي أدنى بشكل واضح .

(٦٦) وهو ابو اسحاق ابراهيم بن قاسم ، او القاتل الرقيق القيرواني والذي الف كتابا لا يزال مفقوداً . وهذا هو ما يظهر مما كتبه ابن رشيق Rahick .

(٦٧) لقد كان ملك تومبوكتو ، أو ملك غاءو بشكل أدق ، في ذلك الوقت زنجيا من قبيلة سونينكه ولا يمت بأى نسب الى البربر . وكذلك كان حينئذ ملك مالى ، فقد كان هو الآخر زنجيا ، ولكن تذكر الروايات أن أبا بكر بن عمر الذي فتح السودان ، وهو بربري ، قد زوج إحدى بناته من ملك هذه الأسرة القديمة ، وذلك من خلال حملته في تلك البلاد بين عام ١٠٦٣ و١٠٨٧م ، وكان الشرف والنبل عند قبائل الصحراء الملثمين ينتقل الى الفروع عن طريق الأم .

العرب أفريقيا وأصبحوا سادة البلاد . وقد كانت هذه القبائل ساذجة جاهلة ؛ حتى انهم لم يخلفوا اي اثر كتابي يستدل به على صحة احد من هذين الرأيين[٦٨] . ولا تختلف اللهجات البربرية بعضها عن بعض في اصوات المفردات وحروفها فحسب بل في مدلولاتها كذلك . وأكثر الأفارقة قربا من العرب ، والذين لهم علاقات معهم اكثر من سواهم ، هم الذين يستعملون أكبر نسبة من الكلمات العربية في لهجتهم . ويتكلم بالعربية كل افراد قبيلة غمارة تقريبا ، ولكن عربيتهم عربية محرفة غير سليمة . كما ان كثيرا من عشائر الهوارة يتكلمون ايضا عربية من هذا القبيل ، ويرجع السبب في ذلك إلى ان هذه العشائر كانت منذ حقب طويلة على علاقة لغوية بالعشائر العربية . ويتكلم الناس في السودان لغات متنوعة . ويسمي السود احدى هذه اللغات سونغى[٦٩] ، وهي اللغة الدارجة في عدة مناطق مثل : ولاته وتومبوكتو وجنة ومالى وغاغو . وهناك لغة اخرى تدعى غوبر ، وتستعمل في بلاد غوبر ، وكانو ، وكاسينا وزقرق وغوانغارا[٧٠] وتوجد لغة اخرى دارجة في بورنو[٧١] تشبه اللغة الشائعة في غاءو[٧٢] . وثم كذلك لغة اخرى لا تزال مستعلمة في مملكة النوبة ونجد فيها مفردات من العربية والكلدانية[٧٣] واللغة المصرية[٧٤] . ويتكلم اهل مدن إفريقيا الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط ، وحتى جبال الأطلس ، لهجات عربية محرفة من أصولها ، باستثناء منطقة مراكش ، ومدينة مراكش ذاتها حيث تسود اللغة البربرية . وتستعمل هذه اللغة أيضا في كل أراضي نوميديا ، وعلى الأقل لدى النوميديين الذين يجاورون قيصرية وموريتانيا ، لان كل الذين يجاورون مملكة تونس يستعملون لهجات عربية محرفة عن أصولها .

---

(٦٨) تختلف كمية المفردات العربية التي انتقلت الى اللهجات البربرية بإختلاف هذه اللهجات . وقد انتقل اليها بعض مفردات لاتينية . وانتقل اليها كذلك بعض مفردات من لغات سامية غير العربية وخاصة اللغة الفينيقية الآسيوية والفينيقية الإفريقية (البونية) واللغة العبرية . وهذا هو ما جعل بعض مؤرخي العرب يذهبون إلى أن البربر يرجعون إلى أصول حميرية .

(٦٩) وتكتب حاليا سونغى ، أو سونغاى ، اوسونغائي .

(٧٠) هذه هي لغة « الهوسا » وهنا نجد المؤلف يطلق اسم « بيرز قرق » على « زيزق » ويظهر أنه قد نقل ذلك من مذكرة عربية قد كتبت هذا الاسم : « برز قرق » أي منطقة زقزق (بر=منطقة) .

(٧١) لغة الكانورى .

(٧٢) لغة الكانمبو ، وذلك لأن هذه الأقوام ترتبط بعضها مع بعض بالنسب .

(٧٣) السريانية .

(٧٤) القبطية .

العرب الذين يسكنون مدن إفريقيا

لقد جلب الجيش الذي بعثه الخليفة الثالث عثمان ، في عام ٢٤ للهجرة ، الى افريقيا جالية كبيرة من العرب يبلغ عددها حوالي ثمانين ألفا من العشائر العريقة ومن غيرها[٧٥] .

وعندما أتموا فتح بضع مناطق عادت كل الشخصيات الكبرى والنبلاء الى جزيرة العرب . ولم يبق محليا مع الآخرين سوى القائد العام للجيش ، الذي يدعى عقبة بن نافع . وقد سبق لهذا ان اختط مدينة القيروان وأقام فيها تحصيناته . وقد ظَل بالفعل متوجساً من ان يخونه سكان الساحل وأن يتلقوا بعض الدعم من جزيرة صقلية وتصل اليهم نجدات قد تشن عليه الحرب . وهكذا انسحب باتجاه الصحراء ، في داخل الأراضي ، مع كل الغنائم التي غنمها وأسس مدينة القيروان على مسافة ١٢٠ ميلا تقريباً[٧٦] من قرطاج . وأعطى الأمر لزعماء الجيش والمدنيين الذين ظلوا معه بأن يقيموا في أكثر المناطق مناعة وأكثرها مواءمة للدفاع وأن يشيدوا فيها قلاعا وحصونا لم يكن لها نظائر من قبل ، وقد تم تشييد كثير من هذه القلاع والحصون[٧٧] .

---

(٧٥)لا تزال نفتقر لمعلومات دقيقة عن الفتح الاسلامي لإفريقيا . ومع هذا يبدو من المسلم به أن الجيش الذي أرسله الخليفة عثمان الى أفريقيا عام ٢٤هـ ٦٤٨م ، لم يكن يضم سوى . . . ,٢٠ رجلا . وقد سبق أن قام القائد العربي عمرو بن العاص في عام ٢١هـ مطلع عام ٦٤٢م في أعقاب فتح مصر ، بغارة ناجحة على برقة ، وبعدئذ ، بعد عام واحد او عامين، أغار على منطقة طرابلس البيزنطية ، ولكن الخليفة عمر بن الخطاب لم يوافقه على التوغل إلى أبعد من ذلك ، لأن المحاولة كانت خطيرة للغاية . وفي عام ٦٤٦م ، وعلى أثر اضطربات سياسية انتابت الحكومة الامبراطورية في القسطنطينية ، أعلن حاكم أفريقيا البيزنطي ، وهو جريجوار ، استقلاله واتخذ لقب باسيلوس ، وحكم المنطقة الممتدة من طرابلس الى طنجة متخذا مدينة سبيطلة التونسية عاصمة له . وقد أرسل الخليفة عثمان حملة عسكرية ضد هذا الحاكم ، ونشبت معركة في صيف ٦٤٨م انتهت بهزيمة الجيش البيزنطي ومقتل جريجوار ، وهي معركة كان لها صدى بعيد في عالم النصرانية . وظلت الجيوش الاسلامية مدة خمسة عشر شهر في هذه البلاد ثم عادت الى المشرق حاملة معها غنائم ضخمة . ويبدو أن المسلمين لم يتركوا محليا سوى مندوب دبلوماسي . واسترد البيزنطيون حكم أفريقيا . ولم يستأنف الخليفة معاوية اهتمامه بأفريقيا الا في عام ٦٦٥م وأرسل جيشا قوامه ١٠٠٠٠رجل بقيادة معاوية بن حديج . وقد ظل هذا مدة خمس سنوات عند سفوح المنطقة الجبلية في افريقيا دون ان يقوم ، كما يبدو ، بأكثر من غزوات قادت لانتصارات محدودة محلية. وأخيرا في عام ٥٠هـ ٦٧٠م حل محل هذا القائد قائد جديد هو عقبة بن نافع ، الوجه اللامع في حروب افريقيا ، مع دعم عسكري قوامه ١٠٠٠٠ جندي .

(٧٦) تقع مدينة القيروان على مسافة ١٩٢ كم من تونس .

(٧٧) الحقيقة هي أن سلفه معاوية بن حديج قد جعل قاعدة عملياته العسكرية عند وصوله عام ٦٦٥م ، اي قيروانه ، كما كان يقال حينئذ ، عند حضيض جبل وسلات ، ولكن عمد عقبة ، على أثر وصوله ، الى نقل هذا المعسكر وأقامه على مسافة بضعة كيلومترات الى الشرق من ذلك ،في السهل الرملي حيث لا تزال تقوم القيروان الحالية، وذلك لكي يكون في منأى عن

وقد اصبح العرب ، الذين ظلوا في طمأنينة ، مواطنين في هذه البلاد واختلطوا بالأفارقة ، الذين تبنوا في ذلك العصر ، اللغة الايطالية ، لأنهم كانوا محكومين خلال سنوات طويلة من قبل الطليان . وبنتيجة هذا الواقع ، وعلى اثر العلاقات المستمرة مع الأفارقة الذين كانوا يعيشون بينهم ، فسدت لغتهم الأصلية وأصبحت هذه خليطا من كل اللهجات الافريقية . وهكذا انصهر شعبان مختلفان وأصبحا شعبا واحداً(٧٨) ولكن كان كل عربي يحتفظ دائما بعادة حفظ نسب آبائه العرب ، وكذلك كان يفعل كل بربري . وهذا أمر هام كي يستطيع كل كاتب عدل او محرر عقد رسمي أن يسجل اسم صاحب المعاملة ، سواء أكان عربيا أم بربريا(٧٩) .

العرب الذين يسكنون في افريقيا ويتخذون بيوتهم من الخيام لا من المنازل المبنية

حظر الخلفاء المسلمون دوما على العرب عبور نهر النيل مع عائلاتهم وخيامهم حتى عام أربعمائة للهجرة ، الى أن حصل هؤلاء على الترخيص بذلك من خليفة شيعي ، لأن

المباغتات التي قد تصدر من المنطقة الجبلية . ولا يبدو ان عقبة قد أحرز نجاحات أكبر من سلفه . ولكن الذي منحه شهرته هي الغارة الرائعة التي اندفع بها حتى المحيط والسوس ملتفا من خلف جبال الأطلس حيث لا يبدو أنه اصطدم بشدة بالقوى الامبراطورية البيزنطية . وقد لاقى حتفه عند عودته في عام ٦٨٢ م او ٦٨٣م في كمين انصّب له في موقع تهوده ، قرب بسكره .

(٧٨) على اثر موت عقبة، اضطر العرب للانسحاب الى برقة حيث ظلوا خمسة اعوام، في حين اصبح الزعيم البربري كسيله حاكما على افريقيا . وفي عام ٦٨٧ أرسل الخليفة عبد الملك ، الذي سبق له ان اشترك في حملة عام ٦٦٥م ، نجدات لجيش برقة كي يمكنه من تجريد حملة تأديبية ضد كسيلة . فأنكسر الزعيم البربري وقتل في المعركة . ولكن اضطرت الجيوش العربية الى التوقف .أوحوالي العام ٦٩٣ م أراد الخليفة عبد الملك ان يحسم مشكلة افريقيا ، وذلك بانتزاع قرطاج من الامبراطورية الرومانية في القسطنطينية وتحطيم قوة أكبر زعيمة بربرية في ذلك العصر وهي كاهنة ديا ، ملكة الاوراس ، فأرسل أكبر جيش عربي بعث الى افريقيا قوامه ٤٠٠٠٠ رجلا تحت إمرة الحسن بن النعمان . فاستولى هذا على قرطاج ولكن استردتها القوات الرومانية بعد عامين ، وانتهى الأمر بانهزام جيش الحسن أمام جيش الكاهنة واضطر للانسحاب لمدة خمسة أعوام أخرى حتى منطقة طرابلس وصحراء سيرت . وعلى أثر ذلك ، أى حوالى العام ٦٩٨م أرسل عبد الملك نجدات جديدة ، وفي هذه المرة اندحرت الكاهنة وقتلت بتاريخ ومكان لا يزالان مجهولين . وهكذا أخضع الحسن كل المنطقة وعاد الى القيروان حوالى العام ٧٠٤م ، بعد ان استتب له الامر وأخضع البربر والرومان للجزية . وابتداء من تلك الفترة استطاع العرب فعلا ان يستقروا في بلاد البربر . ويستحيل علينا تخمين عددهم . هذا وعلى الرغم من انصهار أكثرية عرب المدن في السكان الافريقيين فقد ظلت جماعات نقية منهم في مواقع مختلفة من هذه البلاد

(٧٩) وهذه الاشارة تعني فقط اسم الأصل القبلى ، بحيث لا نستطيع تحديد ما اذا كان الشخص عربيا أو بربريا الا بعد معرفة نسب قبيلته لأحد هذين الشعبين . وهكذا كان الحسن الزياتي ينتسب أصلا لقبيلة زيات ، وربما كانت بربرية رغم أن أسرته كانت تسكن غرناطة ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بذلك .

شخصا ما ، كان صديق الخليفة ومولاه ، تمرّد واستولى على السلطة في مدينة القيروان وفي كل بلاد البربر . وبعد موت هذا الرجل ظلت السلطة خلال فترة من الوقت في أيدي أسرته[٨٠] .

ولقد قرأت في مؤلفات مؤرخي أفريقيا أنه في عهد القائم ، وهو خليفة هذه الأسرة الشيعية وزعيمها الروحي ، قد امتدت مملكته وبلغت درجة كبيرة من الاتساع ، وأن مذهبه الديني قد ازداد انتشاراً لدرجة جعلته يرسل الى الغرب مملوكا له اسمه جوهر ، وكان هذا عبده وأمين سره ، على رأس جيش كبير جداً[٨١] فاستولى على كل بلاد البربر ونوميديا ووصل حتى الجنوب ، وجبى كل ضرائب هذه البقاع وعوائدها . وبعد ان أتم مهمته ، عاد الى سيده ووضع بين يديه ما جمعه من ذهب ومن اموال أخرى من هذه البلاد .

وبعد ان وقف الخليفة على قيمة الرجل وأدرك النجاح الباهر الذي حققه ، خطط لمشروع أكبر يعهد اليه بأمر تنفيذه ، وأفضى اليه به (يقصد فتح بلاد المشرق) . فأجابه جوهر . « مولاي ، أعطيك الوعد التالي : مثلما فتحت لك مناطق الغرب ، كذلك سأستولى على ممالك الشرق ، أي مصر ، وبلاد الشام وكل جزيرة العرب . وسأنتقم لك عن كل الاهانات التي لحقت بأجدادك على يد أسرة العباسي[٨٢] . ومهما تكن المخاطر والمصاعب التي سأواجهها ، فلن أتوقف عن إعادتك لعرش أجدادك العظام الكرام ، وهم أصل دمك الشهير » . وهكذا قام الخليفة الذي تأثر بهذه البسالة ووثق بكلام مولاه بتجهيز جيش قوامه ثمانون ألف رجل وعهد به لجوهر مع كل الصلاحيات ، وزوده

(٨٠) لقد حدث في عام ٤٤١ هـ ١٠٥٠ م أن قبائل عربية كانت تسكن مصر حصلت على ترخيص من الخليفة الفاطمي في القاهرة بالهجرة الى المغرب . وابتداء من آب (أغسطس) ٩٧٢ كانت الأسرة الصنهاجية ، ممثلة بالأمراء الزيريين تحكم في القيروان . وقد كانت هذه الهجرة جواباً لقطع الخطبة والتبعية السياسية التي قام بها الأمير الزيري . وقد عملت هذه الهجرة ، التي تحمل في كتب التاريخ اسم غارة بني هلال ، أو الزحف الهلالي ، على تقويض سلطة الملوك الزيريين كثيرا ، ولكن هذه السلطة لم تتلاش تماما إلا بعد سقوط المهدية في يد نصارى صقلية ، بتاريخ ٢٢ حزيران (يونيه) ١١٤٨م ، وخاصة بعد انتصار الخليفة الموحدي عبد المؤمن في سنتي ١١٥٩ - ١١٦٠ م .

(٨١) لقد توفي الخليفة الفاطمي أبو القاسم محمد القايم بأمر الله بتاريخ ١٧ أيار (مايو) ٩٤٦م قبل الحادث الذي تكلم عنه المؤلف بأمد طويل ، واما الذي يذكر المؤلف انه ارسل مملوكه على رأس جيشه الى بلاد البربر ونوميديا ، فهو حفيد القائم بأمر الله ، وهو ثاني خليفة فاطمي ، وهو أبو تميم معدّ المعز لدين الله. فقد أرسل في شهر أيار (مايو) عام ٩٥٨ م ، جيشاً بقيادة أبي الحسن اسماعيل بن عبد الله ، الملقب بجوهر الكاتب ، لكي يعيد لطاعته امراء بلاد البربر الذين انفصلوا عنه ودخلوا في طاعة خليفة قرطبة الأموي .

(٨٢) يقصد خلفاء العباس .

بالكثيـر من الذهب والأقوات[٨٣] . فانطلق المولى الأمين إذن وقاد جيشه مخترقا الصحراء التي تفصل بلاد البربر عن مصر . وقبل ان يصل جوهر الى الاسكندرية ، كان والي مصر قد انسحب الى بغداد حيث التجأ الى الخليفة المطيع لله[٨٤] .

وهكذا استولى جوهر على كل مصر وكل بلاد الشام في وقت قصير ولم يلاق سوى مقاومة ضئيلة[٨٥] . ولكن جوهر لم يكن مطمئن البال ، فقد خشي أن يباغته خليفة بغداد مع كل جيوش آسيا ، وأن يقوم بهجوم معاكس شديد يؤدي الى فقدان وسائله الدفاعية وابادة جيوشه القادمة من بلاد البربر . ولهذا قرر بناء قلعة تتمكن فيها جيوشه من اللجوء اليها عند الاقتضاء لمقاومة الهجوم المعادي[٨٦] ، فبنى مدينة أحاطها بسور وظل فيها مقيما ، مع جزء من جيشه لحمايتها ، اي مع أولئك الذين كان يثق بهم كل الثقة . وأطلق على هذه المدينة اسم « القاهرة »[٨٧] أي « الغالبة » وتسمى عادة في أوروبا « لوكير » Le Caire[٨٨] .

وهكذا أصبحت القاهرة تتوسع يوما فيوما بزيادة عدد أحيائها ، ومساكنها ، سواء

---

(٨٣) لقد كان الاستيلاء على المشرق دوما هدف الخلافة الفاطمية ، فالخليفة الأول في القيروان ، المهدى عبيد الله ، والذي نودي به في شهر كانون الأول (ديسمبر) ٩٠٩م ، أرسل في مطلع شتاء عام ٩١٣ - ٩١٤م ، ولده أبا القاسم محمد القايم على رأس حملة ضد مصر وكادت الحملة تنجح ،وأعقب ذلك بحملة ثانية في شتاء ٩١٨ - ٩١٩م وانتهت بكارثة حقيقية . أما هذه الحملة الثالثة فقد جهزت بمهارة مع أبهة كبيرة في الوسائل السياسية والعسكرية ، وسار جيش جوهر الصقلي بتاريخ ٥ شباط (فبراير) ٩٦٩م .

(٨٤) لقد كانت السلطة في مصر حينذاك في يد الامراء المتوارثين من الاسرة الإخشيدية . ولما كان الأمير الحاكم ولدا عمره اثنتا عشرة سنة ، هو أحمد بن علي ، فقد كانت مقاليد السلطة بيد الشخصيات الكبيرة ، التي انحاز العديد منهم للدعوة الفاطمية . أضف الى ذلك أن البلاد كانت تتعرض لأزمة اقتصادية شديدة الخطورة . ولا نعلم على وجه اليقين ما اذا كان الامير أحمد قد التجأ لجوار الخليفة العباسي في بغداد الفضل المطيع لله .

(٨٥) لم تحدث أية مقاومة في مصر وأصبحت الخطبة تلقى في الفسطاط باسم الخليفة الفاطمي أبي تميم معدّ المعز بتاريخ الجمعة ٩ تموز (يوليه) ٩٦٩ . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) استولت تجريده بربرية على فلسطين ودمشق .

(٨٦) لم يكن خليفة بغداد العباسي مخيفا ، ولكن مصر كانت مهددة من قبل الفوضويين الخطرين في جزيرة العرب وهم القرامطة . والواقع كان جوهر قد حاول بالفعل حماية الفسطاط من القرامطة .

(٨٧) القاهرة ومعناها الحرفي « الغالبة » ، ولكن الرويات تذكر ان هذا الاسم جاء من اسم كوكب المريخ ، أى القاهر ، وهو برج اليوم الذي شرع فيه ببناء السور ، إذ كان المريخ يمر في سمت خط طول المدينة ، وكان للتنجيم دور كبير من حيث الأهمية في ذلك العصر . إذن يكون معنى القاهرة « المريخية » .

(٨٨) كان يطلق على « الفسطاط » التي كانت عاصمة للبلاد اسم « مصر » وهو اسم القطر كله ، وأخذت القاهرة بدورها هذا الاسم « مصر » واحتفظت به في حين أصبحت الفسطاط تدعى « مصر القديمة » التي نسميها خطأ « القاهرة القديمة » .

في خارج الأسوار أو في داخلها ، حتى أننا لا نجد مدينة تماثلها في العالم .

وبعد أن رأى جوهر أن خليفة بغداد لم يقم بأية تجهيزات لحملة عسكرية ، أخطر سيده بأن كل المناطق التي فتحها قد دانت له بالطاعة ، وأن الأمن قد استتب ، وأن كل المواقع بحالة أهبة للدفاع ومحروسة بشكل جيد . وعرض عليه فيما إذا كان من الممكن لجنابه أن ينتقل شخصياً الى مصر ، ذلك أن وجوده بمصر يعدل مئات الألوف من الجنود ، بل يزيد أثره على ذلك في فتح ما تبقى من بلاد . وسيكون ذلك سبباً لكي يترك خليفة بغداد منصبه ويلجأ للهرب . وعندما بلغت هذه المناشدة الشهمة مسامع الخليفة الفاطمي ، قام بتجهيز جيش لجب ، وامتلأ تيهاً بهذا النجاح الجديد ، وقصد مصر دون اعتبار ما قد يحدث من مخاطر . وترك أميراً من قبيلة صنهاجة واليا وقائداً عاماً على بلاد البربر ، ولم يكن هذا الأمير صديقه فحسب ، بل كان كذلك خادماً في منزله[٨٩] . وعندما بلغ الخليفة القاهرة ، استقبله خادمه بكل إجلال . ولما كانت نفسه مشبعة بالمشاريع الكبرى فقد أنفذ جيشه ضد خليفة بغداد[٩٠] .

وفي غضون ذلك ، تمرد الحاكم الذي خلفه في بلاد البربر وقدم خضوعه لخليفة بغداد الذي سر بهذا الحادث ، ومنحه امتيازات واسعة مثلما منحه لقب ملك كل إفريقيا . وعندما علم القائم بذلك وهو في القاهرة اعتبره نبأ مؤلما لأنه موجود في خارج مملكته ، ولأنه أنفق كل احتياطيه من الذهب والمؤ ن التي حملها معه[٩١] ، ولما طار صوابه ولم يعرف أين يقف ، راح يصب لعناته على مولاه جوهر وما اقترحه عليه بشأن قدومه إلى مصر . وقد كان بجواره أمين سر له ، رجل عالم حاد الذكاء ، اسمه أبو محمد الحسن[٩٢] وقد أدرك

---

(٨٩) لقد غادر الخليفة أبو تميم معد المعز قصره المنصورية قرب القيروان بتاريخ ٦ آب (أغسطس) ٩٧٢م ولم يصل الى القاهرة إلا في ١١ حزيران (يونية) ٩٧٣م . وعهد بنيابة الملك على بلاد البربر لرجل شجاع ، هو يوسف بن زيرى ، الملقب بولوغين ، أمير صنهاجه .

(٩٠) هذا الزعم غير صحيح ، ففي الداخل كان عليه حماية حدوده من تهديدات القرامطة المخيفة .

(٩١) وهنا يرتكب المؤلف خطأين تاريخيين . فعندما وقعت هذه الأحداث كان الخليفة القائم قد توفي منذ مائة عام ، أي بتاريخ ١٧ أيار (مايو) ٩٤٦ م ، وكان حفيده فاتح مصر معد المعز قد توفي بتاريخ ٢٢ كانون الأول (ديسمبر) ٩٧٥ م ، وكان الخليفة الفاطمي في مصر في ذلك العهد هو أبو تميم المعز المستنصر . هذا هو الخطأ الأول . وأما الخطأ الثاني فهو أن يوسف بن زيري كان قد توفي في شهر ماي (أيار) ٩٨٤ م ، وأن أحد حفدته ، وهو المعز بن باديس ، هو الذي انشق على حكومة مصر الشيعية ، وانتهى به الأمر ان خضع في سنة ١٠٥٠ م لخلافة بغداد السنية . وقد شجعه على ذلك نجاح الدعوة السنية في بلاده وانتشار المذهب السني في مختلف ارجائها .

(٩٢) اليازوري، وهو قاضي القاهرة الكبير ، تولى منصب رئاسة الوزارة عام ١٠٥٠ م .

هذا أحزان ملكه وتوقع الدمار المحلّق فوق رأس الملك إذا لم يتقدم بعلاج للموقف . فراح يواسي الملك وينصحه بالعبارات التالية :

« مولاي ، إن تقلبات الحظ متغيرة ، ولهذا لا يجوز لك أن ترتاب في قواك بسبب الحادث الحالي الذي تعرض له قدرك . وإنني أعتقد أنك إذا قبلت الرأي الذي سيعرضه عليك بكل ولاء وإخلاص خادمك الأمين ، فلن يكون لديّ أدنى ريب في أنك ستسترد في قليل من الوقت كل ما انتزع منك بالتمرد وأنك ستحصل بالتالي على ما تريد . وستبلغ ذلك بدون أن تحتمل أي مغرم ، وبدون أن تكون مضطرالدفع مرتب لجندي واحد ، بل إنني لآمل أن القوى التي سأضعها بين يديك هي التي ستدفع لك .

وعند سماع الخليفة هذا الكلام طابت نفسه وسأله كيف يمكن التوصل إلى ذلك . فتابع كلامه قائلا : « مولاي ، إن العرب قد تزايدوا كثيرا حتى إن جزيرتهم لم تعد قادرة على احتوائهم جميعا اليوم ، وما تنتجه تلك البلاد لا يكاد يكفيهم لتغذية ماشيتهم ، لأن هذه البلاد عقيمة لدرجة كبيرة . ولا يشكو الناس هناك من فقدان الأمكنة للسكنى فحسب بل من فقدان الأقوات ، وكان بإمكانهم الانتقال أكثر من مرة إلى إفريقيا فيما لو أذنت لهم بذلك . إذن امنحهم السماح بتحقيق هذا العبور . وبمقابل ذلك سأضع بين يديك مقدارا كبيرا من الذهب » .

وعندما فرغ الكاتب[٩٣] من كلامه هذا ، بدا على الخليفة أنه لم يقتنع كثيرا بنصيحته . ورأى أن العرب سيكونون سبب خراب إفريقيا ، وأنه لن يجني فائدة من وراء ذلك ، لا هو ولا الثائر . ولكنه حينما رأى أن مملكة إفريقيا أصبحت ضائعة على كل حال من يده ، وجد أن أهون الشرين هو الحصول على مبلغ كبير من المال كما زين له كاتبه ، وأن ينتقم بنفس الوقت من عدوه ، وذلك عوضا عن أن يخسر في آن واحد افريقيا والمال . فطلب من مستشاره نشر مرسوم يقضي بأن كل عربي يرغب في الهجرة إلى إفريقيا سيسمح له بذلك ، على أن يدفع دينارا واحدا فقط عن نفسه وعن كل فرد من أسرته ، وعلى أن يقسم يمينا بأن يعامل الثائر في إفريقيا معاملة الأعداء .

وعلى أثر ذلك اجتاز البلاد قرابة عشر قبائل ، أو نصف سكان جزيرة العرب المقفرة . وكان من بينهم أيضا بعض من أفخاذ قبائل اليمن . وكان عدد الرجال القادرين

(٩٣) أي اليازوري .

على حمل السلاح يقارب الخمسين ألفا ، باستثناء النساء والأولاد والمواشي وكان عدد هؤلاء لا يحصى . وقد ذكر المؤرخ الإفريقي ابن رقيق ، الذي سبق لنا الكلام عنه ، تقديرا صحيحا عنهم[٩٤] . وهكذا اجتاز العرب الصحراء التي قلنا إنها تقع بين مصر وبلاد البربر ، في قليل من الوقت . وتوقفوا قليلا لضرب الحصار على طرابلس ، واستولوا على هذه المدينة عنوة وخربوها ، وقتلوا كل أولئك الذين تمكنوا من قتلهم . وانطلقوا من هناك إلى قابس التي هدموها . وأخيرا حاصروا القيروان . ولكن الأمير الثائر الذي كان قد اختزن الأقوات وكل ما كان يحتاج إليه استطاع أن يصمد للحصار المضروب على المدينة مدة ثمانية أشهر إلى أن اجتاحها العرب بالقوة ودمروها . أما هو فقد اغتيل بعد أن تعرض للعديد من أشكال التعذيب[٩٥] .

وعلى أثر ذلك استحوذ العرب على جميع الأرياف وسكنوها وفرضوا على كل مدينة غرامات وتكاليف باهظة . وظلوا سادة هذه المنطقة من إفريقيا حتى عهد يوسف بن تاشفين (مؤسس دولة المرابطين) وهو أول ملك في مراكش . فاستخدم هذا كل سلطته لنجدة أولئك الذين يمتون بصلة القربى والصداقة إلى الأمير الثائر المتوفي . ولم يهدأ إلا بعد أن أنقذ المدن من هيمنة العرب[٩٦] .

---

(٩٤) يبدو من المشكوك فيه كثيرا ان يكون ابراهيم بن قاسم الرقيق قد تكلم عن الزحف الهلالي . فقد عاش هذا الرجل في اواخر القرن العاشر الميلادي . وآخر ذكر ورد عن مؤلفاته كان في عام ١٠٢٧ م [وربما كان اسم هذا المؤرخ ابن رشيق] . كما ان القبائل لم تأت مباشرة من جزيرة العرب ، بل من مصر، حيث كانت هذه القبائل تحت نوع من حصار بسبب شغبها بعد ان اشتركت في العمليات الحربية ضد القرامطة واصبحت لا تطاق بجوار الفلاحين المصريين الوديعين . وكان في ذلك فرصة للتخلص منهم .

(٩٥) لقد حفظ التاريخ ذكر هذه الهجرة تحت اسم الزحف الهلالي أو هجرة بني هلال ونسب إليها صفة الوحشية المفرطة . بيد أن دراسة النصوص لا تدل على أنها كانت انقضاضا ضاريا وهداما كما تصورها الكثيرون، ولكن برقة وحدها ، التي كانت مزدهرة حتى ذلك الحين ، هي التي تخربت نهائيا . ولم تقع سوى معركة حامية واحدة هي معركة جندر ، او جندران ، أو حيدران ، قرب مدينة القيروان . فقد استطاع ثلاثة آلاف فارس ، ومثلهم تقريبا من المشاة العرب ، أن يلحقوا الهزيمة بأمير إفريقية بعد مباغتته يوم العيد بتاريخ الاثنين ١٣ نيسان (أبريل) ١٠٥٢ م ، وهو الأمير المعز الذي كان على رأس جيشه بينما كانت قواته تنصب الخيام لكي تعسكر فيها . أما نهب القيروان الحقيقي فلم يحدث إلا بعد ستة أعوام ، وذلك بعد أن غادر المعز هذه المدينة كي يلجأ إلى المهدية ، حيث توفي فيها نتيجة موت طبيعي بتاريخ ١٤ آب ١٠٦٢ م . وقد خسر بالفعل تقريبا كل مملكته ، رغم أنه زوج ثلاثا من بناته من أمراء من العرب . ولكنه ظل محتفظا مع أحفاده حتى تاريخ حزيران (يونية) ١١٤٨ م بسلطة رمزية على المهدية ، الواقعة على الساحل التونسي .

(٩٦) في عام ١٠٥٣ م اجتاحت صنهاجة أو زناجة ، وهم الملثمون ، والذين يذكرهم التاريخ باسم المرابطين ، والذين يذكرهم الحسن دوما باسم لمتونة ، وهو اسم أهم قبائلهم ، أقول اجتاحت إمارة سجلماسة المزدهرة، ولقد تطلب فتح بلاد

ومع هذا ظل العرب في البوادي يقتلون وينهبون كل ما يمكن أن يقع تحت ايديهم . وفي أثناء ذلك ظل أقارب الأمير المتمرد يمارسون السلطة في أماكن مختلفة .

ولكن عندما آلت السلطة إلى المنصور ، رابع ملك وخليفة في دولة الموحدين ، لم يعمل كما صنع أسلافه الذين كانوا يحاربون لمصلحة أحفاد الأمير الثائر ويعيدون لهم سلطتهم ، بل اتخذ قراره بمناصبتهم العداء وانتزاع أية سلطة منهم . وتصرف لذلك بمكر ودهاء ، وعقد معاهدات معهم ، ثم حرض العرب على محاربتهم ، فانتصر هؤلاء عليهم بدون كبير عناء . وحينئذ اصطحب المنصور أهم رجالات العرب وأمراءهم إلى ممالك الغرب ، فأقطع زعماءهم منطقة دكالة وأزغار ومنح نوميديا لعامتهم(٩٧) .

= البربر أربعين عاما فوصلوا حتى مدينة الجزائر ، وتوغلوا في أسبانيا حتى مدينة فراغا في أراغون ، تحت قيادة زعيمهم الشهير يوسف بن تاشفين ، وهو الذي تقلد أمر قيادتهم في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٠٦١ م ، وأسس مراكش عام ١٠٦٢ م ومات بتاريخ الثاني من أيلول (سبتمبر) ١١٠٦ م عن عمر يبلغ ٩٦ عاما . ولا يبدو أن يوسف بن تاشفين قد اهتم كثيرا بشأن مشاكل العرب مع الامراء الصنهاجيين . بل كل ما هنالك يظهر أنه احترم اسم ذلك النسب القبلي البعيد ، وهو امارة بني حماد الصنهاجية ، التي كانت عاصمتها حينذاك تاكربوست ، أو قلعة بني حماد ، قرب مسيلة بالقطر الجزائري .

(٩٧) يظهر هذا العرض غير صحيح إطلاقا . فبعد أن نودي بعبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين في ١١ آذار (مارس) ١١٣٢ م قام هذا بالاستيلاء على كل شمالي أفريقيا ، أو بلاد البربر عند الوزان ، وفي ١١٦٠ م اعترفت برقة بسلطته . وفي شباط (فبراير) ١١٥٢ م احتل بجاية التي كانت منذ ١٠٦٧ م عاصمة الأمراء الحماديين ، وخرب عاصمتهم القديمة ، قلعة بني حماد ، تماما . ولكن العرب ، على العكس ، هم الذين عملوا على دعم الأمراء الصنهاجيين . فبعد أن حشدوا جموعهم في باجة أنقضوا في أيار (مايو) أو حزيران (يونية) عام ١١٥٣ م على ستيف ، أي على مؤخرة جيش الموحدين العائد إلى المغرب . وبعد معركة حامية الوطيس امتدت على ثلاثة أيام انهزموا وطوردوا إلى أن أعلنوا خضوعهم الذي استمر حتى عام ١١٨٥ م . فتلاشت مملكة بني حماد في بجاية ولم يبق منها سوى الإمارات الصنهاجية في إفريقية ، أي في الشمال التونسي . وعلى أثر الاستنجاد بعبد المؤمن لطرد نصارى صقلية من المهدية ومن الساحل التونسي الذي احتلوه عام ١١٤٨ م انطلق من مراكش في تشرين الأول (اكتوبر) ١١٥٨ م ودخل بدون مقاومة الى تونس في الرابع من حزيران (يونيو) ١١٥٩ م وانتزع المهدية منهم في ٢١ كانون الثاني (يناير) ١١٦٠ م بعد حصار طويل . وقام بتصفية الأمراء الصغار المحليين وعين مكانهم حكاما من الموحدين . وعند عودته إلى المغرب اصطحب عبد المؤمن معه عددا من العرب مع عائلاتهم . واضطر ابنه وخليفته أبو يعقوب يوسف أن يقوم بحملة استغرقت عامين من ١١٧٩ م إلى ١١٨١ م لإخضاع إفريقية . وبعد عودته الى مراكش بقليل جاءت كتيبة كبيرة من العرب لتضع نفسها تحت تصرفه . وفي ٣٠ تموز (يوليو) ١١٨٤ م نودي بأبي يوسف يعقوب ، الملقب بالمنصور خليفة الموحدين الرابع ، إذا اعتبرنا ابن تومرت الخليفة الأول ، أو ثالث خليفة مؤمني (أي بعد عبد المؤمن . وذلك إذا اعتبرنا عبد المؤمن هو الخليفة الموحدي الأول) . وفي العاشر من أيار (مايو) ١١٨٥ م نزل في بجاية دعيٌّ لإعادة حكم المرابطين ، هو علي بن إسحق بن غانية ، أمير جزيرة ماجورقة ، مع بضعة من إخوته وقواته . وبعد أن أحرز المرابطون عدة نجاحات محلية ، اضطروا للانكفاء نحو الجنوب التونسي ، حيث حرضوا العرب على العصيان ولاقوا عونا من الفرق التركية القادمة من مصر بقيادة احد مماليك صلاح الدين الايوبي ، وهو قراقوش الارمني الاصل . واصبح الوضع خطيراً . فغادر الخليفة المنصور عاصمته مراكش في ١٧ كانون الأول ١١٨٦ م واندفع لإستعادة قفصه وقابس ، وكسر المرابطين والاتراك =

وفي الأزمنة التالية استرد عرب نوميديا ، الذين كانوا عبيد النوميديين تقريبا ، استردوا حريتهم وهيمنوا رغم أولئك على جزء من نوميديا الذي أقطعهم إياه المنصور ، حتى أصبحوا يوسعون أراضيهم يوما بعد يوم . أما العرب الذين كانوا يسكنون أزغار والمناطق الأخرى من موريتانيا فقد استعبدوا ، لأن العرب خارج الصحراء كالسمك خارج الماء(٩٨) ، وكانوا يودون الذهاب إلى الصحراء ولكن كان ذلك من المستحيل عليهم ، لأن ممرات جبال الأطلس كانت تحت حراسة وسيطرة البربر . ومن جهة أخرى كان عليهم أن يكفوا عن أي توسع في الأرياف ، لأن عربا آخرين كانوا سادتها . ولهذا تخلوا عن كبريائهم وانصرفوا إلى رعي الماشية وزراعة الأرض . ولكنهم ظلوا يعيشون تحت الخيام لا تحت أكواخ أو بيوت ريفية . وبالإضافة إلى توسعهم أصبح عليهم أن يدفعوا سنويا ضرائب وعوائد لملك فاس . أما عرب دكالة الذين تحصنوا بكثرتهم فقد كانوا أحرارا وما كانوا ملزمين بدفع أية ضريبة . وبقي قسم من العرب في منطقة تونس لأن المنصور رفض اصطحابهم معه . وبعد رحيله قام هؤلاء باحتلال تونس ، وأصبحوا سادة البلاد واستمرت هيمنتهم إلى أن ثار بعض أمراء أسرة أبي حفص . فاتفق العرب معهم كي يتركوا لهم السلطة العليا بشرط أن يحصلوا على نصف الضرائب ومنتجات الأرض التي ستنتزع من المملكة(٩٩) .

=وعاقب العرب الذين أمدوهم بالعون . وعاد الى مراكش في ايلول (سبتمبر) ١١٨٨ م بعد معركة مظفرة ، مصطحباً معه اكثر العرب شغباً كي يجعلهم تحت مراقبته ولكي يستخدمهم في حرب الأندلس . فأقام هؤلاء العرب في تامسنه وفي ازغار . ولكن عرب المعاقيل ، الذين لم يكن عددهم يتجاوز ٢٠٠ رجل عند الزحف الهلالي والذين تكاثروا تكاثراً مذهلاً ، أخذوا بالتسلل نحو الغرب عبر الجنوب التونسي والجنوب الجزائري والجنوب المغربي كي يصلوا الى السوس في القرن الثالث عشر الميلادي . وفي اواخر القرن الرابع عشر لم يكونوا قد تجاوزوا جنوبا الساقية الحمراء ، وفي اواسط القرن الخامس عشر الميلادي . وصلوا وادان ، وفي عصر المؤلف بلغواتيشيت في موريتانيا الحالية ، وقد كانوا من ناحية اخرى قد بلغوا البحر المتوسط سالكين وادي الملوية وذلك في القرن الثاني عشر الميلادي .

(٩٨) وهنا نتوقف قليلا لنوضح المفهوم الجغرافي لبعض الأسماء الواردة في نص الوزان : فكلمة موريتانيا عنده تعني المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مدينة الجزائر حتى شمال مصب نهر السبو ، وتعني نوميديا منطقة قسنطينة ، وأما افريقية فتعني بلاد تونس الشمالية بما في ذلك القسم الشرقي من منطقة قسنطينة أي كل حوض نهر المجردة ورافده نهر الملاق . ويقصد المؤلف بعبارة العرب دوما الأعراب أو البدو من بني هلال وسليم والمعاقيل (المترجم) .

(٩٩) لقد حدث الاستيلاء على تونس في كانون الأول (ديستمبر) ١٢٠٣ م ، ولم يتم انتزاع المدينة على أيدي العرب ، بل بواسطة قوات المدعي المرابطي يحيى بن إسحق بن غانية المايورقي ، الذي تزعم التمرد المرابطي بعد وفاة أخيه علي . وجاء خليفة مراكش أبو عبد الله محمد الناصر ذاته لاستخلاص تونس في ١٢٠٥ م . وأرسل أفضل قواده ، عبد الواحد بن أبي حفصة عمر لمطاردة يحيى الذي انهزم في تشرين الأول (اكتوبر) ١٢٠٥م .عند جبل تاجيره في الجنوب التونسي . وعند عودته من تونس الى مراكش في ايار (مايو) ١٢٠٧ م ترك الناصر عبد الواحد واليا على تونس وحاكما على البلاد التونسة .وفي

ولكن ملوك تونس عجزوا عن إرضاء كل العرب ، لأن عدد هؤلاء كان يتجاوز إمكانات موارد المملكة ومنتجاتها ، وهكذا كانت توزع هذه المعونات بين قسم فقط من العرب ، مع تكليفهم حفظ النظام في الأرياف وعلى ألا يلحقوا أذى بإنسان . أما بقية العرب المحرومين من هذه الموارد فقد اتجه نشاطهم إلى النهب والقتل وإلى أسوأ أنواع الأذى . فكانوا ينصبون الكمائن في أغلب الأحيان وعندما يمر مسافر كانوا يبرزون له ويسلبون ماله وثيابه ثم يقتلونه ، حتى لم تعد الطرق آمنة . وكان التجار الذين يودون الذهاب من تونس الى مكان ما يقصدونه ، كانوا يصطحبون معهم للحماية حرسا من حملة الأسلحة . ولكنهم ظلوا مع ذلك يتعرضون لطوارىء خطيرة . أولها دفع رسم كبير عن المرور إلى العرب الذين كانوا يتمتعون بدعامة من الملك ؛ والآخر ، وهو الأسوأ هو تعرضهم في معظم الأوقات لوثوب العرب الآخرين عليهم . وأحيانا ما كان حرس الحماية الذي اصطحبوه معهم ليغني عنهم شيئا ، فيخسرون حياتهم وأموالهم معا .

تقسيم العرب الذين قدموا لسكنى إفريقيا والذين دعوا بالعرب المتبربرين

ينتسب العرب الذين دخلوا إفريقيا(١٠٠) إلى ثلاث قبائل . الأولى تدعى شاشين ، والثانية بني هلال والثالثة معقل(١٠١) .

وتنقسم شاشين إلى ثلاثة أفخاذ هي : أثبج وسميت وسعيد .

اثر وفاة الوالي المذكور في ٢٥ شباط (فبراير) ١٢٢١ م ، زاد الوضع سوءاً اكثر فأكثر لا سيما وان الخلافة الموحدية راحت تنحدر نحو انحطاط كامل . وقد ادى انكسار الناصر الشنيع في ١٦ تموز (يوليه) ١٢١٢ م في موقعة حصن عقبة او « لاس نافاس دوطولوشة » في الاندلس ، فضلا عن التمرد الزناتي الطويل بزعامة يحيى بن غانية في المغرب الأوسط وضعف خلفاء الناصر ، اقول ادى كل ذلك لأن يقتطع بنو مرين لهم مملكة في المغرب ، وأن يؤسس بنو عبد الواد مملكتهم في تلمسان . وفي حزيران (يونيه) ١٢٢٨ م نودي بأحد ابناء عبد الواحد واليا على تونس . ولم يعد يعترف الامير الحفصي ، ابو زكريا يحيى ، ابدا بسلطة خليفة مراكش منذ ١٢٢٩ م . وفي ١٢٣٦ م اعلن نفسه اميرا مستقلا . اما ابنه ابو عبد الله محمد الذي اعقبه بتاريخ ٩ تشرين الأول (اكتوبر)١٢٤٩م فقد اتخذ لقب خليفة موحدي في شباط (فبراير) ١٩٥٣ م وهنا يقع العصيان الحفصي.

(١٠٠) حين الزحف الهلالي .

(١٠١) لا تسمح الوثائق التي تعرفنا عليها بمثل هذا التصنيف المطلق . غير أنها تتفق مع ما كتبه المؤلف فيما يتعلق بأسمي القبيلتين الكبيرتين معقل وهلال . أما اسم شاشين الذي سنجده فيما بعد فلم يمكن تفسيره بصورة مقبولة . وربما كان من الممكن أنه خاخين أو حكيم أو حكم . وحكيم اسم عشيرة صغيرة كانت تمتد أراضيها في الماضي بين سوسة والجم في البلاد التونسية . ويمكن الأفتراض أن المؤلف لقي استقبالا ممتازا لدى هذه العشيرة المذكورة وأنه سجل بعض الروايات عن سمو شأن أجدادها ، أوأنه بكل بساطة قد جافى الحقيقة التاريخية ليقدم رمزا للعرفان بالجميل لعشيرة الحكيم .

وتتوزع اثبج بدورها بين ثلاثة فروع هي : دلَّج والمنتفق وصبيح .وتنقسم هذه العشائر بدورها الى عدد لا حصر له من الطوائف .

أما بنو هلال من جهتهم ، فينقسمون إلى أربعة فروع هي : بنو عامر ، رياح ، سفيان ، غصين .

ويتوزع بنو عامر بين عروة وعقبة وهبرة ومسلم .

وتضم رياح الدواودة وسويد وسجاع وهريت والندر والكرفة . وتتفتت هذه العشائر الأخيرة إلى عدد لا يحصى من العائلات .

وتنقسم معْقل إلى ثلاثة فروع هي : مختار وعثمان وحسان .

فالمختارة يتشعبون الى روحة وسليم .

وتنقسم عشيرة عثمان إلى الحسين وشنانة .

وتتوزع حسان بين دوى حسان ، ودوى منصور ، ودوى عبيد الله .

وتنقسم دوى حسان إلى دليم والأوداية والبرابيش والرحامنة والحمر .

وتشتمل عشيرة بني منصور على العمارنة والمنبهة والحسين وأبي الحسين .

وتنقسم دوى عبد الله بدورها إلى خراج وإلى حدج وإلى ثعلبة وإلى جعوان .

وجميع هذه العشائر مقسومة إلى عدد لا متناه من الفرق التي يصعب تذكرها بل يستحيل .

التوزع الأرضي للعرب - عددهم

لقد كانت أثبج أكثر العرب شرفا وأكثرهم أهمية . وهم الذين اختارهم المنصور[١٠٢] كي يسكنوا دكالة وسهول تادلة . وفي أيامنا هذه أصبحوا مرهقين بالضرائب تارة من ملك البرتغال وتارة أخرى من ملك فاس . ويبلغ عدد القادرين منهم على حمل السلاح ١٠٠ ٠٠٠ رجل نصفهم من الخيالة . أما سميت فقد مكثت في صحراء ليبيا التي

---

(١٠٢) الخليفة الموحدي يعقوب المنصور . عام ١١٨٨ م

تعتبر امتدادا لصحاري طرابلس . وكان من النادر أن يأتوا إلى بلاد البربر التي لم يكن لهم فيها أي نفوذ وما كانت تنسب إليهم فيها أية مقاطعة . وهكذا يظلون على الدوام في الصحراء مع إبلهم . وعدد القادرين منهم على ممارسة الحرب يبلغ ٩٠٠٠٠ معظمهم من المشاة(١٠٣) .

وتسكن عشيرة سعيد نفس صحاري ليبيا(١٠٤) ويرتبطون بعلاقات صداقة وتجارة مع مملكة ورقلة . ويملكون عددا لا يحصى من الماشية ويصدرون اللحوم لكل المدن والقرى القريبة من صحاريهم ، ويكون ذلك في الصيف ، لأنهم لا يغادرون الصحراء في الشتاء . ويقاربون ١٥٠٠٠٠ من حيث العدد ولكنهم لا يملكون سوى القليل من الجياد .

وتسكن دلَّج عدة مناطق . والقسم الأعظم منهم يعيش على تخوم قيصرية ومملكة بجاية(١٠٥) . ويتلقى هؤلاء العرب معونات من الأمراء والمجاورين . ويسكن أصغر جزء منهم سهل آدخسن(١٠٦) على تخوم موريتانيا مع جبال الأطلس . ويدفع هؤلاء الضريبة لملك فاس . وتسكن المنتفق سهول آزغار . ويطلق عليهم اليوم اسم الخلوط(١٠٧) وهم يدفعون الضريبة أيضا لملك فاس ويستطيعون تعبئة ٨٠٠٠ فارس مجهزين تجهيزا جيدا جدا . وتسكن صبيح ، وأقصد أعظمهم أهمية وأرفعهم قدرا ، بجوار تخوم مملكة الجزائر ويتلقون مساعدات من ملك تلمسان . ولهم في نوميديا بضع مناطق خاضعة لهم . ولا يقَل عدد فرسانهم كثيرا عن ٣٠٠٠ فارس ، وهم شجعان للغاية عند الصدام . ولهؤلاء العرب أيضا عادة الانسحاب شتاء نحو الصحراء لأنهم يملكون كثيرا من الإبل . ويسكن قسم آخر من صبيح في السهول الواقعة بين سلا ومكناس . ولهؤلاء أغنام وأبقار ويزرعون الأرض ويدفعون كذلك ضريبة لملك فاس ، ويبلغ عدد فرسانهم ٤٠٠٠ فارس مجهزون أحسن جهاز .

---

(١٠٣) لم نتمكن من التعرف على هذه العشيرة الكبيرة في الجنوب الطرابلسي .

(١٠٤) أي جنوبي منطقة قسنطينة .

(١٠٥) أي جنوب شرق ولاية مدينة الجزائر الحالية .

(١٠٦) أي سهل خنيفره الحالي في المملكة المغربية .

(١٠٧) ولا يزال قسم منهم في منطقة القصر الكبير بجوار ساحل المحيط .

قبيلة بني هلال - مناطقهم

إن الفرع الرئيسي من قبيلة بني هلال هو فرع بني عامر . ويسكن هؤلاء العرب بجوار تخوم مملكتي تلمسان ووهران وينتجعون نحو صحراء تحرارة . ويستخدمهم ملك تلمسان في أعمال كثيرة مقابل أجور تدفع لهم ، وهم أولو بأس شديد وثروة واسعة ، وفيهم ٦٠٠٠ فارس جميل الطلعة جيد التجهيز . وتملك عشيرة عروة ضواحي مستغانم ورجالها متوحشون ولصوص ولباسهم رديء ، ولا يبتعدون عن الصحراء ، إذ ليس لديهم أراض خاصة بهم ، ولا ينالون مساعدات في بلاد البربر . ولديهم قرابة ٢٠٠٠ فارس .

وتقيم عشيرة عقبة بضواحي مليانة . وينالون بعض المساعدات الصغيرة من ملك تينس. ولكن هؤلاء عبارة عن سفاكين مجردين من كل عاطفة انسانية وفيهم حوالي ١٠٠٠ فارس . وتسكن عشيرة هبرة السهل الواقع بين وهران ومستغانم . وهؤلاء مزارعون يدفعون الضريبة لملك تلمسان . ويستطيعون تقديم ١٠٠٠ فارس . وتسكن مسلم صحراء مسيلة التي تمتد باتجاه مملكة بجاية ، ويتلقون عائدات من مسيلة ومن بعض البقاع الأخرى .

وتسكن رياح صحاري ليبيا الواقعة إلى الجنوب من قسنطينة . وتمتد سلطتهم على جزء من نوميديا. وينقسمون الى ستة اقسام، وهم اشراف وحسنو التجهيز وبواسل في الحروب ، ويتلقون مساعدات من ملك تونس ، وفيهم ٥٠٠٠ فارس .

وتسكن سويد الصحاري التي تمتد نحو مملكة تينس، ولهم شهرة كبيرة وسلطة واسعة . ويخصص لهم ملك تينس معونات ، وهم أشراف وبواسل ولديهم كل ما يحتاجون إليه .

وتخضع سجاع لقبائل عربية مختلفة ، ويسكن عدد كبير منهم صحراء غارت مع العمارنة . ويسكن فرع منهم مع عرب دكالة[١٠٨] وضواحي آسفي[١٠٩]

(١٠٨) أي الغربية .

(١٠٩) لا زال يوجد عدد من فروع سجاع حتى الآن .

وتسكن هريت سهول هلان بصحبة سيديمه ويضربون الجزية على سكان حاحه[١١٠] وهم فقراء معدمون . ويسكن الندر[١١١] سهول حاحه . ولدى عرب حاحه هؤلاء حوالي ٤٠٠٠ فارس وكلهم من ذوي التجهيز الرديء . ونجد عشيرة الغرفة[١١٢] في نقاط مختلفة . ولا رؤساء لهم بل هم مختلطون مع قبائل اخرى ، ولا سيما مع منبه والعمارنة وهؤلاء الذين ينقلون تمور سجلماسة إلى مملكة فاس حيث يعودون إلى سجلماسة مع الأقوات الضرورية .

قبيلة معقل - أراضيها - عددها

تسكن عشيرة الروحة ، وهي فرع من مختار ، الصحاري المجاورة لدادس وفيركله[١١٣] . وهم فقراء لأنهم لا يملكون سوى القليل من الأراضي . غير أنهم محاربون أشداء راجلون ، حتى إنهم يعتبرون من المعيب جدا أن ينهزم راجل واحد أمام فارسين . ولا نجد واحدا منهم ، مهما كان بطيء السير ، يعجز عن أن يسير لغرضه بسرعة تقل عن أي فارس ، مهما كان طول الطريق الذي يقطعه . وفيهم حوالي ٥٠٠ فارس و ٨٠٠٠ راجل ، ونقصد بذلك رجال الحرب[١١٤] .

وتسكن سليم قرب وادي الدرعة . وينتجعون عبر الصحراء . وهم أغنياء ويذهبون مرة في كل عام مع سلعهم إلى تومبوكتو . ولدى هذه القبيلة الكثير من الأملاك في الدرعة والعديد من الأراضي الزراعية وعدد ضخم من الإبل . وفيهم حوالي ٤٠٠٠ فارس . وتسكن عشيرة الحسن على ضفاف المحيط عند تخوم ماسّه . وفيهم حوالي ٥٠٠ فارس مجهزون أسوأ تجهيز . ويسكن قسم منهم أزغار . وأهل منطقة ماسّه أحرار في حين يخضع أهل إقليم أزغار لملك فاس .

---

(١١٠) لا يزال عرب هريت في مكانهم في جنوب نهر التانسفت إلى الشرق من عرب شيادمة ، وأما اسم « هلان » الذي ورد في النص فهو غير معروف ، ولعله تحريف ناشيء عن سبق قلم

(١١١) أنقرضوا أو انصهروا بغيرهم من العرب .

(١١٢) أنقرضوا حاليا .

(١١٣) صوابها تودجه

(١١٤) لا تزال عشيرة الروحة حتى أيامنا هذه ، مجتمعة على شكل جماعات صغيرة في بعض قصور وادي الدرعة ، ويعرفون أصلهم العربي . ولكنهم لا يختلفون في شيء عن بقية سكان القصور البربر ، وليس لديهم خيول ، وقد فقدوا جميع صفاتهم الخاصة .

وتسكن كنانة مع خلوط ويخضعون أيضا لملك فاس ، وهم رجال أقوياء الشكيمة ولديهم كل ما هو ضروري ، وفيهم ٢٠٠٠ فارس .

وينقسم دوى حسان[١١٥] إلى دليم[١١٦] والبرابيش والأوداية ودوى منصور[١١٧] ودوى عبيد الله[١١٨] . وتسكن الدليم صحراء ليبيا مع زناقة ، وزناقة شعب إفريقي . وليس لهؤلاء العرب نفوذ ولامورد . وهم كذلك بؤساء ومن كبار اللصوص . ويذهبون أحيانا إلى منطقة درعة ليستبدلوا التمر بأنعامهم . ويلبسون رث الثياب . ويبلغ تعدادهم حوالي عشرة آلاف رجل منهم أربعمائة فارس وستمائة راجل .

وتسكن البرابيش صحراء ليبيا في القسم الواقع باتجاه إقليم السوس ، وهم كثر وفقراء ، ولكن لديهم الكثير من الابل وهم يحكمون مقاطعة تيشيت[١١٩] التي لا يكفيهم دخلها حتى لتكاليف الحديد الذي يضعونه في حوافر القليل مما يملكونه من خيول .

وتسكن الأودايه[١٢٠] الصحاري الواقعة بين وادان وولاته ولهم قيادة السود وعددهم لا يكاد يحصى ، إذ يقدرون بحوالي ٧٠٠٠٠ رجل حرب ، ولديهم القليل من الخيل . ويسيطر الرحامنة على الصحراء المجاورة لعكا[١٢١]، ولهم أيضا النفوذ على تيشيت حيث اعتادوا الذهاب إليها كل شتاء وعندهم كذلك القليل من الخيل . ويسكن الحمر صحراء تاغاوست وينالون بعض المعونات من عمالة تاغاوست . ويجوبون الصحراء حتى نون ويقارب عدد محاربيهم ٨٠٠٠ رجل[١٢٢] .

---

(١١٥) وقد نزح هؤلاء فيما بعد إلى موريتانيا الحالية وأصبحت اللهجة السائدة هناك تدعى الحسانية .

(١١٦) وربما أولاد دليم .

(١١٧) او الرحامنة .

(١١٨) أو عمرو .

(١١٩) في موريتانيا الحالية (المترجم) .

(١٢٠) واسمهم في موريتانيا الأوداي وفي المغرب الأوداية . « وإليهم ينسب الحي القديم المركزي في مدينة الرباط » (المترجم)

(١٢١) كان الرحامنة ينتجعون حتى عكا في جنوب الدرعة في المغرب ، وقد أجلوا فيما بعد إلى شمالي مراكش ولا يزالون هناك شمال نهر التانسفت.

(١٢٢) يقول ماسينيون سنة ١٩٠٦ ص ١٤٠ : إن الحمر هم أولاد الأحمر الذين يقيمون في مخزن الحوز ، ومنهم آيت باعمران في السوس وفي إقليم باكونو في موريتانيا ، في جنوب شرق موريتانيا الحالية ، وليس من المؤكد اطلاقا أن تاغاوست التي يذكرها المؤلف هي تاقنت الحالية في موريتانيا .

دوي منصور

تسكن عمران وهي فرع من دوي منصور في الصحاري المجاورة لسجلماسة وينتجعون في صحراء ليبيا حتى إيغيدي[123] . ويجبون الجزية من سكان سجلماسة وفيركله وتبلبلة والدرعة . ولديهم الكثير من حدائق النخل ويستطيعون العيش كما يعيش الأمراء ويتمتعون بشهرة كبيرة . وفيهم حوالي ٣٠٠٠ فارس . ويعيش بين ظهرانيهم العديد من العرب الأقل غنى منهم ، ولكنهم يملكون خيولا ومواشي بأعداد لا بأس بها . مثل عرب الكرفة وسجاع .

ولعشيرة حمرون فرع متفرد تمتد سلطته على بعض الأراضي الزراعية الواقعة في بلاد البربر . ويتجول هؤلاء حتى صحراء فيقيق . وتدر عليهم أراضيهم المزروعة وقراهم في نوميديا موارد كثيرة هامة . ويأتي هؤلاء العرب ليقيموا في الصيف في منطقة غارت على تخوم موريتانيا ، في قسمها الشرقي . وهؤلاء الرجال شرفاء وعلى درجة قصوى من البسالة . ولهذا كان من عادة كل ملوك فاس تقريبا أن يتخذوا من بناتهم زوجات لهم ، وبذلك عقدوا مع هؤلاء صلات قرابة . وتسكن منبه أيضا نفس صحراء فيقيق . ولهم السلطة على متغاره والرتب وهما إقليمان من موريتانيا ، وهؤلاء أيضا رجال شجعان ويجبون الضرائب من سكان سجلماسة ، ويقدر عدد فرسانهم بألفين .

وتمت عشيرة الحسين أيضا بصلة النسب إلى دوى منصور . وتسكن بين جبال الأطلس . ومنهم زعماء يملكون بضعة جبال مجهولة ومدناً وقصوراً ، أقطعهم إياها مختلف ملوك بني مرين ، لأن هذه القبيلة قدمت عونا ممتازا لهذه الأسرة عندما ملك أفرادها زمام الحكم . وتمارس عشيرة الحسين سلطتها على مملكة فاس وسجلماسة . ويحكم زعيمهم مدينة تدعى غرسلوين[124] وينتجعون أيضا في صحراء الضهرة[125] ، وهم أناس أغنياء وشجعان ويقدر عدد فرسانهم بحوالي ٦٠٠٠ فارس . ويعيش بينهم عرب آخرون يدينون لهم بالطاعة .

وتسكن عشيرة أبي الحسين جزئيا في صحراء الضهرة المذكورة ولا يملكون فيها

---

(١٢٣) ايغيدي (الرمل) وهي منطقة كثبان كبيرة جنوبي تافيلالت جنوبي المملكة المغربية .

(١٢٤) وتحمل أطلالها اليوم اسم دوار وتقع على ضفة واد زيز في مديرية غير في جنوب شرق المملكة المغربية .

(١٢٥) الضهرة سهل صحراوي يقع بين دبدو وفيقيق في شرقي المملكة المغربية

الشيء الكثير . وهم على درجة من البؤس بحيث لا يستطيعون حتى البقاء تحت خيامهم في هذه الصحراء . وإذا كان من الصحيح القول بأنهم انشأوا بعض الملكيات الزراعية في صحراء ليبيا ، فهم يعيشون هنا أيضا عيشة شظف ، يعتورهم الجوع ، ويدفعون بعض الإتاوات لأقاربهم .

دوي عبيد الله

تؤلف عشيرة الخراج جزءا من قبيلة عبيد الله . ويسكن هؤلاء العرب صحراء بني قومي (١٢٦) وفيقيق . ويملكون الكثير من الأراضي الزراعية في نوميديا . وينالون معونات من ملك تلمسان الذي يعمل جاهدا وبلا انقطاع لكي يعودهم على حياة هادئة شريفة ، لأنهم قطاع طرق يغتالون تقريبا كل من يقع في أيديهم . ويؤلفون حوالي ٤٠٠٠ فارس . ومن عادتهم أن ينقلوا مخياتهم في الصيف إلى ضواحي تلمسان .

وتسكن ثعلبة سهل الجزائر . وينتجعون إلى الصحراء حتى تغوات(١٢٧) وقد كانت لهم السلطة على مدينتي الجزائر ودلّيس . أما في أيامنا فقد انتزعت هاتان المدينتان من أيديهم على يد بربروس(١٢٨) وعلى أثر ذلك دمرت قبيلة ثعلبة . وقد كانت عشيرة نبيلة وباسلة في الحرب ، وكانت تضم قرابة ٣٠٠٠ فارس .

وتسكن حدج في صحراء مجاورة لمدينة تلمسان وتدعى صحراء أنجاد ، وليس لديهم أملاك عقارية ولا ينالون مساعدات ، ولا يعيشون إلا على القتل والسلب ، وفيهم ٥٠٠ فارس .

ويعيش الجعوان على شكل فصيلتين منفصلتين : الأولى مع خراج والأخرى مع حدج . ولكنهم يعتبرون اتباعا لهم ويحتملون هذه التبعية بإذعان . والآن يجب علينا أن نوجه أنظاركم إلى أن القبيلتين الأوليين ، وهما الحكم وبنو هلال ، هما من عرب نجد ، وتنحدران من إسماعيل بن إبراهيم . ويعود أصل القبيلة الثالثة ، أي المعاقيل ، إلى اليمن وأصلهم من سبأ . ويعتبر المسلمون أن ولد سماعيل أكثر نبلا من السبئيين . ولهذا لا

(١٢٦) تقع قصور بني قومي ، وأهمها قصر تاغيت ، على ضفاف واد الزوز فانه في الجنوب المغربي

(١٢٧) ربما يقصد توات التيه تبدو بعيدة جدا عن مدينة الجزائر وربما يقصد تغدمت قرب تيارت ، أي في إقليم سرسو .

(١٢٨) وهو القائد عروج أمير البحر التركي ، وهو الأخ الأكبر لأخوين يحملان لقب بربروس

ينفك النزاع قائما بين القبيلتين على النبل ، وقد نظمت في كلا الجانبين قصائد تحاورية يسرد فيها كل من الفريقين فضائله وأعماله المجيدة ومآثر قبيلته

ومن المستحسن أن نعرف أيضا أن العرب القدامى الذين كانوا موجودين قبل ظهور أبناء إسماعيل يسمون عند المؤرخين الأفارقة العرب العاربة(١٢٩) ، أي عرب جزيرة العرب . أما العرب الذين ينحدرون من إسماعيل فيسمون العرب المستعربة ، وفيها معنى الحدوث ، لأنهم لم يولدوا عربا(١٣٠) . والعرب الذين قدموا لسكنى افريقيا سمّوا العرب المستعجمة ، أي العرب المتبربرين ، لأنهم سكنوا مع أمة أجنبية ، ففسد لسانهم مع تطاول الزمن حتى اصبحوا من البربر(١٣١) .

وسيكون من الأفضل لو أمكن الرجوع لتاريخ العرب لابن خلدون ، الذي ألف كتابا ضخما يكاد يكون مخصصا برمته لعلم أنساب العرب المتبربرة* . ولم تحتفظ ذاكرتي الهزيلة أكثر مما استطعت قوله هنا ، لأنني أؤكد أن نظري لم يقع على كتاب في تاريخ العرب منذ أكثر من عشرة أعوام . ومن ناحية أخرى رأيت كل العشائر العربية التي ذكرتها آنفا وكانت لي محادثات مع أهلها وظلت خصائصها عالقة في ذاكرتي .

عادات وأنماط معيشة الأفارقة الذين يعيشون في صحراء ليبيا

يطلق اللاتين عبارة النوميديين(١٣٢) على كل القبائل الخمس التي سبق لنا الكلام عنها ، وأقصد بذلك زناقة والونزيقة والطوارق ولمتونة وبردوه . ويعيشون جميعا على أسلوب واحد ، بدون أية قاعدة وبدون أي تعقل(١٣٣) . ويتألف كساؤهم من « فوطة » ضيقة من صوف خشن . ويضع كل واحد فوق رأسه قطعة قماش سوداء ملفوفة حول

---

(١٢٩) لا تزال عشيرة تدعى عارب موجودة في منطقة جبل باني المشرف على وادي الدرعة بجوار عكا .

(١٣٠) وهذه العبارة أطلقت على الأسبان الذين عاشوا كالعرب أيام الحكم الإسلامي في الأندلس ، ومنها عبارة موزاراب .

(١٣١) أي الذين يتكلمون لغة عربية محرفة ومختلطة بعبارات أجنبية .

* يقصد « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » (المراجع)

(١٣٢) الحقيقة كان النوميديون بالنسبة إلى اللاتين هم سكان تونس الشمالية وسكان شمال شرق ولاية قسنطينة الحالية . أما سكان الجنوب فيسمون جتول أو القرمنط وكان مجال القرمنط في منطقة فزان خاصة . أما الصحراويون فلم يكن لهم كما يبدو أية تسمية خاصة .

(١٣٣) قول فيه الكثير من المبالغة .

وجهه كالعمامة . أما الوجهاء والشخصيات الهامة فيضعون قميصا كبيرا ذا أكمام عريضة ، من قماش القطن الأزرق الذي يشترونه من تجار قادمين من السودان ، وذلك لكي يتميزوا عن الآخرين . ولا يركبون سوى الإبل ويستخدمون لهذا سرجا يضعونه بين السنام وبين عنق الحيوان[134] وإنه لمنظر جميل أن يرى الإنسان هؤلاء الناس راكبين جمالهم . وأحيانا يضعون ساقا فوق ساق على عنق الجمل ، وأحيانا أخرى يضعون أقدامهم في سيور مربوطة بالسرج بدون ركابات[135] ويستخدمون سهما مربعا من الحديد مثبتا في نهاية عصا طولها ذراع[136] ولكنهم لا يوخزون بها الحيوانات إلا في اكتافها . وللإبل الركوب ، أي الهجن ، منخار مثقوب ، على طريقة بعض الجواميس التي ترى في إيطاليا ويمرر في هذا الثقب شريط من الجلد يمكن بواسطته تدوير الجمل أو توجيهه كما يقاد الجواد باللجام . ويستعمل هؤلاء الناس لنومهم حصرا من خيزران ناعمة جدا . ويصنعون خيامهم من وبر الجمل ومن ألياف خشنة تنمو بين براعم النخيل العليا[137]. أما غذاؤهم فلا يستطيع من لم يرهم أن يتصور مدى صبرهم على تحمل الجوع . فليس من عادتهم أكل الخبز أو أية وجبة مجهزة ، إذ يتغذون بحليب نوقهم . والعادة أن يشربوا صباحا صحفة كبيرة من الحليب الحار بمجرد خروجه من الضرع . أما في المساء فيتألف عشاؤهم من لحم مقدد مغلي في الحليب مع السمن . وعندما ينضج اللحم يتناول كل واحد نصيبه باليد . وبعد أن يأكل قطعة يشرب المرق مستخدما يده ملعقة . وبعد ذلك يرشف صحفة من الحليب وتنتهي الوجبة . وعندما يكون الحليب متوافراً لديهم لا يهتمون مطلقا بالماء ، ولا سيما في الربيع ، وهي الفترة التي لا يغسل فيها بعضهم يده ولا وجهه بالماء . وذلك لأنهم في هذا الفصل لا يقصدون مناطق تتوافر فيها المياه ، وهم ينزلون في هذه المناطق لتوافر الحليب عندهم من جهة ، ولأن الإبل من جهة أخرى لا تحتاج في هذا الفصل إلى الماء لأنها

---

(١٣٤) الرَّحْلة .

(١٣٥) لم تعد هذه الطريقة دارجة في الصحراء الكبرى ـ هـ . ل . H. LHOTE

(١٣٦) الذراع الروماني يساوي ٦٧ سم . وهذا المهماز اليدوي ـ ويدعى سكرد في لهجة تاماهاك ـ يستخدم عادة لدى العرب وأقل من ذلك بكثير عند الطوارق الشماليين ـ هـ . ل . H. LHOTE

(١٣٧) ربما كانت هذه الخيام الموصوفة هي خيام البدو التي استطاع الحسن أن يراها في الجنوب المراكشي . أما خيام بدو الصحراء الغربية فتصنع من صوف الغنم والماعز ولا تحوي ألياف النخيل . ويستعمل الطوارق خياما من جلد باستثناء قبيلة كلوي وبعض جماعات كلكرس في مرتفعات آير في أواسط الصحراء الكبرى ، كما أشار إلى ذلك الحسن عند كلامه عن هذه البلاد ، وخيامهم مصنوعة من الحصر ـ هـ . ل H. L.

تأكل حينئذ العشب الأخضر[١٣٨]

وتجري حياة هؤلاء البدو في الصيد أو في سرقة إبل أعدائهم . ولا يتوقفون في أي مكان أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام ، أي في أثناء الوقت الكافي لكي ترعى إبلهم العشب الذي تجده هناك .

ومع أننا ذكرنا أن هؤلاء لا يخضعون لنظام ولا قانون ، فإن لكل من هذه الأقوام أميرها ، وهو ملك يدينون له بالطاعة المطلقة ويؤدون له واجب الاحترام[١٣٩] .

وهؤلاء أناس جهلة تماما لا يعرفون شيئا ، فهم لا يجهلون الآداب فحسب ، بل يجهلون كذلك الفنون وسائر المعارف الأخرى . ومن الصعوبة بمكان أن يعثر الإنسان في العشيرة كلها على حاكم يكون مؤهلا للفصل في نزاع ، حتى إن أحدهم لو تورط في دعوى أو كان ضحية أذى ما فإنه يكون مضطرا أن يمضي ستة أيام على الطريق فوق جمله كي يصل إلى خيمة القاضي . ويتأتى هذا الجهل عن أن هؤلاء الرجال لا يخصصون أي وقت للدراسات ولا يحبون الخروج من صحاريهم كي يتثقفوا . ولا يأتي القضاة إلا مكرهين عند هؤلاء الأوشاب ، وهم لا يستطيعون تحمل عاداتهم ونمط حياتهم . أما أولئك الذين يأتون إليهم راغبين فيتقاضون أجرا عاليا جدا ، إذ ينال كل واحد منهم ألفي دينار[١٤٠] في العام أو أكثر أو أقل حسب تفاوت كفاءته .

ويلبس أشراف هؤلاء الرعاع فوق رؤوسهم ، كما قلت ، لثاما أسود يغطون وجوههم كلها بقسم منه حتى لا تظهر من خلاله سوى عيونهم ، ويحافظون على هذا الوضع حتى عندما يريدون تناول طعامهم . ففي كل مرة يتناولون فيها لقمة يكشفون عن فمهم ثم يسترونه في الحال . ويقدمون لتبرير هذه العادة الزعم التالي : كما أن من العيب بالنسبة للرجل أن يرى وهو يطرد غذاءه بعد هضمه ، وكذلك من المعيب أن يرى

---

(١٣٨) هذا صحيح تماما ، ويلاحظ في الشتاء عندما ترعى الإبل أعشابا غضة جدا تنمو في هذا الفصل كالجرجير واسمه اللاتيني :

Schouwia purpurea esp. Schimper (H. L.)

(١٣٩) ويدعى آمينوكال عند الطوارق .

(١٤٠) أودوكا ، وإذا كان المؤلف يمثل الدوكا الإيطالي بالدنيار أو المثقال العربي ، فإن الدوكا الذهبي ، أوزكشيتو على الأصح والذي سكه البابا كليمنت الرابع في العصر الذي كتب فيه الحسن كتابه يعادل ٣,٥ غرامات من الذهب (أي أن الدوكا الذهبي كان يعادل إذن حوالي ٧٥ ريالا سعوديا ، أو أقل من مائة ليرة سورية بقليل) . (المترجم)

وهو يدخل الغذاء إلى جوفه[١٤١] .

وتتميز نساؤهم ببدانة شديدة وبالسمنة ، ولكنهن غير بيضاوات كثيرا . ولهن كفل ناهد وسمين والثديان كذلك ، ولكن قوامهن دقيق للغاية[١٤٢] وهن سيدات لطيفات جدا . وعند الحديث يمددن إليك أيديهن عن طيب خاطر . ويندفعن في الملاطفة أحيانا حتى السماح بتقبيلهن ، ولكن سيكون من الخطورة بمكان التمادي أكثر من ذلك ، لأن الرجال يقتتلون بلا رحمة مدفوعين بأسباب من هذا القبيل . وحول هذا الموضوع يظهرون أكثر تعقلا من بعض الناس منا . وهم يعزفون كل العزوف عن أن تظهر لهم قرون[١٤٣] . وهو شعب مضياف جدا . ولا يستطيع إنسان أن يمر في مخيماتهم بسبب جفاف بقاعهم ، ولأنهم يتحاشون الطرق الرئيسية . ولكن القوافل التي تخترق صحاريهم مضطرة لدفع رسوم لأمرائهم ، وهي عبارة عن قطعة قماش ، تبلغ قيمتها دينارا واحد عن كل حمل جمل[١٤٤] .

وقد مررت من هناك قبل بضعة أعوام ضمن قافلة مع مسافرين آخرين[١٤٥] ، وعندما بلغنا سهل أروان ، قدم أمير زناقه لملاقاتنا مصحوبا بخمسمائة رجل ، وكلهم على

---

(١٤١) لقد سردت أساطير عديدة حول قضية اللثام الذي يدعى بالبربرية تاغلموست . وكلها تكون أيضا اعتباطية وغير مقنعة . وسيكون من نافلة القول سردها جميعا . والطوارق أنفسهم يجهلون أصله ، ويظهر أنه لدفع أمر محرم حقيقي ألا وهو الفم أمام المرأة والأشخام المحترمين ، ولا يعرف العصر الذي شاع فيه استعماله ، ولا يشير المؤرخون القدامى إلى ذلك باستثناء كوريبوس الذي يقول ، في معرض كلامه عن الجتول ، إن لهم لثاما لستر وجوههم الشنيعة . وعلى خلاف ذلك فإن أوائل الرحالة العرب الذين توغلوا إلى غرب الصحراء الكبرى مثل ابن حوقل والبكري الخ يشيرون إلى ذلك . وعندما يبلغ الولد سن البلوغ يبدأ وضع اللثام ويكون ذلك مناسبة لاحتفال عائلي صغير . فحتى ذلك الحين كان يعتبر طفلا ، ولكن لبس اللثام يدخله في عداد الأشخاص الكبار ويمنحه كل المزايا المترتبة على ذلك . وابتداء من ذلك الحين يستطيع أن يشترك في حملات الغزو وأن يتردد على النساء. وهناك مراجع عديدة بالفرنسية يمكن الرجوع إليها حول هذا الموضوع مذكورة بالنسخة الفرنسية .

(١٤٢) من المعروف أن النساء الموريتانيات والطوارق ، وبشكل خاص بين القبائل الأرستقراطية يلجأون عمداً للسمنة ، لأن البدانة تعتبر شيئا مرغوبا جدا بالنسبة للمرأة . ولتحقيق هذا الهدف يخضعن منذ الصغر إلى تغذية مفرطة ولا سيما من الحليب والدقيق ـ هـ . ل HL

(١٤٣) تعبير لا يزال دارجا في بعض البلاد الأوربية والعربية ، ويقصد به الرجل الديوث . وهذا طابع مميز للأخلاق لدى الطوارق . ومن عاداتهم أن الرجال يستطيعون زيارة النساء بكل حرية ، حتى المتزوجات ، وأن يقوموا بنوع من مغازلة خفيفة ، ولكن لا يجوز مطلقا أن يصل الأمر إلى اتصال جنسي ، خشية وقوع عقوبات قاسية صارمة ، قد تصل إلى الإعدام ، لا سيا بالنسبة للذين يضبطون متلبسين بهذا الجرم . هـ . ل H. L

(١٤٤) هذه القطعة من القماش التي تبلغ قيمتها دينارا واحد تقريبا في مختلف العملات الأوربية ، والتي كانت تستخدم كعملة في الصحراء الكبرى ، كانت تدعى بوردا بالفرنسية .

(١٤٥) وربما كان ذلك في أثناء رحلته الثانية التي قام بها المؤلف إلى تومبوكتو في عام ١٥١٢ م أو ٩١٨ هـ .

متن الهجن ، وبعد أن استلم منا العوائد دعا كل القافلة لمرافقته حتى خيامه والبقاء فيها مدة ثلاثة أيام كي تستريح . ولما كان مخيمه على مسافة ثمانين ميلا[146] خارج طريقنا ، ولما كانت جمالنا مثقلة بالأحمال ، لم يرغب التجار في قبول دعوته كيلا يطيلوا الطريق ، ولكن نظرا لإصرار الأمير على استضافتنا فقد تقرر أن يتابع الجمالة سفرهم مع حيواناتهم وأن يذهب التجار معه . وما إن بلغنا المخيم حتى أمر هذا الرجل الكريم بنحر بضعة جمال ، بين كبير وصغير ، ونفس العدد من الخراف وبعض طير النعام التي اقتنصها في أثناء الطريق . وذكر التجار للأمير بأنه لا داعي لذبح جمال ، إذ ليس من عادتهم أن يأكلوا غير لحم الخراف . فأجابهم بأن عادتهم لا ترى من المناسب الاكتفاء بذبح صغار الماشية في وليمة ، ولا سيما بالنسبة لنا باعتبارنا غرباء ، فضلا عن أننا نزلنا في مخيمه . وهكذا أكلنا ما قدم لنا . ولكن الطعام الرئيسي في هذه الوليمة كان يتألف من لحوم مشوية ومسلوقة . وكان اللحم المقدم على المائدة يتألف من شرائح متبلة بالأعشاب وبكمية طيبة من توابل بلاد السودان . وكان الخبز مصنوعا من دقيق غاية في النعومة من الذرة البيضاء والدخن . وفي نهاية الطعام قدمت لنا التمور بكثرة مع آنية كبيرة مليئة بالحليب . ورغب الأمير كثيرا في أن يشرف الوليمة بحضوره مع طائفة من سراة القوم من حاشيته وبعض أقاربه ، ولكنهم أكلوا على حدة . واستقدم بعض الفقهاء والأدباء الذين كانوا هناك وأجلسهم بجواره . ولم يمس أي نوميدي الخبز في أثناء الطعام ، إذ لم يتناولوا سوى اللحم والحليب .

وعندما لاحظ الأمير علينا الدهشة والاستغراب الشديد ، راح يشرح لنا ذلك بكل ملاطفة قائلا : « إنه ولد في هذه الصحاري حيث لا ينبت أي نوع من الحبوب ، وأن الناس كانوا يتغذون بما تنتجه أرضهم . وقال لنا إنه يمتار كل سنة كمية من الحبوب كي يكرم الغرباء الذين يمرون ببلاده . غير أنه من الصحيح القول إن من عادتهم أكل الخبز في أيام بعض الأعياد الكبرى كعيد الفطر وعيد الأضحى[147] .

وبعد أن أمسك بنا الأمير لمدة يومين في مخيمه وأحاطنا دوما بالكثير من الرعاية وعاملنا بإكرام وحفاوة ، سمح لنا بالذهاب في اليوم الثالث . وأراد أن يرافقنا شخصيا حتى القافلة . وسأقول لكم إن الحقيقة هي أن ثمن الحيوانات التي نحرها لإطعامنا كان

---

(١٤٦) أو ١٢٨ كم .

(١٤٧) ويدعي عيد تاباسكي في عدة بلاد سودانية أي جنوب الصحراء الكبرى .

يساوي عشرة أضعاف ما دفعناه له رسم مرور . وقد كان هذا الأمير نبيلا وبشوشا في تصرفه وفي حديثه . ونظرا لعدم فهمه لساننا ، وعدم فهمنا لغته ، فقد كان من اللازم أن يكون بيننا ترجمان . وهذا النمط من المعيشة والعادات ا لتي وصفناها لدى هؤ لاء القوم مطابق لما تسير عليه القبائل الأربع الأخرى المبعثرة في صحاري نوميديا .

نمط حياة العرب الذين يسكنون إفريقيا وعاداتهم

للعرب عادات مختلفة وأنماط حياة متباينة بقدر اختلاف المناطق التي يسكنونها .

فالعرب الذين يعيشون في نوميديا وفي ليبيا يحيون حياة بائسة وهم في فقر شديد . ولا يختلفون في ذلك عن السكان الأفارقة الذين سبق لنا الكلام عليهم . ولكن يمتازون عنهم بشجاعة كبيرة . ويمارسون تجارة الابل في بلاد السودان ولديهم أعداد كبيرة من الخيول ، تلك الخيول التي نسميها في أوربا الخيل العربية . ويذهب هؤ لاء العرب باستمرار لصيد الوعل(١٤٨) ، والحمار الوحشي ،والنعام واللمت (١٤٩) ، والمها(١٥٠) والحيوانات الأخرى .

هذا ويجدر أن نشير إلى أن لدى القسم الأعظم من العرب في نوميديا شعراء عديدون ينظمون قصائد طويلة يتكلمون فيها عن حروبهم وعن قنصهم وعن أمور الحب وذلك مع أناقة وعذوبة كبيرتين وتكون الأبيات مقفاة كأبيات الشعر العامي في إيطاليا . وهؤ لاء الناس كرماء ولكن ليس لديهم أي مورد لدعم شهرتهم وممارسة الكرم ، لأنهم يفتقرون إلى كل شئ في هذه الصحارى . ولباسهم مثل النوميديين . ونساؤ هم وحدهن هن اللواتي يتميزن ببعض الاختلافات في اللباس عن النساء النوميديات ، أي البربريات .

وكانت الصحاري التي يسكنها هؤ لاء العرب ، في الماضي ، بأيدي أقوام إفريقية ، ولكن حينما نفذت القبائل العربية إلى إفريقيا ، طردت منها النوميديين بقوة السلاح .

---

(١٤٨) لم يكن ثمة وعول في إفريقيا ، ويقصد المؤلف بذلك بعض الغزلان الضخمة المسماة ودّان في ليبيا أو غزال داما ـ وفي المناطق الأخرى يكون هذا الحيوان هو التيس الوحشي .

(١٤٩) وهو غزال ضخم يدعى أوريكس في اللغة الفرنسية oryx

(١٥٠) أو الغزال الأبيض ويسمى أيضا بقر الوحش .

فاقاموا في الصحاري المجاورة لواحات النخيل، في حين سكن النوميديون الصحاري المجاورة لبلاد السودان .(١٥١)

أما العرب الذين يسكنون أفريقيا بين جبال الأطلس والبحر المتوسط(١٥٢)فهم أفضل حالا وأكثر غنى من العرب السابقين وخاصة فيا يتعلق بكسائهم ، وبتجهيز خيولهم ، وبرونق خيامهم واتساعها . ولديهم أيضا خيول أكثر جمالا بكثير من خيول سكان الصحراء ، ولكن ليس لها نفس السرعة في العدو . ويحرث هؤلاء العرب أراضيهم ويستمدون منها الكثير من الحب ، ولديهم عدد لا يحصى من الأغنام والأبقار . وهذا هو السبب الذي يجعلهم يعجزون عن الاستقرار في بقعة واحدة ، إذ ليس هناك ما يكفي من الأرض لرعي مثل هذا العدد من الماشية ، غير أنهم مع هذا كرماء . ويخضع بعضهم ، أي أولئك الذين يسكنون مملكة فاس ، للملك ويدفعون له الضريبة . وظل عرب بوادي مراكش وعرب دكّالة بعض الوقت معفين من أي تكليف ، إلى أن احتل البرتغاليون اسفي وآزمور (١٥٣) . وعندئذ انقسموا إلى أحزاب ووقعت فتن داخلية ، قام على أثرها ملك فاس (١٥٤) بإفناء أحد الأحزاب في حين قام ملك البرتغال (١٥٥) بتدمير الفريق الآخر .

وفضلا عن ذلك فإن المجاعة التي سادت في السنوات الأخيرة في أفريقيا قد أرهقتهم كل الارهاق حتى أصبح هؤلاء الفقراء يهاجرون بمحض إرادتهم إلى البرتغال ويبيعون أنفسهم بيع الرقيق لمن يقدّم لهم الطعام . وهكذا لم يبق أي واحد منهم في دكّالة(١٥٦) .

---

(١٥١) إن تقهقر هؤلاء الصحراويين الملثمين ببطء هو واقع تاريخي : إذ يظن أن بعض القبائل كانت تستوطن شمالي الصحراء الكبرى في القرنين الثاني والثالث الميلادي ، ولكنها تزحزحت عن موطنها بضغط من زناتة البدوية ، وبعد الزحف الهلالي تقهقروا مرة أخرى بسبب التقدم العربي . غير أن هذا التراجع كان مختلفا باختلاف المناطق ، وكان واضحا في الصحراء الكبرى الغربية أكثر من الصحراء الكبرى الوسطى . ويبدو اليوم وذلك على ضوء الرسوم التي عثر عليها في الكهوف ، أن الناطقين بالبربرية بلغوا مالي وضفاف نهر النيجر قبل بضعة قرون من الميلاد .أما نفوذهم إلى غرب الصحراء الكبرى فقد كان متأخرا عن ذلك نسبيا .

(١٥٢) أي كل بلاد البربر أو بربار يا بالفرنسية .

(١٥٣) لقد كان احتلال آسفي التي كانت تحت الحماية البرتغالية منذ السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر احتلالا حقيقيا في عام ١٥٠٨ م ، ووقع احتلال أزمور بتاريخ سبتمبر ١٥١٨ م .

(١٥٤) هو أبو عبدالله محمد البرتغالي .

(١٥٥) الملك عمانويل الأول .

(١٥٦) أثبتت وثائق المحفوظات البرتغالية أن الوضع الاقتصادي لم يكن كارثيا إلى هذا الحد في هذا الاقليم ، وكانت الهجرة محدودة بالتأكيد لأن القبائل العربية في ذلك العصر كانت كلها تقريبا في نفس مواقعها في أيامنا الحالية .

ولكن العرب الذين يشغلون الصحاري المجاورة لمملكتي تلمسان وتونس يعيشون جميعا حسب أسلوب شيوخهم . ويتلقى كل أمير من أمرائهم معونات هامة من الملك ويوزعها في عشيرته لتحاشى الشقاقات وللحفاظ على السلام وعلى الوحدة . ويحب هؤلاء العرب أن يظهروا بثياب جيدة وبأن تكون خيولهم جيدة التسريج . وخيامهم كبيرة وجميلة . ومن عادتهم أن يقصدوا تونس في كل صيف كي يمتاروا منها . وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) وبعد أن يكونوا قد حصلوا على كل ما هم بحاجة إليه من أقوات وأقمشة وسلاح يعودون أدراجهم إلى الصحراء حيث يمضون الشتاء . وبعدئذ أي في الربيع يتلهون بالصيد بواسطة كلاب وصقور ، ويطاردون في صيدهم كل نوع من الحيوانات أو الطيور البرية . وقد أقمت عندهم عدة مرات وحصلت منهم على الكثير من الأقمشة واوعية من النحاس ومن النحاس الأصفر (١٥٧) . ولكن لا ينبغي الاطمئنان إلى هؤلاء الناس ، لأنهم قد يسلبونك ويقتلونك مطمئنة نفوسهم إلى سلبك وقتلك على الرغم من المبالغة في مجاملتهم لك .

وهم يحبون القريض ويرددون في عربيتهم الدارجة ابياتاً انيقة جداً على الرغم من ان لهجتهم قد حرفت عن اصولها . ويحترم الامراء أي شاعر له بعض الشهرة ويمنحونه جوائز جزيلة . ولست قادراً على التعبير عن النقاوة والجمال اللذين يسكبونهما في ابياتهم . وتكتسي نساء هؤلاء الاعراب كساء جميلاً للغاية حسب طراز البلاد . وتتألف ثيابهن من قميص اسود عريض الكمّين يضعن فوقه خماراً من نفس اللون او من لون ازرق . ويتغطين بهذا الخمار ويلففن به اجسادهن بصورة تصل معها حافته الى الكتفين من امام ومن خلف ، وهنا يكون مثبتاً بدبابيس فضية مصنوعة بشكل فني رفيع . ويضعن في آذانهن اقراطاً من فضة على شكل حلقات وخواتم في اصابعهن . ويضعن كذلك في سيقانهن خلاخيل طبقاً لعادة الافارقة . ويضعن على وجوههن نقاباً هو عبارة عن قطعة قماش صغيرة مثقوبة تجاه العينين . وعندما يظهر امامهن رجل غريب لا يمت لهن بصلة قرابة ، فانهن يسرعن في اخفاء وجوههن بهذا الحجاب ويصمتن . ولكن يرفعن هذا الحجاب عندما يكن مع ازوجهن واقاربهن .

ولما كان العرب ينتجعون من مكان لآخر ، فهم يعمدون الى إركاب نسائهم فوق

---

(١٥٧) يمكن الافتراض أن المؤلف يقدم لنا لوحة صغيرة عما لاحظه عند عرب عشرة حِكم ، أو الحكم ، أو الحاكم الذين كانوا يقيمون بين سوسه والجم والتي اعتبرها في عداد القبائل التي قدمت مع الزحف الهلالي .

نوع من سرُوج مصنوعة على شكل قفة مغطاة بزرابي بديعة جدا (١٥٨) ، وهذه القفاف صغيرة جدا حتى إنها لا تتسع لأكثر من امرأة واحدة . وعندما ينفرون لحروبهم ينطلقون إليها بصحبة نسائهم كي يستمدوا من وجودهن الشجاعة وحتى يذهب عنهن أكبر قدر من الخوف (١٥٩) .

ومن عاداتهن أن تخضب المرأة وجهها وصدرها وذراعها ويديها حتى نهاية الأصابع ، وذلك قبل الذهاب لرؤ ية زوجها ، لأن في ذلك تعبيرا عن الذوق الرفيع للغاية . وقد انتقلت هذه العادة إلى عرب إفريقيا بعد أن جاءوا ليستوطنوا فيها ولم تكن معروفة لديهم قبل ذلك . ولكن هذه العادة غير مألوفة عند سكان المدن ولا عند وجهاء البربر إذ تحتفظ نساؤ هم ببياض وجوههن الطبيعي . ولكن من الصحيح القول أيضا بأن نساءهم تستعملن خضاباً مركبا من سخام الدخان لجوز العفص او الزعفران يضعن منه فوق وسط الخد ، ويرسمن به زينة مدورة كالدرهم كما يرسمن به مثلثا فوق الحاجب . أما على الذقن فيرسمن شكلا يماثل ورقة الزيتون . وتعمد بعضهن إلى صبغ الحواجب تماما (١٦٠) . ويمدح الشعراء العرب والوجهاء هذا الزي كما تعتبره النسوة نوعا من الأناقة والظرف . ولكنهن لا يحتفظن بهذا الخضاب لأكثر من يومين أو ثلاثة لأنهن لا يستطعن مقابلة الأبوين ما دام على وجوههن . ولكن للزوج وللأبناء الحق في رؤ ية المرأة في هذه الحالة ، لأنهن يصنعن هذا كي يصبحن أكثر إثارة ، ويتصورون أن هذا الزي يؤ دي لزيادة جمالهن بشكل فريد .

العرب الذين يسكنون الصحارى الواقعة بين بلاد البربر ومصر

تبدو حياة هؤ لاء العرب بائسة تماما لأن الأصقاع التي يسكنونها عقيمة وكالحة .

---

(١٥٨) وهو الهودج .

(١٥٩) تدعى هذه القفة باصور وهي لا تزال دارجة الاستعمال ومتنوعة الشكل والأبعاد باختلاف القبائل ، ولمعظمها مقعدان ، وتعنى كلمة باصور عند قبائل المغرب ما يفيد الرصد من بعيد ، أو مرصد . وفي أيام الاحتفالات الحالية التي تجري في جنوب الجزائر، والتي فيها تمثيل للمعارك الحربية بين الاعراب، يحارب الرجال بعضهم بعضا وهم فوق خيولهم ، في حين تظل النساء معتكفات ضمن البواصير فوق جمال مزدانة بأبهة ، وهن يشهدن الهجمات الحماسية التي يقوم بها المحاربون ويطلقن زغاريد حادة .

(١٦٠) « وهي عادة كانت مألوفة حتى حوالي ثلاثين عاما لدى نساء بلاد الشام ، وهذا الخضاب المصنوع من دخان العفص كان يسمى الخطاط . . » (المترجم)

ولديهم أغنام وإبل ولكنها لا تنتج سوى القليل بسبب ضآلة كمية المرعى . ورغم امتداد مجال تجوالهم فليس فيه أية أرض صالحة للزراعة . ومع ذلك نجد في هذه الصحارى بعض القرى الصغيرة التي تشابه المداشر(١٦١) حيث تقوم بعض حدائق النخيل الضئيلة جدا ، وهنا يزرع قليل من القمح بل إن ما يزرع منه ليس شيئا مذكورا ، ومن أجل ذلك يكون سكان هذه المداشر مرهقين بالهموم والمشاكل الناجمة عن هيمنة العرب عليهم . وكثيرا ما يأتي هؤلاء لمقايضة إبلهم وأغنامهم بالقمح ، غير أن كمية القمح ضئيلة جدا بحيث لا تكفي لعدد ضخم كهؤلاء . وينجم عن ذلك ان نجد في أغلب الأوقات ، كثيراً من أبناء هؤلاء العرب عند الصقليين(١٦٢) وقد تركوهم ضمانة ورهائن مقابل القمح الذي اقترضه هؤلاء الفقراء . وإذا عجزوا عن تسديد المبلغ المطلوب في نهاية المدة المحددة في السوق ، يحتفظ الدائنون بالأولاد عبيداً لهم . وإذا رغب آباؤهم بافتدائهم فعليهم ان يدفعوا ثلاثة أمثال مبلغ الدين ، ولهذا يضطرون غالباً الى التنازل عنهم ، ويؤدي هذا الى أن هؤلاء العرب قد أصبحوا من أكثر القتلة في العالم شراسة . وكل غريب يقع في أيديهم يتعرض أولاً لتجريده من كل ما يمكن ان يكون عليه ثم يباع الى الصقليين . ولم تعد أية قافلة تجرؤ على المرور من الساحل الذي يحاذي الصحراء التي يعيش فيها هؤلاء منذ مائة عام . وعندما يكون على قافلة ان تجتاز البلاد فعليها ان تمر من الداخل على مسافة ٥٠٠ ميل تقريبا من البحر (١٦٣)

وللتخلص من مخاطر هذا اللقاء ، فقد واكبت كل ذلك الساحل عن طريق البحر مع ثلاثة مراكب تجارية .(١٦٤) وعندما رآنا العرب تراكضوا نحو المرسي بدعوى انهم يرغبون عقد صفقات معنا يمكن ان تكون مفيدة لنا ولكن سوء ظننا بهم لم يشجع أي إنسان منا على النزول الى البر قبل ان يضعوا بعض أبنائهم بين أيدينا ضمانا . وبعد حصولنا على ذلك اشترينا كمية صغيرة من خرافهم ومن سمنهم وأقلعنا بسرعة ، خشية ان يدركنا قراصنة صقلية او جزيرة رودس .

---

(١٦١) جمع مدشر وهو عبارة عن تجمع يضم بضعة بيوت للفلاحين لا تتجاوز العشرة . وليس فيها مسجد أو سوق . وهي كلمة مغربية استخدمها مؤرخو المغرب ومنهم ابن خلدون

(١٦٢) أي نصارى صقلية .

(١٦٣) أي من الطريق الذي يمتد من خليج سيرت الكبير الى مصر عن طريق واحات أوجلة وجغبوب وسيوه ، على مسافة ٤٠٠ كم من الساحل . وإلا فعن طريق التشاد ودارفور .

(١٦٤) ربما كانت هذه هي آخر مرة عاد فيها المؤلف من مصر .

الشاويـة أي أربـاب الشـاة
سكان إفريقيا الذين يعيشون على النمط العربي

هناك بضع عشائر إفريقية تهتم بتربية الأغنام والبقر وهم لا يقومون بأي عمل آخر بقية اليوم . ويسكن معظم هؤلاء عند حضيض جبال الاطلس وفي الجبال نفسها . ويكون هؤلاء دوما ، وأينما كانوا ، في طاعة الملك أو العرب . واستثنى منهم أولئك الذين يعيشون في تامسنة الذين هم أحرار وأقوياء جدا ،(١٦٥) ويتكلم هؤلاء اللغة الافريقية ،(١٦٦) ويتكلم بعضهم العربية بسبب جوار العرب وعلاقاتهم بهم : تلك هي حالة الذين يسكنون أرياف لوربس(١٦٧) في جوار مدينة تونس . وتوجد مجموعة أخرى منهم تشغل منطقة تخوم تونس مع بلاد التمور (١٦٨) وبلغت الجرأة بهؤلاء أن يتصدوا لمحاربة ملك تونس ، كما حدث منذ عدة أعوام . ففي هذه الفترة ذهب ابن ملك تونس من قسنطينة لتحصيل الضريبة منهم في مضاربهم(١٦٩) فتعرض للهجوم من أميرهم(١٧٠) الذي اعترض ابن الملك مع ألفي فارس . وقد انكسرت قوات ابن الملك ، وقتل ونهبت القافلة . وقد حدث هذا في العام ٩١٥ للهجرة .(١٧١) وعلى أثر اندحار الجيش الملكي أخذ اسم هذه العشيرة في الصعود واكتسبت شهرة كبيرة بين الجميع . واختفى كثير من العرب الذين كانوا في خدمة الملك التونسي إذانسحبوا من المناطق الخاضعة للملك وجاءوا ليسكنوا الى جانب المنتصرين ، حتى لقد أصبح هذا الأمير (١٧٢) اشهر زعماء إفريقيا .

ديانات قدامى الأفارقة

كان الأفارقة في قديم الزمان مجوسا على غرار الفرس الذين يعبدون الشمس

---

(١٦٥) وجاء من اسم الشاوية ، أي رعاة الشاة ، أو الشوايا في سورية ، اسم إقليم الشاوية في المملكة المغربية والذي كان يدعى في الماضي تامسنه . أي السهل الواقع شمال نهر أم الربيع والى الجنوب الشرقي من مدينة الدار البيضاء (المترجم) .

(١٦٦) أي البربرية .

(١٦٧) وربما كانت مدينة قربص .

(١٦٨) شاوية الأوراس وجنوب شرق ولاية قسنطينة .

(١٦٩) كان حاكم قسنطينة الناصر ابن سلطان تونس أبو عبد الله محمد .

(١٧٠) النصر .

(١٧١) أ بين ٢١/ ٤/ ١٥٠٩ و٨/ ٤/ ١٥١٠ م

(١٧٢) أي النصر نفسه .

والنار . وكان لديهم معابد مزدانة تكريما لهذه وتلك . وكانوا يوقدون في هذه المعابد على الدوام نارا تحرس ليلا ونهارا كيلا تخمد كما كانت العادة لدى الرومان الذين يصنعون نفس الشيء في هيكل الآلهة فستا[173] وكذلك يبدو من المؤكد ان أفارقة نوميديا وليبيا كانوا يعبدون الكواكب السيارة ، وكانوا يقدمون لها القرابين . وكان بعض الأفارقة السود يعبدون جويجيمو ، ويعني في لسانهم رب السماء[174] . ولقد سادت لديهم هذه الاتجاهات الدينية بدون أن يأخذوها عن نبي وعن عالم . وبعد مضى بعض الوقت اعتنقوا الديانة اليهودية ، التي ظلوا متمسكين بها سنين عديدة إلى أن أصبحت بعض الممالك نصرانية .[175] وظلوا أوفياء للإيمان المسيحي الى أن حدث تمرد من أتباع نحلة اسلامية عام ٢٦٨ للهجرة وحينئذ قدم بعض أتباع الشريعة المحمدية ونشروا الدعوة في هذه المناطق واستطاعوا بالحكمة والموعظة الحسنة كسب قلوب هؤلاء الأفارقة لدينهم ، الى أن أصبحت الممالك الزنجية المتاخمة إلى ليبيامسلمة[176] .غير اننا لا نزال نجد بضع ممالك ظل السود فيها ولا يزالون نصارى[177] ، واليهود وحدهم الذين تم القضاء عليهم على أيدي النصارى والأفارقة[178] ، أما بقية الزنوج الذين يسكنون على حافة المحيط فلا يزالون وثنيين يعبدون الاصنام وقد رآهم العديدون من البرتغاليين ، وكان لهم مع هؤلاء بعض العلاقات التجارية .

وقد ظل سكان بلاد البربر وثنيين لمدة طويلة ، وأصبحوا نصارى قبل مائتين

---

(١٧٣) وكلامه هنا موضع شك كبير لأن الحسن (يقصد المؤلف) يطبق على أفريقيا الشمالية ما كان يعرفهُ عن ديانة الفرس .

(١٧٤) من المحتمل ان يكون هذا الاسم « ويغيا » ، وهو اسم مجهول لنا .

(١٧٥) لقد كانت بعض جماعات البربر متهودة ، ولكن تنصر البلاد كان سطحيا فيا يظهر فيا عدا العنصر المتأثر بالرومان ، ولم يكتب للجماعات النصرانية في افريقيا الشمالية أن تعيش طويلا بعد دخول أهل هذه البلاد في الإسلام .

(١٧٦) يطابق التاريخ المذكور أي ٢٦٨ هـ الفترة الواقعة بين ١/ ٨/ ٨٨١ م و٢٠/ ٧/ ٨٨٢ م . وفي هذه الفترة كانت دعوة الشيعة ، من أنصار الخليفة علي وأحفاده، ومن خصوم أهل السنة، دعوة نشيطة جدا . وكان أحد فروع هذا المذهب ، وهو المذهب الفاطمي ، وقد ابتعث الى كل أرجاء العالم الاسلامي ، دعاة فقهاء ، وقد تمكن الداعي ابو عبد الله أن يكسب لجانبه قبيلة كتامة التي كانت تسكن بجوار مدينة ستيف فدخلت في هذا المذهب ، وفتح افريقية وهيأ لظهور الخلافة الفاطمية في القيروان ، وبذلك أصبح شهيرا . ويظهر ان المؤلف قد نسب لهؤلاء الدعاة دخول الأقوام السود في الإسلام والواقع أن اعتناق هؤلاء الدين الحنيف كان على أيدي تجار قادمين من الشمال ، في المرحلة التي أخذت التجارة تنهض في أثنائها ببطء في بلادهم .

(١٧٧) وفي ذلك اشارة الى النوبة حيث ظلت مملكة علوة النصرانية قائمة حتى عام ١٥٠٤ م والى الحبشة التي كانت دائما نصرانية .

(١٧٨) أي مسلمو المغرب ولكن هذا لم يمنع من أن تظل في المغرب أعداد كبيرة منهم .

وخمسين عاما من ولادة الرسول[١٧٩] وذلك لأن المنطقة التي تقع فيها تونس وطرابلس كانت واقعة تحت هيمنة أمراء بوليا وصقلية ، في حين كان ساحل قيصرية وموريتانيا تحت سيطرة القوط[١٨٠] ، وفي ذلك العصر أيضا هرب الكثير من الأمراء النصارى من جبروت القوط ، وهجروا مناطقهم الوادعة وجاءوا ليسكنوا ضواحي قرطاج حيث اتخذوا على أثر ذلك ملكيات لانفسهم . ولكن يجب ان نعرف ان هؤلاء النصارى اعتنقوا مذهب الأريوسيين الذين كان ينتسب اليهم القديس أوغسطين[١٨١] . وعندما جاء العرب لفتح بلاد البربر ، وجدوا النصارى قد أصبحوا سادة وأمراء هذه المناطق . كما كان ينشب بينهم الكثير من الحروب ، ولكن أراد الله أن يمنح النصر للعرب . وهكذا هرب بعض الآريوسيين الى ايطاليا وبعضهم الى اسبانيا .[١٨٢]

وبعد مائتي عام من وفاة محمد[١٨٣] كانت بلاد البربر قد أصبحت جميعا تدين بالإسلام.صحيح ان أهل هذه البلاد قد ثاروا عدة مرات وتنكروا لدين محمدﷺ وقتلو رجال دينهم وحكامهم[١٨٤] . ولكن الخلفاء كانوا يرسلون جيوشا ضد البربر في كل مرة تبلغ فيها مسامعهم انباء هذه الانتفاضات ، واستمر هذا الامر حتى وصول الشيعة الذين هربوا من الخلفاء . وعندئذ فقط تمكنت الديانة الاسلامية من ترسيخ جذورها نهائيا في

(١٧٩) من المسلم به على العموم أن الرسول ولد بتاريخ ٢٠ نيسان (إبريل) ٥٧١ حسب التاريخ المسيحي . وقد ظهرت كنيسة المغرب النصرانية في عصر شهداء سيللي ومادور سنة ١٨٠ م . وفي سنة ١٩٧ م استطاع أغربينوس ، مطران قرطاج ان يدعو لمجمع ضم سبعين مطرانا من نوميديا ومن ولاية الشمال التونسي الرومانية .

(١٨٠) هذه المعطيات التاريخية غير صحيحة ، ولا يزال تاريخ تنصر البربر غامضاً جدا ، ومن المفروض أن الدعوة للنصرانية كانت تجري في الكنائس بين الجماعات اليهودية التي كانت كبيرة العدد جدا حينذاك . ويقصد الحسن بالقوط الفندال .

(١٨١) وهنا ارتكب المؤلف خطأ تاريخيا شنيعا ، ويرجع ذلك الى أنه كان حديث عهد باعتناق النصرانية ، وذلك ان القديس أوغسطين الفظ - على عكس ما زعمه المؤلف - كان من ألد خصوم المذهب الأريوسي .

(١٨٢) والآريوسيون هم من أتباع آريوس الذي أنكر ألوهية المسيح ، وقد ظهر المذهب بين عام ٣١٣ و ٣٢٣م على يد آريوس وهو كاهن كان ملحقاً بكنيسة الاسكندرية وعاضده عدة أباطرة من الرومان ،وبضعة ملوك من البرابرة وزعزع سلطة الكثلكة فترة من الزمن ، وقد حكم عليه في مجمع نيقية (ازنيك في تركيا) عام ٣٢٥م . . (المترجم)

(١٨٣) كان ذلك بتاريخ ٧ أو ٨ حزيران (يونيه) ٦٣٢ م ، ويشاء القدر ان تحدث معركة بواتييه عام ٧٣٢ م، أي بعد قرن كامل من انتقال الرسول الى الرفيق الأعلى (المترجم) .

(١٨٤) لا يجهل المؤلف ابدا بأنه لا يوجد رجال دين متخصصون في الدين الإسلامي ، بل هناك من عامة الناس أناس تفقهوا في الدين وعهد اليهم بوظائف العبادة . ويضم ذلك مختلف الموظفين الدينيين من أئمة وخطباء ومؤذنين وقضاة ورجال الإفتاء .

هذه البلاد .[185]

غير أنه كانت هناك بين البربر ولا زالت بدع جديدة ومذاهب شتى . وآمل ان أتمكن بعون الله عن معالجة كاملة لقضية الدين الإسلامي في كتاب آخر عند فراغي من هذا ، وذلك فيما يتعلق بالنقاط الجوهرية والاختلافات التي تلاحظ في مجال هذا الدين بين مسلمي افريقيا ومسلمي آسيا .[186]

الكتابة التي يستعملها الأفارقة

يعتقد المؤرخون العرب بصورة جازمة أن الأفارقة لم يكن عندهم اية كتابة سوى الحروف اللاتينية . ويقولون ان العرب عندما فتحوا افريقيا لم يعثروا فيها على كتابة بغير اللاتينية . وهم يقرون تماما بأن للأفارقة لغة خاصة بهم ، ولكنهم يلاحظون انهم يستخدمون الحروف اللاتينية على العموم ، تماما كما يفعل الالمان في أوربا فكل الكتب التي بحوزة العرب عن افريقيا مترجمة عن اللغة اللاتينية . وهي مؤلفات قديمة كتبت طبعا في عصر الآريوسيين وغيرهم من قبل . وأسماء مؤلفيها معروفة ولكنني لا أذكرهم الآن . وأعتقد ان هذه المؤلفات كانت طويلة جداً ، لأن من عادة مترجميها القول : « ان تلك القضية معروضة في ستين كتاباً » . والحقيقة ان العرب لم يترجموا هذه الكتب حسب

(١٨٥) يظهر ان عرب الفتح لم يرغبوا في أكثر من دخول الزعماء المحليين في الإسلام ، فعلى الرغم من الدعوة الإسلامية ، لم يكن من مصلحتهم أن يتلاشى النصارى واليهود ، وهم الذين يدفعون الضرائب ويزاولون المهن . إذن كانت الرافضة المشارقة ، وقد وصل هؤلاء وهم مفعمون بإيمانهم الجديد ، وراغبون في الحصول على قوى دفاعية هجومية فقاموا بدعاية مكثفة . وكان اول من وصل على وجه الدقة ، أي اللاجئون الى المغرب بسبب الاضطهاد وهم الذين ادخلوا جماهير البربر الإسلام ، الى جنوب بلاد البربر ، الخوارج حوالي القرن السابع الميلادي ، ومنذ عام ٧٤٠ م كان لهم أتباع امتدوا حتى طنجة ، كما كان منهم بين جيوش المسلمين في اسبانيا . وفي ٧٥٧ م أسسوا الإمارة الصفرية في سجلماسة ، وفي ٧٦١ م أسسوا الخلافة الأباضية الوهبية في تاهرت . ويعتقد عموماً أن البربر الذين اصبحوا امام الخيار بين الإسلام السني والعقيدة الخارجية التي جاء بها اللاجئون السياسيون ، رجحوا الأخيرة ، لأنها اكثر انسجاماً مع مزاجهم الديمقراطي والعصيان . وهذا الخيار لم يعرض عليهم إذ كانت الدعاية الإسلامية الخوارجية اكثر نشاطاً واتساعاً بما لا يقاس من الدعوة السنية ، ولاسيا في الجنوب . وإذا كان اليهود قد ناهضوا الدعوة بنوعيها فإن النصارى لم يكونوا يشكلون أكثر من جماعات محلية راحت تتفتت وتتلاشى تدريجيا . وقد خمد آخرها حوالي القرن الحادي عشر أو الثاني عشر ، ونالت الضربة القاضية على يد حركة المرابطين الإصلاحية .

(١٨٦) وسنرى فيما بعد ان المؤلف قد وضع هذا المشروع قيد التنفيذ في نفس الوقت الذي كان يدبج فيه « الوصف » الذي بين ايدينا .

العيوب والأشياء المذمومة عند الأفارقة

مما لا ريب فيه ان لدى الافارقة من العيوب قدر ما لهم من المزايا ، ولكن لننظر ما إذا كانت هذه العيوب متفاوتة فى ظهورها .

فسكان بلاد البربر فقراء ومتغطرسون ، حقودون بدرجة لا مثيل لها . ويقال انهم يحفرون فوق الرخام عبارات السباب ولا ينزعون الغل من صدورهم . وهم غير موطئي الأكناف لا يألفون ولا يؤلفون حتى إنه من النادر أن يستطيع الغريب سبيلاً الى صداقتهم. وهم على درجة من السذاجة تجعلهم يصدقون أيّ أمر مستحيل . والشخص العامى منهم يجهل تماما كل القوانين الطبيعية ، حتى إنه ليعتبر كل الظواهر الطبيعية مهما كانت كأنها أعمال ربانية . وهم غير منسجمين في أسلوب عيشهم كما في تصرفاتهم ، ويتعرضون للغضب كثيرا . وفي أغلب الأحيان نجدهم يتجاذبون أطراف الأحاديث المتعجرفة بصوت مرتفع . ومن النادر ألا يرى الإنسان في الشوارع المزدحمة شخصين أو ثلاثة وهم يتلاكمون بقبضات أيديهم . وهم من طبيعة حقيرة . وليس لأمرائهم مكانة يعتد بها حتى يمكن القول بأن الأمير فيهم هو أقرب الى الحيوان منه الى إنسان متحضر . وليس بينهم وجهاء ولا قضاة مكلفون بإدارة شئونهم أو بنصحهم على مسألة ما في سياسة أمورهم . وفضلا عن ذلك فهم محدودو التفكير وجهال في أمور التجارة ، فليس لديهم مصارف ، وليس لديهم شخص يتعهد بنقل البضائع من بلد لآخر ، فعلى كل تاجر أن يبقى قرب بضائعه وأن يسافر معها .

وهم من أكثر الناس بخلاً حتى إن معظمهم لا يرغب الواحد منهم في ايواء غريب لا مجاملة ولا تقرباً إلى الله . والقليل منهم أيضا الذين يردون المعروف لمن له عليهم فضل سابق . وهم اناس مفعمون بالقلق وسوداويون لا يتذوقون الدعابة . وهذا يعود الى اهتمامهم بمطالب الحياة المادية دون توقف . لأن فقرهم شديد وارباحهم هزيلة . ويعيش الرعاة(٢٣٠) في ضنك سواء في ذلك اهل الجبال منهم واهل السهول ، وذلك لقلة مواردهم فهم في بؤس مقيم وفاقة مزرية . وهم جفاة ، لصوص ، وجهال . ولا يسددون ما سبق ان اقترضوه . والديوثون منهم اكثر من الذين يتصفون بالعفة . فكل الفتيات قبل زواجهن يستطعن ان يعشقن وان يتذوقن ثمرة الحب . -وحتى الاب نفسه يقوم باستقبال عاشق ابنته

---

(٢٣٠) أي الشاوية .

بكل ترحاب ، وكذلك الاخ بالنسبة لعاشق اخته ، بحيث لا نجد امرأة تحمل بكارتها لزوجها . ولكن من الصحيح القول انه ما ان تتزوج الفتاة حتى يكف العشاق عن مطاردتها ، فيذهبون الى اخرى . ومعظم هؤلاء ليسوا مسلمين ولا يهودا ، ويزيد بعدهم عن المسيحية . وليس لديهم اي معتقد ، وهم ليسوا بلا ديانة فحسب ، بل ليس لديهم اي ظل من الدين ، ولا يقومون باي صلاة وليس لهم معابد ويعيشون كالسائمة . واذا كان بينهم من عنده شيء ضئيل من شعور التقوى ، فهو مضطر ان يعيش كالآخرين لانه يفتقر لأية مبادىء دينية ، وليس هناك من فقهاء يرشدونه ، ولا قاعدة مستقيمة يسير عليها .

والنوميديون قوم بعيدون عن رحاب المعرفة ، ويجهلون طريقة السلوك النظامي في الحياة العادية . فهم غدارون ، قتلة ، ولصوص ، دون أي اعتبار أو مراعاة . وهم أيضا بلا إيمان ولا قاعدة دينية . لقد عاشوا في كل الأزمنة ويعيشون وسيعيشون دوما في البؤس . ولا يوجد صنف من الخيانة لا يرتكبونه مدفوعين بالحاجة أو الرغبة في شيء ما . ولا يوجد بين الحيوانات من يحمل قرونا في طول قرون هؤلاء الأسافل(٢٣١) . فهم يكرسون كل حياتهم لفعل الشر وللصيد وللاحتراب فيما بينهم ولرعي ماشيتهم في الصحراء ، ويمشون دوما حفاة عراة . أما أهل بلاد السودان فهم غلاظ بلا عقل ، بدون ذكاء ودون خبرة . وهم مجردون من جميع مظاهر المعرفة . ويعيشون كالبهائم بدون قواعد ولا شرائع . وتكثر فيهم البغايا والديوثون، باستثناء القليل منهم من الذين يسكنون في المدن الكبرى والذين لديهم بعض الشيء من الكرامة الانسانية .

ولا يفوتني أن أقول إنني أشعر ببعض الحياء من الإقرار بعيوب الأفارقة ومن الكشف عنها . فقد كانت إفريقيا موطن نشأتي ، وفيها قضيت أزهى وأطول شطر من حياتي . ولكن لدى العذر من الجميع لواجب المؤرخ الذي يفترض فيه أن يقول حقائق الامور بدون أن ينحرف لإرضاء ميل شخص ما . وهذا هو ما أجدني بسببه مضطرا لكتابة ما كتبت ، وهذا هو ما يجب أن يكون إذا أردت عدم الابتعاد عن الحقيقة في أية نقطة ، واذا ما تركت جانباً زخارف الاسلوب وصناعة الكلام .

وأود في سبيل الدفاع عن نفسي أن اسرد حكاية صغيرة ستكون مثالا كافيا لذوى النفوس المستنيرة والاشخاص المحترمين الذين سيتفضلون بقراءة هذا الكتاب الطويل :

(٢٣١) تعبير شائع في البلاد العربية ، وهو وصف الديوث بذى القرنين ، أو يقصد به المفرطين في غبائهم .

يتناقل الناس في بلدي قصته مفادها أن شابا في حالة وضيعة وحياة ممقوتة ، دخل السجن بسبب ارتكابه سرقة صغيرة وحكم عليه بالجلد . وعندما حل يوم توقيع العقوبة فيه ، وعندما أصبح بين أيدي رجال تنفيذ العدالة ، وجد أن الجلاد هو أحد أصدقائه . فاعتقد أنه سيحظى بمراعاة لم يعرفها أي إنسان آخر .ولكن على العكس فقد بدأ هذا يكيل ضربة أليمة قاسية اليه . وهكذا راح الصاحب البائس المبتئس يصرخ قائلا : « يا أخي أنت تعاملني مع أنني صديقك ، أسوأ من الآخرين » وحينئذ كان الجلاد يسدد اليه ضربة أكثر شدة ، وأجابه « يا رفيقي ، يجب ان أقوم بوظيفتي على الوجه الذي يجب أن أؤ ديها عليه ، وهنا لا مكان للصداقة » واستمر في عمله كي يعاقبه بالعدد الحقيقي من الضربات التي سبق أن حددها القاضي .

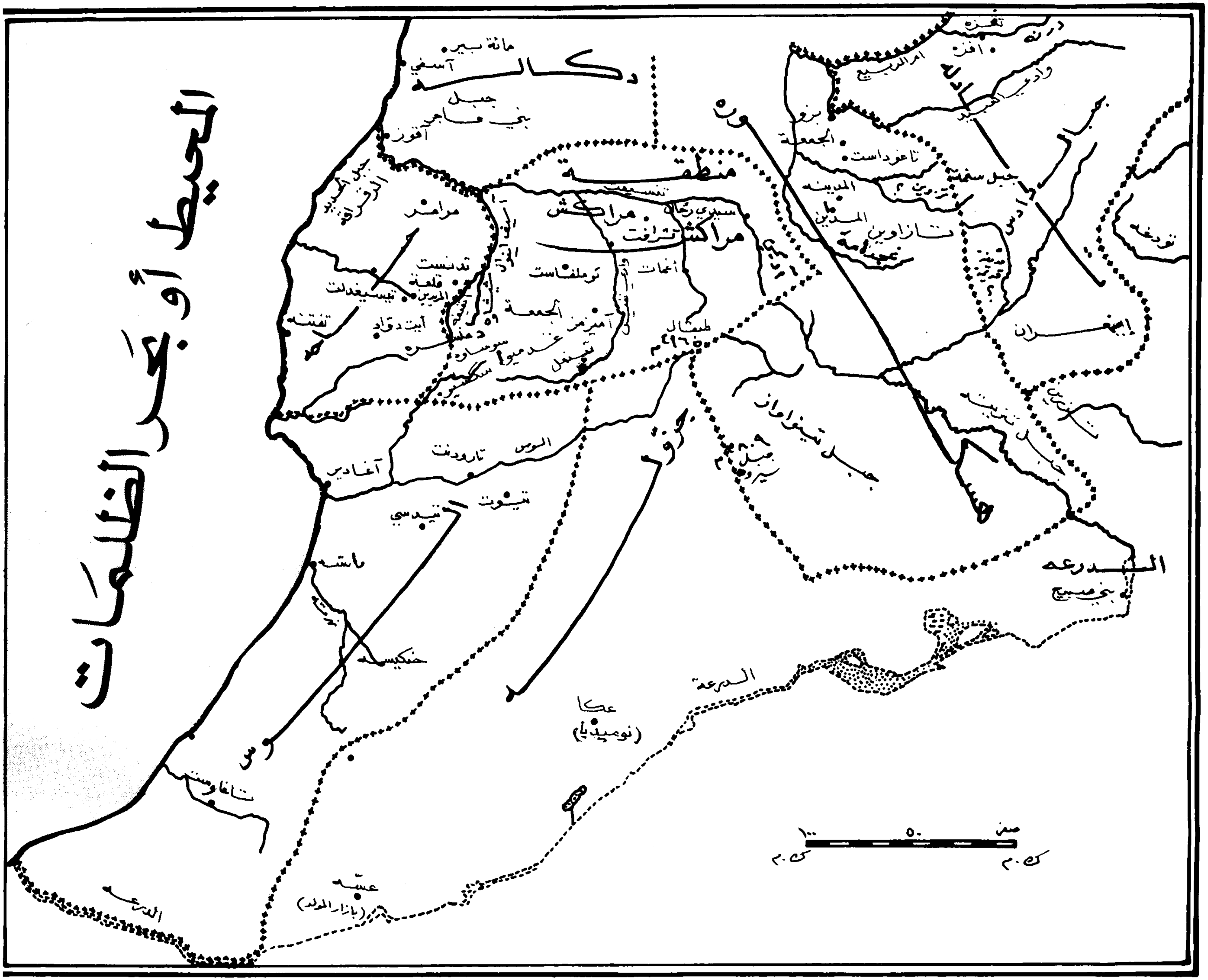
وهذا هو السبب الذي سيجعلني عرضة للتبكيت فيما لو تغاضيت عن ذكر معايب الأفارقة . وقد يتصور البعض أنني تصرفت بهذا الأسلوب لأنه كان لدى قدر كبير من هذه العيوب ، وأنني على العكس مجرد من هذه المزايا الموجودة لدى الآخرين . وبما أنني لا أملك خيرا مماسأ ذكره للدفاع عن نفسي ، فإنني أقترح الاستفادة من الطريقة التي استعملها عصفور ، لأن طبيعة الأمر ، إذا ما أردت أن أشرحها لكم ، تضطرني لأن أسرد عليكم قصة هذا العصفور ، وهي أقصوصة أخرى صغيرة ممتعة :

في العصر الذي كانت الطيور تتكلم فيه ، كان يوجد عصفور صغير لطيف وجريء ، كان متمتعا بذكاء عجيب بشكل خاص . وكان من طبيعته هذه الميزة أيضا ، وهي أنه يستطيع أن يعيش في الماء بين الاسماك كما يعيش فوق الأرض بين الطيور الأخرى . وفي ذلك الزمن كانت كل الطيور مكلفة بدفع ضريبة سنوية لملكها . وهكذا خطر ببال هذا العصفور فكرة كي يتخلص من دفع أي شيء . وحينما أرسل له الملك موظفا لجباية الضريبة تعهد له هذا الماكر الصغير بالدفع ولكنه اندفع في الفضاء طائرا . وما لبث أن دخل البحر واختفى في غياهب مياهه . ولما رأت الأسماك هذا الأمر الجديد ، هرعت جميعا على شكل فرقة كبيرة وتحلقت حوله لمعرفة السبب الذي حدا به للمجيء عندها . فتوجه العصفور إليها بالكلام قائلا : « واحسرتاه ، ألا تعرفون ، أيها الطيبون ؛ أن الحالة بلغت درجة لم يعد من الممكن معها العيش أبدا فوق الأرض ؟ فقد أراد ملكنا الجبان ، وذلك بتأثير نزوة خطرت برأسه ، اراد تقطيع اوصالي وانا حي رغم صلاحي ، ورغم أني أكبر وجيه شرفا وفضلا بين كل العصافير » . ثم تابع يقول :

« اتوسل لكم بحب الله بأن توافقوا على أن أسكن معكم ، كي أستطيع أن أقول إنني وجدت لدى الغرباء طيبة وكرما أكثر مما لدى أهلي الأقربين ؛ ولدى أولئك الذين هم من جنسي » . وقد أعجبت الأسماك بهذا القول ، وأمضى العصفور عاما كاملا بينها ، دون أن يكلف دفع أية ضريبة . وعند انتهاء هذه الفترة ، وعندما حل وقت جباية الضرائب ، أرسل ملك الأسماك أحد الأتباع للعصفور لإعلامه بالعادة ومطالبته بمجموع الضرائب المستحقة ، فقال العصفور « هذا حق طبعا » وأخذ بالطيران خارجا من الماء ، تاركا محدثة في أكبر حيرة صادفها مخلوق . وهكذا أصبح كلما طالبه ملك العصافير بالضريبة ، هرب تحت الماء ، وكلما طالبه ملك الأسماك ، عاد فوق الأرض .

وأريد أن أخلص الى ان الانسان حيثما وجد مصلحته سعى إليها قدر استطاعته . فاذا كنت قد نشرت عيوب الأفارقة ، فأقول إنني ولدت في غرناطة وليس في إفريقيا . وإذا كان عليّ ان أنتقد موطني ومسقط رأسي فإنني سأتعلل للدفاع عن نفسي بأني نشأت في إفريقيا وليس في غرناطة . ولكني عطوف نوعاما على الأفارقة . وهي انني لم اسرد مما يعاب عليهم إلا الأشياء الشائعة المشهودة بل أكثرها سطوعا في عيني كل إنسان .

القسـم الثـاني



خارطة المغرب الجنوبي

إستهلال

تكلمت في القسم الأول من هذا الكتاب ، بصورة عامة ومجملة ، عن مدن أفريقيا وحدودها وأقسامها ، وكذلك عن الأمور المتعلقة بالأفارقة ، والتي بدت لي أنها تستحق الذكر . أما الاقسام التي ستأتي فستخصّص لاعطائكم معلومات خاصة عن مختلف الأقاليم ، والمدن والجبال والمواقع والشرائع والعادات . ولن أغفل عن ذكر أي شيء يستحق المعرفة . وسأبدأ بالغرب وأنهي عرضي في مصر ، وأعالج هذا كله في سبعة أقسام . وسأضيف قسماً آخر ، وذلك بمشيئة العلي القدير - إذ لا يمكن انجاز شيء كامل ، هنا على الأرض ، بدون هذه المشيئة - أصف فيه الأنهار الرئيسية ومختلف الحيوانات والنباتات المتنوعة والثمار والبقول التي تمتاز بها أفريقيا .

مملكة مراكش
حاحه، منطقة غربية

تنتهي بلاد حاحه[1] ، وهي منطقة من مملكة مراكش ، على المحيط من الغرب والشمال . وتنتهي جنوبا عند جبال الأطلس . وفي الشرق ، تتوقف عند نهر آسيف اينوال[2] الذي ينبع من هذا الجبل ويصب في نهر تانسيفت . ويفصل هذا النهر بلاد حاحة عن المنطقة المجاورة .

موقع وطبيعة حاحه

تبدو هذه المنطقة وعرة جداً ، مليئة بالجبال العالية الصخرية وبالغابات والأودية المائية الصغيرة . وهي مأهولة جداً بالسكان . ويوجد فيها عدد ضخم من الماعز والحمير ، ولكن القليل من الضأن ، وأقل من ذلك من الأبقار والخيول . ولا نجد هنا سوى القليل من الثمار ، ولا ينتج هذا عن عدم مواءمة التربة ، بل عن جهل السكان ، لأني رأيت في عديد من الأماكن أن التين والدراق يكثران فيها ، وهكذا لا ينبت هنا سوى القليل من القمح في حين تكثر كميات الدخن والذرة البيضاء والشعير . ويكون انتاج العسل وفيراً ، وهو الذي يعتبر الغذاء العادي للسكان . ولما كانوا لا يعرفون ماذا يصنعون بالشمع فهم يهملونه . ونجد هنا عدداً كبيراً من الأشجار الشوكية التي تنتج ثمرة بحجم حبات الزيتون الذي يأتينا من اسبانيا . وتدعى هذه الثمرة في اللغة المحلية « الهرجان » . ويستخرج منها زيت رديء الرائحة جداً ، ولكنه مع ذلك يستعمل في الغذاء وفي الإضاءة .

---

(١) من اسم قبيلة بربرية ايحاحان .

(٢) ومعناه بالبربرية نهر الأكواخ ، وهو اسم أصبح منسياً تماماً . ويقصد به المؤلف المجري الأدنى لواد شيشاوه وأحد فروعه الرئيسية . ويقصد به على التحديد وادآمسنز .

نمط حياة هؤلاء الناس

من عادة سكان هذه المنطقة أكل خبز الشعير . ويصنع هذا النوع ـ وهو إلى القرصة أدنى منه إلى الخبز ـ بلا خميرة . ويشوى في مقلاة من فخار لها شكل غطاء كمشواة فطائر الحلوى ، ويندر أن يخبز في تنور . وهناك نوع من طعام يدعى « العصيد » ، يتم تحضيره على الصورة التالية : يغلى الماء في قدر ، ثم يرمى فيه دقيق الشعير الذي يحرك بعصاة إلى ان ينضج ، ثم يسكب هذا الحساء في قصعة عميقة ويصنع في وسطها تجويف يصب فيه زيت الهرجان . وتجتمع الأسرة حول القصعة ، ويأخذ كل واحد ما يستطيع بدون استعمال ملعقة سوى اليد ، الى أن يؤتى على كل ما فيها . أما في الربيع وخلال كل الصيف فيغلى الدقيق المذكور في الحليب ويوضع فيه السمن . تلك هي وجبة العشاء العادية . أما وجبة الغذاء فتتألف شتاءً من الخبز والعسل ، وفي الصيف من الحليب والزبدة . ويؤكل اللحم المسلوق أيضا مع البصل والفول ، أو يكون اللحم مصحوباً بنوع من طعام يدعى « الكسكسي » . ولا يستعمل الخوان ولا السماط . بل تمدد حصيرة مستديرة على الأرض ويؤكل فوقها .

لباس هؤلاء الناس وعوائدهم

يرتدي اكثر الناس لباساً مؤلفاً من قطعة قماش صوفية تدعى « الكسا »[٣] ، وهو لباس يشبه في صنعته أغطية السرر المستعملة في إيطاليا . ويلفون بها أجسادهم بشكل وثيق . كما يطوقون الردفين وأجزاء الجسم بنوع من « فوطة » من صوف ، ويضعون فوق رءوسهم قطعة من قماش من نفس الصوف ، طولها حوالي عشرة أشبار[٤] ، وعرضها اثنان ، مصبوغة بقشر من جذر شجرة الجوز ، يبرمونها ويلفونها حول هامتهم بصورة تجعل قرص الرأس مكشوفا على الدوام . وليس من عادتهم لبس القبعات ، اللهم إلا بين الكهول والمتعلمين ، هذا إذا ما وجد بينهم واحد من هؤلاء . وتكون هذه القبعات مزدوجة ، أي مبطنة ، ومستديرة ، ومرتفعة كتلك التي يلبسها بعض الأطباء في ايطاليا . وقليلون هم الذين يلبسون قميصاً ، وذلك أولاً لأن الكتان لا يزرع في هذه البلاد ، ثم لأنه لا يوجد إنسان يعرف صنعة النسيج . وعوضاً عن المقاعد فإنهم يستعملون حصراً

(٣) وهو يشبه العباءة النسائية أو الحايك عند المغاربة .

(٤) الشبر يعادل ٢٥ سم .

ناعمة مصنوعة من قصب مضفور ، ويستخدمون عوضاً عن الفراش وملحقاته أغطية طويلة من الصوف ، يبلغ طولها عشرة إلى عشرين ذراعاً[٥] ، يستخدم قسم منها فراشاً والآخر غطاء . وفي الشتاء يوضع الجانب الناعم من الداخل ، أي من طرف الجسم ، وفي الصيف يصنعون عكس ذلك . أما الوسائد فهي عبارة عن أكياس من صوف ، خشنة ، وغليظة ، من نوع بعض أغطية الخيول التي تأتي من ألبانيا أو من تركيا . هذا ووجوه معظم النسوة سافرة .

وفيما يتعلق بالأدوات المنزلية ، تستعمل قصعات من خشب محفور بالسكين . غير أن القدور والصحاف تكون مصنوعة من الفخار .

وليس من عادة العزّاب ترك لحاهم ولا يتركونها تنمو إلاّ بعد زواجهم .

وليس لديهم سوى القليل من الخيول ، ولكن هذه الخيول النادرة معتادة على التجوال في هذه الجبال بخفة وبراعة كبيرتين حتى ليظن انها من القطط ، ولا تكون محذّوة بالحديد . ولا تحرث الأرض إلا بالاستعانة بالخيل والحمير . ونجد في هذه المنطقة أعداداً كبيرة من الوعول[٦] والتيوس الجبلية[٧] والأرانب ، ولكن ليس من المألوف اصطيادها . ولا أزال أشعر دوماً بالدهشة لقلة الطواحين التي نراها مع كثرة كميات المياه لهذا الحد . ويعود هذا إلى أن لكل بيت أدواته الخاصة لطحن الحب ، وإلى أن النسوة يقمن بهذا العمل بأيديهن .

ولا تعرف هذه البلاد أي نوع من أنواع التعليم ، فلا نكاد نجد إنساناً واحداً يعرف القراءة ، فيما عدا بعض رجال الشريعة الذين لا يعرفون أي نوع من أنواع المعرفة سواها . وليس في البلاد طبيب من أي نوع كان ، ولا أي جرّاح ، ولا أي عطار . وتتألف كل العلاجات من الكيّ الناري ، كما يصنع مع الحيوانات . وهناك بعض الحلاّقين الذين لا يؤدون أية خدمة جراحية سوى ختان الأولاد .

ولا يصنع الصابون من هذه المنطقة ، إذ يستعمل الرماد مكانه . والسكان في حالة

(٥) أي ٦,٧ م إلى ١٣ م .

(٦) الاسم اللاتيني لهذا الحيوان هو Cervus Elaphus barbarus(إذا كان هذا هو ما يقصده المؤلف) . وقد أصبحت رقعة انتشار هذا الحيوان محصورة في شريط غابي ضيق يقع على الحدود التونسية الجزائرية .

(٧) وهي أبقار وحشية صغيرة ، مؤلفة غالباً من الغزلان .

حرب لا تهدأ ، ولكنها حرب أهلية لا تحمل أي أذى للأجانب . وإذا أراد أحد من أهل البلاد الانتقال من مكان إلى آخر وجب عليه أن يكون مصحوباً بفقيه أو بامرأة من هذا البلد الذي يريد الانتقال إليه .

ولا يوجد في هذه البلاد أي مظهر من مظاهر القضاء ، ولا سيا في الجبل حيث لا يوجد أمير يحكم ولا موظف . ويتمكن النبلاء والوجهاء من الاحتفاظ بشبه سلطة في داخل المدن ، وهذه المدن نادرة .

وكثير من القرى والقصور والمداشر صغيرة جداً ، وبعضها الآخر كبير ومزدهر . وسأتكلم لكم عن هذه وعن تلك .

تدنست (٨) مدينة من حاحة

تدنست مدينة قديمة ، بناها الأفارقة من سهل جميل ولطيف جداً . وتحاط كلها بسور من آجر وطين . وتقع البيوت والحوانيت في داخل السور ، وتضم قرابة خمسمائة أسرة وأكثر . وينبع نهر صغير من جوارها ويجري بمحاذاة السور .

وفي هذه المدينة بعض دكاكين التجار الذين يبيعون القماش الصوفي المستعمل في المنطقة والقماش الكتاني المستورد من البرتغال . ولا يوجد صنّاع سوى الحذّائين والحدادين وبعض الصاغة من اليهود . ولا تحوي المدينة في أي مكان منها فندقاً أو حمّاماً أو دكان حلاق . ولهذا عندما يقصد المدينة أي تاجر غريب ، فإنه ينزل عند صديق له أو عند معارفه . وإذا كان لا يعرف أحداً ، يقترع وجهاء البلدة على من يقوم بواجب ضيافته .

وهكذا يأوي الغرباء ، ويبتهج الناس بالتشرف بإكرام أي غريب . ومن المتعارف عليه أن من واجب كل من هؤلاء أن يترك عند سفره نوعاً من هدية لصاحب البيت الذي استفضافه رمزاً للعرفان . وإذا حدث ومرّ مسافر من غير التجار ، فله الحق أن يختار مقامه عند الوجيه الذي يروقه أكثر من سواه ، وذلك دون أن ينقده شيئاً أو يترك هدية . وإذا مرّ فقير غريب فإنه ينزل في ملجأ معدّ خصيصاً لإيواء الفقراء واطعامهم .

---

(٨) لا تزال هناك بلدة صغيرة في المنطقة تحمل هذا الاسم ، ومن المحتمل أن تكون هي ذاتها ، ولكن ليس هذا مؤكداً .

ويوجد في قلب المدينة مسجد كبير جداً ، مشيّد بفخامة من الحجر والكلس . وهو قديم تمّ بناؤه في العصر الذي كانت البلاد فيه خاضعة لسلطة ملوك مراكش . ويقوم في وسط الجامع خزان مياه كبير[٩] . ويقوم على خدمة هذا الجامع عدة ائمة ومستخدمين . وثم كذلك عدة معابد بين جامع ومصلىّ ، ولكنها صغيرة ، ومع هذا فهي جيدة البناء والخدمة .

وفي المدينة مائة بيت من اليهود ، وهم لا يدفعون الضريبة العادية[١٠] ، بل من عادتهم أن يقدموا بعض الهدايا للوجهاء الذين يبسطون عليهم حمايتهم واكثرية السكان من اليهود . وهؤلاء هم الذين يملكون دار سكّ العملة ويضربون لسكان المدينة قطع نقود فضية ،ويصنعون من كل « أونس Once » من الفضة[١١] مقدار مائة وستين دانقاً صغيراً ، تشبه عملة الهيللر الهنغارية ، ولكن لها شكل مربع[١٢] . ولا توجد في هذه المدينة ضريبة على المعاملات التجارية[١٣] ، ولا ضريبة مكس ، ولا أية جباية أخرى . وإذا اضطرت المدينة لبعض النفقات فإن الوجهاء يجتمعون ويتوزعون هذه النفقات فيما بينهم ، كل حسب وسائله الخاصة .

ولقد تخربت تدنست عام ٩١٨ من هجرة الرسول[١٤] ، وغادرها بعض سكانها إلى الجبل والبعض الآخر إلى مراكش ، لأن جيرانهم العرب تفاهموا مع نائب ملك البرتغال الذي كان يقيم في آسفي . وكان العرب يرغبون في تسليم هذه المدينة للنصارى . ولهذا غادرها سكانها برمتهم بعد أن اتفقوا على ذلك جميعا . ورأى كاتب هذه الأسطر « تدنست » بعد خرابها . وكان سور المدينة بأجمعه منهاراً ، وكذلك المنازل ، ولم تكن المدينة مأهولة بغير الغربان والبوم ، وكان ذلك في العام ٩٢٠ هـ[١٥] .

---

(٩) خزان ماء مكشوف أو بركة .

(١٠) أي الجزية .

(١١) أي ٣٠,٥٩ غرام .

(١٢) أي واحد من مائة من القرش الفضي . وإذا كان الأونس الإيطالي الذي يزن ٢٨,٢٥ غراماً معادلاً للأونس المغربي فمعنى ذلك أن هذا « الدانق » كان يزن ١٧٦ ميليغرام من الفضة .

(١٣) أي رسوم على الصفقات التجارية .

(١٤) أي بين ١٩/٣/١٥١١ إلى ٨/٣/١٥١٣ م .

(١٥) لا تذكر الوثائق البرتغالية أي إشارة لهجر تدنست أو عن خرابها التام . وكل ما نعلمه عنها أن حاكم آسفي ، واسمه نونو فرناندز دو آتيد ، استطاع بالتحالف مع شيخ العرب المنحاز للبرتغاليين . وهو يحيى أو تعفوفت ، أن يلحق هزيمة منكرة =

تاكوليت، مدينة من حاحة

تقع مدينة تاكوليت على سفح جبل . وتحوي قرابة ألف عائلة . وهي على مسافة ثمانية عشر ميلاً[16] إلى الغرب من تدنست . ويمر من جوارها نهر صغير ، تقع على ضفتيه بساتين ومزارع مليئة بالأشجار المثمرة . وفي المدينة بضعة آبار عذبة صافية الماء . ويوجد فيها جامع بديع جداً ، فضلاً عن أربعة ملاجىء للفقراء ، وواحد للمتعبدين . وأهل هذه البلدة أكثر ثراء من سكان تدنست ، لأن هذه المدينة تجاور ميناءً يقع على المحيط ويدعى « آقوز »[17] .

وتباع في تاكوليت مقادير كبيرة من الحبوب نظراً لوجود سهل فسيح بجوارها ، مثلما يباع فيها الكثير من الشمع للتجار البرتغاليين ، ولهذا نرى سكانها من ذوي الهندام الجيد كما أن خيولهم مسرّجة بسروج فخمة بديعة . وفي الزمن الذي قصدت فيه هذه البلاد كان يقيم فيها وجيه منزلته كمنزلة رئيس الوزارة ، وكان يقوم بجميع مهام الإدارة وبتوزيع العوائد التي كانت تدفع للعرب تسوية لاتفاقيات السلام ووفاء بالعقود المبرمة بينهم وبين أهل المدينة . وكان هذا الرجل يملك موارد ضخمة ، وكان ينفقها على الناس ليكسب ودهم وليظل أثيراً لديهم . وكان كريما ينفق الكثير من الصدقات ويساعد الأهالي بماله لقضاء حاجاتهم ، حتى أنه لم يكن في المدينة إنسان واحد لا يحبه ولا ينزله منزلة والده . وقد رأيت وقرأت في منزله عدة مؤلفات تاريخية وبحوث تتعلق بأفريقيا . وقد قتل هذا الرجل في حرب مع البرتغاليين عام ٩٢٣ من تاريخنا ، والذي يقابل سنة ١٥١٤ للميلاد[18] . وسقط قسم من سكان المدينة في الأسر ، وهرب قسم آخر ، وتم ذبح

= بالشريف أبي عباس أحمد الأعرج ، بتاريخ الأحد الأول من محرم عام ٩٢٠ هـ . الموافق ٢٦ شباط ١٥١٤ م ، على مسافة مائة كيلومتر من آسفي على طريق تدنست . وعلى أثر هزيمة الشريف ، دخل نونو فرناندز بسلام إلى مدينة تدنست ، ولم يكن احتلال البرتغاليين لأطلال تدنست أكثر من احتلال مؤقت . ومن المحتمل أن المؤلف رأى هذه الأطلال الخاوية في شهر حزيران أو تموز (يونيو او يوليو) من عام ١٥١٤ م .

(١٦) ٢٩ كيلومتر .

(١٧) لا يزال موقع تاكوليت مجهولاً ، ومعناها بالبربرية « القلعة الصغيرة » . أما موقع « آقوز » فقد تعيّن على الضفة اليمنى لنهر التانسفت بجوار مصبه ، ولكن ليس على ساحل المحيط تماماً . وهي الصويرة القديمة .

(١٨) والأصح عام ٩٢٠ هـ ، لأن المؤلف كان في مصر عام ٩٢٣ هـ أو ١٥١٧ م . [ونستشف من كلامه عاطفته الاسلامية الصادقة وأن تنصره لم يكن أكثر من مجاملة اضطرارية لم تتجاوز لسانه] (المترجم)

الآخرين ، كما كتبنا ذلك في « تاريخ أفريقيا الحديث »[١٩] .

هَادكّيس . مَدينَة مِن حَاحَه

هادكّيس[٢٠] مدينة تقع في السهل ، على مسافة ثمانية أميال جنوبي تاكوليت[٢١] . وفيها حوالي سبعمائة أسرة . ويتكون جدار سورها من قوالب الطوب النيء . وكذلك جامعها وكل بيوتها تقريبا . ويمر من داخل المدينة نهير قليل الأهمية تقع على ضفتيه أشجار كرمة عديدة مع تكعيبات بديعة جداً تمتد عليها هذه الأشجار . وفي مدينة هادكّيس عدد كبير من الصنّاع اليهود . ومن عادة السكان أن يتأنقوا كل التأنق في لباسهم . ولديهم خيول حسان وذلك لأنهم يزاولون التجارة ويتجولون في المناطق المجاورة . وتضرب المدينة عملتها الفضية . وتقيم سوقاً موسمياً كل عام ، يقصده أهل الجبال المجاورة ، (ومنظر هؤلاء أدنى إلى الحيوانات منه إلى الأناسّي) . ونجد في هذا السوق الكثير من المواشي والسمن وزيت الهرجان ، وكذلك أدوات حديدية وأقمشة البلاد ، ويدوم هذا السوق خمسة عشر يوماً .

ونرى بين هؤلاء السكان نساء غاية في الجمال ، بيضاوات ، متوسطات السمنة ، وهن كذلك مليحات لطيفات . ولكن الرجال عنيفون وغيورون يقتلون كل من يقترب من نسائهم . ولا يوجد هنا قاض ولا مثقف يفصل بين الناس لتسوية قضاياهم المدنية ، وهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم على هواهم . أما فيما يتعلق بالمسائل الدينية فإن لهم فقهاءهم وعلماءهم المتخصصين . ولا يوجد هنا رسم أو ضريبة من أي نوع كان ، شأنهم في ذلك شأن المدن الأخرى التي تكلمنا عنها .

وقد نزلت في بيت فقيه المدينة ، وكان رجلاً جلفاً للغاية ، ولكنه كان يعجب كثيراً بالبلاغة العربية وعلومها . ولهذا السبب أمسك بي بالقوة تقريباً مدة شهر عنده . وتذرّع بأنه ليس من المناسبِ لي أن أذهب دون أن يصاحبني باسم الصداقة التي أكنّها للعرب ، لأنه كان عربياً وكذلك أسرته . وهكذا احتفظ بي استناداً لهذه الحجة إلى أن فرغت من قراءة كتاب صغير عليه في علوم البلاغة . ومن هنا عدت إلى مراكش ، وكانت هادكّيس

---

(١٩) هذا المؤلف الذي سيسميه فيما بعد « الوجيز في التواريخ الاسلامية » لم يصل إلينا .

(٢٠) وهي في موقع تيكجي الحالية .

(٢١) أي ١٣ كم .

قد تخربت قبل قليل في حرب ضد البرتغاليين . وقد فزع السكان جميعاً إلى الجبال . وحدث هذا في عام ٩٢٢ هـ في بداية السنة التي انطلق فيها المؤلف لرحلته الكبرى ، أي السنة الموافقة لعام ١٥٠٥ لميلاد المسيح[٢٢] .

ايد اوايزوغ غواغن

ايدآوايزوغ غواغن هي بلدة صغيرة شيّدت لتكون قلعة فوق جبل كبير جداً على مسافة عشرة أميال[٢٣] جنوبي هادكّيس . وفيها قرابة أربعمائة عائلة . وهناك نهر صغير يمر تحت هذه البلدة[٢٤] . ولا يوجد في هذه البلدة ، ولا في خارجها ، أي بستان ولا أي كرمة ولا أية شجرة مثمرة ، وذلك لسبب بسيط وهو أن سكانها مهملون وعلى درجة من التقاعس تجعلهم لا يبحثون عن أي غذاء سوى الشعير وزيت الهرجان . وهم يمشون حفاة باستثناء بعضهم من الذين ينتعلون نعولاً من جلد الجمل أو من جلد الثور . وهم في حالة حرب دائمة مع أهل البادية ، ويقتتلون فيما بينهم كالكلاب . وليس لديهم أي قاض ، أو فقيه ، ولا أي شخص معروف قادر على حسم خلافاتهم ، إذ لا إيمان لهم ولا شريعة سوى ما يقولونه بأفواههم . ولا نجد في كل جبالهم إطلاقاً من إنتاج غذائي سوى كمية كبيرة من العسل . ويحتفظ بهذا العسل غذاء ويباع منه للجيران ، ولكن يلقي شمعه مع القمامات .

ويوجد في هذه البليدة مسجد صغير لا يتسع لأكثر من مائة شخص ، إذ ليس لدى هؤلاء الناس أي اهتمام بالتقوى أو بالفضيلة . ويحملون معهم دائماً خناجر وحراباً يرتكبون بواسطتها جرائم القتل . وهؤلاء قوم غدارون فسقة . وقد ذهبت مرة إلى هذه المدينة مع الشريف ، الذي أصبح فيما بعد أمير السوس وحاحة[٢٥] ، وكنا قد جئنا لتوطيد السلام بين السكان .

---

(٢٢) والصحيح ٩٢١هـ أو ١٥١٥ م . ويظهر أن المؤلف قدم إلى هذه المنطقة حوالي شهر حزيران (يونيو) مع جيش السلطان أبي عبد الله محمد ، ملك فاس . وليس هناك من وثيقة تؤيد دمار هذه المدينة الصغيرة في تلك الحقبة ، والتي ربما كان اسمها آدكيس ، لأن اسمها ورد على شكل آدكة في النص البرتغالي .

(٢٣) ١٦ كم .

(٢٤) لقد اختفت هذه البلدة ولم يمكن تشخيص موقعها ، ولكن هناك فرعاً من عشيرة آيت بيوض ، وهي ذاتها عبارة عن فخذ من عشيرة أيد أو زمزم ، لا يزال يحمل اسم ايد آوايزوغ غواغن .

(٢٥) هو الشريف أبو العباس الأعرج الذي أصبح فيما بعد أول سلطان من أسرة السعديين .

تيّوت

تيّوت بلدة صغيرة في السهل ، ولكنها بين الجبال ، على مسافة عشرة أميال(٢٦) إلى الغرب من ايدآوايزوغ غواغن . وتضم حوالي ثلاثمائة أسرة ، وهي مسورة بجدار من الطوب الأحمر . وكل سكانها فلاحون . وتصلح أراضيهم لزراعة الشعير ، إذ لا يزرع فيها أي نوع آخر من الحبوب . ولديهم كمية كبيرة من المزارع المليئة بالكروم والتين والدراق . كما يملكون عدداً كبيراً من الماعز . وتوجد في المنطقة كمية عظيمة من الأسود التي تفترس وتلتهم عدداً كبيراً من أنعامهم . وقد أقمت في تيّوت ليلة واحدة ونزلت في ضيعة شبه مهدّمة . ولقد قدمنا لخيولنا الكثير من الشعير ، ثم عقلناها وآويناها في أحسن مأوى أتيح لنا إيواؤ ها فيه ، وأغلقنا مدخل المأوى بكمية كبيرة من الأشواك . وقد كنا في أواسط شهر نيسان (إبريل) . ونظراً لحرارة الطقس فقد صعدنا إلى السطح كي ننام تحت السماء . وحوالي منتصف الليل تسلل زوج من الأسود الضخمة وقد اجتذبتهما رائحة الخيول وحاولا نزع الأشواك . وأخذت الخيول بالصهيل والاضطراب ، وأخذنا نرتجف من رؤ ية الخربة وهي تنهار ومن تخيلنا أننا سنصبح فريسة لهذين الحيوانين الضاريين . وما كدنا نرى بياض الفجر حتى رحنا نسرج خيولنا وسرنا في الطريق ، أي في اتجاه المكان الذي ذهب إليه الأمير . وما كدنا نخرج حتى تعرضت هذه المدينة للخراب . وقد قتل قسم من السكان ، وأسر القسم الآخر ، وأقتيد إلى البرتغال . وحدث هذا عام ٩٢٠ هـ(٢٧) .

تيسيغدلت

تيسيغدلت مدينة على قدر من الأهمية . وتقع على جبل عالٍ ، ومحاطة بجروف

---

(٢٦) ١٦ كم .

(٢٧) سنرى فيما بعد أن المؤلف شهد في يوم الجمعة ١٤ نيسان ١٥١٤ م معركة بولوان ، وذلك بينما كان يقصد معسكر ملك فاس في مراكش كي يخبر ملك مراكش أبا علي الناصر بن يوسف الهنتاتي ، والأمير الشريف أبا العباس أحمد الأعرج ، بقرب وصول شقيق ملك فاس . فهذا الشقيق وهو الأمير مولاي ناصر الملقب بالكدادي ، اضطر أن يحارب متقهقراً في مطلع شهر أيار (مايو) . ويبدو أن نونو فرناندز دو آتيد ، حاكم آسفي ، قد انطلق بعد قليل في حملة على رأس خمسمائة من الرماة البرتغاليين وأعوانه من عرب عبده وغربية ، ضد قوات الشريف في بلاد شياظمة ، وأنه استطاع أن يخضع المنطقة حتى جبال الأطلس . وهذه الحملة هي التي أدت إلى خراب تيّوت .

صخرية عالية جداً ، بحيث لا تدع حاجة للأسوار . وهي تشبه مدينة أورته في إيطاليا[٢٨] . وتقع على مسافة إثني عشر ميلاً[٢٩] من تيّوت باتجاه الجنوب . ويمر من تحت المدينة نهر[٣٠] ، وهنا تقع مزارع تضم كل أنواع الشجر ، ولا سيما الجوز . والأهالي هنا أغنياء ، ولديهم عدد طيب من الخيول . كما أنهم لا يدفعون أية ضريبة للعرب ، بل إنهم في حرب دائمة معهم ويقتلون كثيراً منهم . وينقل أهل القرى المجاورة كل حبوبهم إلى داخل هذه المدينة خوفاً من أن يسطو عليها العرب . ولسكان تيسيغدلت عادات ممتازة فيما يتعلق بالكرم والمؤانسة . وهكذا يكلف حرّاس أبواب المدينة بسؤال كل غريب يصل إليها فيما إذا كان له صديق في المدينة . فإذا أجابهم بالنفي ، كان على هؤلاء الحراس أن يستضيفوه ، بحيث يلقى كل غريب ، وبدون أن يدفع شيئاً ، استقبالاً حفيّاً كريماً . وتكاد قلوب رجالهم تتوقد غيرة على نسائهم ، ولكنهم يحافظون كل المحافظة على قواعد دينهم ، ولهم في قلب المدينة جامع بديع جداً ، يشرف عليه بضعة فقهاء . ولديهم قاض راسخ القدم في الشريعة ، ويفصل في كل القضايا باستثناء ما يتعلق بالأضرار الناجمة عن السحر .

وتقع كل الحقول المبذورة بالحبوب في الجبل . وقد أمضيت في هذه المدينة عشرة أيام مع الأمير الشريف في عام ٩١٩ هـ[٣١] .

مدينة تغتسة

تغتسّة مدينة قديمة أقيمت فوق جبل عال جداً مستدير الشكل . ويخرج الانسان من هذه المدينة بالدوران حولها كسلّم لولبي . وتقع على مسافة أربعة عشر ميلاً[٣٢] من تيسيغدلت . ويمر من أسفل المدينة نهر يشرب منه أهلها . ويقع هذا النهر على مسافة ستة

(٢٨) لقد اختفت المدينة المذكورة ويحمل الجبل على الخرائط اسماً مشوّهاً هو لالاتا سنديت . ولكن موقعها لا يماثل ، في الواقع ، مطلقاً موقع « أورته » التي تقع في منطقة من التلال ، في حين أن تيسيغدلت ترتفع إلى حوالي ١٣٠٠ م فوق سطح البحر .

(٢٩) ٢٠ كم .

(٣٠) هو وادي ايغرونزار .

(٣١) سنة ١٥١٣ م .

(٣٢) ٢٢,٥ كم .

أميال[٣٣] من المدينة . وتظهر المدينة لمن يقف على ضفة النهر كأنها تقع على مسافة ميل ونصف . وتنزل النسوة إلى النهر عن طريق درب ضيق منحوت بالمعول في الصخر على شكل أدراج السلم[٣٤] .

وسكان هذه المدينة قتلة في حالة نزاع دائم مع جميع جيرانهم . وتقع أراضيهم الزراعية وماشيتهم في الجبل . وجميع الأحراش المحيطة بهذه البلدة مليئة بالخنازير البرية . ولا يوجد أي حصان في تغتسّة . ولا يستطيع العرب عبور المدينة ولا إقليمها بدون إذن خاص وورقة أمان .

ولقد مررت راجلاً من هذا المكان في عام كانت فيه أعداد هائلة من الجراد تجتاح المنطقة بينما كان القمح على سنابله . وكان الجراد أكثر من السنابل ضعفين ، بحيث لم تمكن رؤية الأرض بسهولة . وكن هذا في عام ٩١٩ هـ[٣٥] .

آيت دوّاد

آيت دوّاد مدينة قديمة شيّدها الأفارقة فوق جبل عالٍ . ولكن يوجد في قمة الجبل المذكور سهل بديع جداً . وتقع على مسافة خمسة عشر ميلاً[٣٦] إلى الجنوب من تغتسّة . وفي وسط المدينة بضعة ينابيع من ماء رائق سريع الجريان شديد البرودة[٣٧] . وتتألف ضواحي البلدة من جروف صخرية وغابات غير مألوفة ومفزعة . وتنمو بين هذه الصخور أعداد كبيرة من الشجر .

وفي هذه المدينة الكثير من الصناع اليهود الذين يمارسون الحدادة وصنع الأحذية والصياغة والصباغة . ويقال أن قدامى السكان كانوا يهوداً من نسل داوود . ولكنهم ما لبثوا أن اعتنقوا الدين الإسلامي بعد احتلال العرب هذه البلاد . وكثير من هؤلاء السكان

---

(٣٣) ١٠ كم .

(٣٤) لقد اختفت هذه المدينة ، ولكن يجب أن يساعد موقعها الفريد على العثور على بقاياها .

(٣٥) في بداية صيف عام ١٥١٣ م . ويذكر تامبورال وهو أول من ترجم كتاب « وصف أفريقية » إلى الفرنسية طبعة ليون ١٥٥٥ م ص ٥٦ بتاريخ ٩٠٠هـ . وهذا خطأ طبعاً .

(٣٦) ٢٤ كم .

(٣٧) لقد اختفت هذه البلدة ، ولكن عشيرة دوّاد ، وتسمّى باللهجة الدارجة آيت داوود ، وهم فخذ من عشيرة آيت آو بوزية ، لا يزالون يقيمون في نفس الناحية .

راسخو القدم في علوم الشريعة . ولأكثرهم ذاكرة ممتازة في مسائل الفقه الإسلامي . وقد عرفت رجلاً هرماً يحفظ عن ظهر قلب كتاباً يدعى « المدوّنة »[٣٨] ومعناه « جامع الشرائع » الذي يضم ثلاثة كتب عولجت فيها أصعب المسائل الفقهية على مذهب مالك[٣٩] . وهذه المدينة عبارة عن محكمة ترسل إليها كل الدعاوي . ففيها يفصل في الادعاءات ، والاعلانات ، والاتفاقات ، والعقود . . . الخ . ومن أجل ذلك يقصدها جميع أهالي المناطق المجاورة . والفقهاء هم الذين يقومون بمهمة الإدارة المدنية والإدارة الدينية . ولكن السكان لا يذعنون لآرائهم في القضايا ذات الأهمية الكبرى ، ولا يفيدهم حينئذ علمهم شيئاً . وعندما قصدت هذه المدينة نزلت في ضيافة محام ، في منزله . واتفق في إحدى الأمسيات أن كان عنده عدة فقهاء اجتمعوا بعد العشاء ، وبدءوا يتناقشون فيما إذا كان يجوز لولي الأمر أن يبيع ما يملكه فرد ما لتحقيق مصلحة عامة أو لحاجة الدولة إلى ذلك . وكان من الحضور شيخ كبير قام بتلخيص هذا النقاش والفصل في هذا الموضوع ، وكان يدعى الجزار . وعند سماع كنيته هذه طلبت اليه معنى هذه الكنية ، فأجابني أن معناها « القصّاب » وأضاف : « السبب في ذلك ، أنهم شبهوني بالقصاب ، فكما أن القصاب قد اعتاد العثور على مفاصل الحيوانات ، فإنني اعتدت العثور على فصل الخطاب في قضايا الفقه الإسلامي » !! وحياة أهالي آيت دوّاد قاسية جداً على العموم . فهم يتغذون بالشعير وزيت الهرجان ولحم الماعز . والقمح غير معروف لديهم . ونساؤهم جميلات وجسومهن ملونة . والرجال أقوياء البنية ، ولهم بطبيعتهم صدور كثيفة الشعر . وهم كرماء للغاية وغيورون لأقصى الحدود على نسائهم .

قليعة المريدين

وهي قلعة صغيرة واقعة في قمة جبل شديد الارتفاع بين جبال لها نفس الارتفاع . وتوجد في كل هذه الجبال صخور هائلة محاطة بغابات كثيفة جداً . ولا يمكن الارتقاء الى هذه القلعة إلاّ بسلوك درب ضيق على خاصرة الجبل . فمن ناحية نجد جروف الصخور ومن طرف آخر جبل تيسيغدلت، الذي لا يبعد اكثر من ميل ونصف .[٤٠] وتقع آيت دوّاد

(٣٨) تأليف العالم التونسي سحنون ، وهي من أشهر المؤلفات في مذهب الإمام مالك .

(٣٩) الإمام مالك بن أنس .

(٤٠) ٢,٥ كم .

على مسافة ثمانية عشر ميلا[٤١] من هذا الموقع [٤٢]. وقد شيّدت هذه القلعة في عصرنا من قبل عمر السياف[٤٣] ، وهو متمرد وزعيم للرافضة . وقد كان في البداية واعظاً ، وبعد ان جمع حوله عدداً كبيراً من المريدين الذين دانوا له بالطاعة ، تحوّل الى طاغية مخيف جبار . واستمرت سلطته مدة اثني عشر عاما . وقد تسبب في خراب هذه البلاد . وانتهى أمره بأن قتلته احدى نسائه حينما وجدته متلبسا بمقاربة إبنة لها من زوج آخر . وحينئذ أدرك الناس أن هذا الرجل كان فاسقاً لا إيمان له ولا شريعة . فثار الشعب بعد موته وضربت أعناق الذين اتّبعوا مذهبه . وقد ترك عمر هذا حفيداً استولى على القلعة وصمد لحصار الثوار وكل سكان حاحة مدة عام ، حتى يئسوا وفكوا الحصار . ولا يزال هذا الرجل صامداً حتى اليوم أمام عداوة أهل حاحة وخصومه وكل جيرانه تقريبا . ويعيش على السلب ويهاجم فرسانه كل من يمر قرب قلعتهم . ولما كان في حالة مطاردة مستمرة فهو ينقضّ تارة على الماشية فينهبها وتارة أخرى على الناس فيقتلهم ويسلبهم ويستعين في مغامراته هذه بفرقة من رماة البنادق . ولما كان الطريق العام يقع على مسافة ميل واحد من القلعة فهؤلاء يرمون ببنادقهم ويجرحون أو يقتلون المارة البؤساء . وهذا الحاكم ممقوت من الجميع ولهذا لا يستطيع ان يزرع أو يحرث أو أن يحكم شبراً واحداً من الأرض في خارج جبله . وقد دفن جثمان جده في القلعة بصورة مكرمة جداً وراح يبجّله كأنه ضريح أحد الأولياء الصالحين . وقد مرّ كاتب هذه الأسطر من أمام هذه القلعة مع فرسان الأمير الشريف ، فقتل رماة القلعة بعض هؤلاء ، ولكنهم عجزوا عن القبض على أي واحد منهم . وعلى أثر ذلك تحادث المؤلف مع بعض الاشخاص الذين كانوا من اتباع « عمر » المذكور والذين سردوا له حياة هذا الرافضي واطلعوه على نظرياته المعادية للشريعة العامة . وقد سجل ذلك في مختصره عن التأريخ الإسلامي .

ايغيلنغيغيل . مدينة من حاحه

ايغيلنغيغيل[٤٤] هي مدينة صغيرة في الجبل بناها قدماء الأفارقة . وتقع تقريباً على

---

(٤١) ٣٠ كم .

(٤٢) هذه الأرقام الدقيقة هي التي سمحت بالافتراض بأن قليعة المريدين ، واسمها بالبرتغالية « كاستيللودس مورديايس » كانت تقع في مكان قصبة تاما لوكت الحالية .

(٤٣) عمر بن سليمان الشياظمي والملقب بالسيّاف .

(٤٤) موقع غير محدد .

مسافة ستة أميال(٤٥) جنوب آيت دوّاد . وفيها قرابة اربعمائة أسرة وفي هذه المدينة بعض الصناع الذين يقومون بالأعمال الضرورية لحاجات الحياة العادية . والأراضي المحيطة بالمدينة أراض ممتازة لزراعة الشعير . وهنا يكثر العسل وزيت الهرجان . ولا سبيل لصعود المدينة إلا عن طريق درب صغير على خاصرة الجبل ، وهو درب ضيق ورديء جداً بحيث لا يمكن السير فيه راكباً إلا بمشقة . والسكان رجال على درجة عالية من الشجاعة عندما يكونون شاكين سلاحهم ، وهي في حالة نزاع مستمر مع العرب ، ولكن أهلها دوماً منتصرون على هؤلاء بسبب موقع المدينة الحصين جداً . وتصنع في هذه المدينة مقادير كبيرة من الاواني التي تباع في مختلف المدن ، ولا أظن انه يصنع مثلها في أي مكان آخر من المنطقة .

تفتنة . مدينة وميناء في حاحه

تفتنة ميناء على المحيط(٤٦) على مسافة أربعين ميلا(٤٧) الى الغرب من ايغيلنغيغيل ، وقد بنيت هذه المدينة على أيدي الأفارقة . وفيها قرابة ستمائة عائلة . ويقوم هنا ميناء جيد جداً بالنسبة للسفن الصغرى . ومن عادة بعض التجار البرتغاليين التردد عليه لمقايضة بضائعهم مقابل الشمع وجلود الماعز . ومعظم الريف المجاور لها جبلي ، وينبت فيه الشعير بوفرة . ويمر من جوار المدينة نهر صغير يكون مصبه مرسى طيباً عند هبوب عواصف البحر . ويوجد في تفتنة مصلحة مكس ومصلحة جباية ضريبة الملح ، وتوزع جبايتهما على الرجال القادرين على الدفاع عن المدينة . ونجد هنا فقهاء وقضاة . ولكن القضاة غير مؤهلين للبت في قضايا القتل والجروح . وإذا ارتكب أحد السكان إحدى هاتين الجريمتين فإن أهل المجني عليه يقتلونه إذا عثروا عليه . وإلا فإن القاتل يحكم عليه بالنفي لمدة سبعة أعوام ، وفي ختام هذه المدة يدفع غرامة لأهل القتيل(٤٨) . وحينئذ تسقط عنه عقوبة النفي . ولسكان تفتنة بشرة بيضاء جداً . وهم ألوفون ومحبّبون . ويختصون الغرباء عندهم بمعاملة تفوق معاملتهم لأبناء بلدتهم ذاتها . ولديهم مضافة لإيواء الغرباء ، مع أن هؤلاء يتمتعون في الغالب بضيافة أناس من الأهلين . وقد قصدت هذه

(٤٥) ١٠ كم .
(٤٦) المحيط ويقصد به دوماً بحر الظلمات ، أو المحيط الأطلسي .
(٤٧) ٦٥ كم .
(٤٨) الدّية .

المدينة بصحبة الأمير الشريف ، ومكثنا فيها ثلاثة أيام خلتها مثل هذا العدد من السنين ، وذلك بسبب البراغيث التي تجل عن الحصر ، وبسبب رائحة بول الماعز وبعره . ويملك كل حضري فيها كمية من الماعز : ففي النهار يذهب الماعز للرعي وفي الليل يبيت في دهاليز البيوت وترقد بجوار أبواب الغرف .

ايد او اكال . أول قسم من جبال الأطلس

وهكذا أنجزت للتو وصف المدن الهامة في حاحه . ويبدو لي أن من المناسب ان أتكلم الآن عن الجبال ، دون إغفال ما يتراءى لي أنه يستحق الذكر وذلك لأن غالبية سكان حاحه يسكنون في الجبال ، ويقيمون فيها باستمرار .

والجزء الأول من جبال الاطلس هو جبل عشيرة ايد آو آكال .(٤٩) ويبدأ عند المحيط ويمتد شرقاً حتى ايغيلنغيغيل . ويفصل منطقة حاحه عن منطقة السوس . ويبلغ عرضه مسافة ثلاثة أيام على الطريق ، لأن تفتنة واقعة على رأس الساحل باتجاه الشمال وماسّه على الرأس الساحلي باتجاه الجنوب . وقد قضيت ثلاثة ايام للذهاب من تفتنة الى ماسّه.(٥٠)

وهذا الجبل كثيف السكان ويضم الكثير من القرى والمداشر (٥١) . ويعيش السكان فيه من تربية الماعز ، ومن الشعير والعسل . ولا يلبسون أية ثياب مخيطة بالإبرة(٥٢) ، إذ لا يوجد بينهم من يعرف الخياطة بل يلفّون أجسادهم كلها قدر استطاعتهم بقماشة واحدة . ومن عادة النساء وضع حلقات كبيرة جداً من الفضة في آذانهن . ولبعضهن أربع حلقات في كل أذن . ويستعملن ايضاً أنواعاً من دبابيس كبيرة حتى ليزن الواحد منها أونساً واحداً(٥٣) لتثبيت الثياب على أكتافهن . كما يحملن كذلك خواتم من فضة بأصابعهن ،

---

(٤٩) لقد اختفى اسم ايد آو آكال ، وربما كان ايد آو ايغوال ، اسم لعشيرة صغيرة تسكن على مسافة عشرة كيلومترات الى الشمال من تفتنة .

(٥٠) وهنا يبدأ خطأ المؤلف جسيماً . صحيح انه أمضى ثلاثة أيام للذهاب من تفتنة إلى ماسّه ، ولكن اجتيازه الكتلة الجبلية لم يستغرق سوى يومين للوصول الى واد السوس . وسنرى فيا بعد انه تصور ، لضعف ذاكرته ، أن وادي السوس يمر من ماسّه .

(٥١) مداشر جمع مدشر ، ويعني تجمعاً سكانياً يقل عن القرية ولا يتجاوز العشرين عائلة . والعبارة مستعملة في المغرب العربي . (المترجم) .

(٥٢) لقد لاحظ المترجم ذلك لدى نساء سكان جبل الأخضر البدو في إقليم برقة في ليبيا ، وهم من قبيلتي البراعصة والعبيدات ، وذلك في عام ١٩٦٤ م . (المترجم) .

(٥٣) أكثر من ٢٨ جرام .

وأطواقاً من فضة كذلك بكاحلهن . ولكن هذا مقصور على نساء الوجهاء والأغنياء . أما نساء العامة والفقراء فيضعن هذه الزينة من حديد أو من نحاس . ونرى هنا بعض الخيول ولكنها صغيرة الحجم ، ولا تحذى بالحديد ، وهذه الحيوانات رشيقة جداً فتقفز من أعلى لأسفل كالقطط . وتكثر هنا الأرانب والتيوس الجبلية(٥٤) والوعول(٥٥) ولكن سكان الجبال لا يعترضون أبداً سبيل هذه الحيوانات وبهذه المنطقة عدد كبير من العيون ومن الاشجار المثمرة ، ولا سيما الجوز .

ومعظم هؤلاء السكان كالأعراب ينتجعون من منطقة لأخرى . أما فيما يتعلق بالسلاح فإن رجالهم يحملون خناجر عريضة معقوفة . ولسيوفهم نفس الشكل مع ظهر عريض مثل المنجل الذي يستخدم في إيطاليا لحصد الكلأ . وعندما يذهبون للحرب يحملون في أيديهم ثلاث أو أربع حراب . ولا يوجد في المنطقة قاض أو فقيه ، ولا أي شخص يعرف العقيدة الدينية . وهم على العموم أناس أشرار وغدارون . وقد قيل للأمير الشريف بحضوري أن سكان هذا الجبل يستطيعون ان يقدموا عشرين ألف مقاتل .

جبل دمنسرة

يؤلف هذا الجبل أيضاً جزءاً من جبال الاطلس . ويبدأ من تخوم الجبل السابق ويمتد شرقاً على مسافة خمسين ميلاً(٥٦) حتى جبل نيفيفة ، في منطقة مراكش (٥٧) . ويفصل قسماً كبيراً من منطقة حاحة عن السوس . وعند احدى نهايته يقع الممر الذي يجتازه الناس للذهاب إلى منطقة السوس (٥٨).

وهذا الجبل آهل جداً بالسكان ، ولكنهم أناس أجلاف شرسون ، ولديهم الكثير من الخيل . وكثيراً ما يحتربون مع جيرانهم ومع العرب لمنعهم من الدخول الى منطقتهم . ولا نجد هنا مدينة أو قصراً أو بيتاً منعزلاً ، بل العديد من القرى والمداشر . ونجد بين

---

(٥٤) الغزلان .

(٥٥) لم يحدد نوع هذه الوعول على الدقة .

(٥٦) ٨٠ كم .

(٥٧) تقع منطقة عشيرة « أنفيفة » الحالية في شمالي أراضي عشيرة « دمنسرة » ، بين وادي آمجنف الى الغرب ووادي ايمينتانوت شرقاً .

(٥٨) وهو ممر بيباؤ ون .

ظهراني السكان الكثير من الوجهاء الذين تدين العامة لهم بالطاعة . وتعتبر أراضيهم ممتازة لزراعة الشعير والدخن . وتوجد فيها ينابيع عديدة تتولد عنها أنهار تهبط الى الأودية وتصب في نهر شفشاوة .[٥٩] والناس هنا جيدو الهندام ، ويستخرجون من أرضهم كمية كبيرة من الحديد الذي يباع في أماكن مختلفة مما يوفر لهم المال النقدي . ويتجول عدد كبير من اليهود على الخيل في هذا الجبل ، وهم يحملون السلاح ويحاربون لحساب رؤسائهم من سكان جبلهم . ويعتبر هؤلاء اليهود في نظر سائر يهود افريقيا الآخرين خارجين عن العقيدة الصحيحة ويسمّون كارائيم[٦٠] .

وتظهر في هذه الجبال أشجار بطم وبقص ضخمة وكذلك أشجار جوز عملاقة . ويخلط سكان البلاد الجوز مع لوز الهرجان ويستخرجون منهما زيتاً يميل للمرارة يتغذون به ويستضيئون .

وقد مررت بهذا الجبل عند عودتي من السوس فاستقبلت استقبالاً طيباً جداً وكنت موضع رعاية بفضل كتب التوصية التي كنت أحملها من الأمير الشريف وذلك في عام ٩٢٠ هـ[٦١] .

جبل الحديد

لا يؤلف هذا الجبل شطراً من الأطلس . ويبدأ من المحيط شمالاً ويمتد جنوباً حتى نهر تانسفت[٦٢] . وهو يفصل منطقة حاحة عن إقليم مراكش[٦٣] وعن إقليم دكالة . وتسكن هذا الجبل عشيرة تدعى رقراقة[٦٤] .

---

(٥٩) ويسمى حالياً شيشاوه .

(٦٠) لقد تلاشت الكرائية (القراءون) من البلاد ، ولكن « يهود البارود » الذين يحملون السلاح ، لا يزالون دوماً موجودين ، ويتميزون بوضوح عن أبناء ديانتهم الآخرين بمسلكهم .

(٦١) في حزيران أو تموز (يونية أو يولية) سنة ١٥١٤ م .

(٦٢) هذا غير صحيح . فلهذا الجبل اتجاه من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي ابتداء من ضفة نهر تانسفت اليسرى .

(٦٣) خطأ كلي .

(٦٤) هناك رسالة مؤرخة ٢ تموز (يولية) ١٥٠٩ م موجهة من سكان آسفي الى ملك البرتغال عمانوئيل الأول توضح بالفعل « أن عشيرة عرب العبدة تؤلف مع عشائر الرقراقة ورتنانة (عند مصب نهر تانسفت حيث كانت تقوم مدينة آقوز) وعشيرة دكالة ، وجميعاً بربرية ، تؤلف « لفّاً » واحداً (أي حزباً) » . وكان عرب حريت القاطنين على ضفة تانسفت اليمنى والمرامر في جنوبي السهل المأهول بهؤلاء العرب يتبعون ايضاً مدينة آسفي

وفي هذا الجبل غابات كبيرة وكثير من الينابيع . ويكثر هنا العسل وزيت المرجان . ولا تنتج المنطقة سوى القليل من القمح ، وتستورد ما تحتاج إليه منه من دكالة . والناس هنا فقراء ، وهم فضلاء وتقاة . ويسكن في قمة الجبل العديد من الزهاد الذين يعيشون على الثمار والماء . وهؤلاء الجبليون اوفياء ويجنحون للسلم . وعندما يرتكب احدهم سرقة صغيرة أو أية مخالفة أخرى ، ينفى من المنطقة لبعض الوقت . وهم سذج إلى حدّ يفوق الوصف . فعندما يصدر من أحد نساكهم عمل ما يعتبرونه معجزة . ولكن العرب المجاورين يسببون لهم الكثير من المتاعب ، لهذا يدفع لهم هؤلاء السكان ضريبة كي يتركوهم بسلام . وقد جرد ملك فاس محمد[٦٥] حملة ضد هؤلاء العرب فلجأوا إلى الجبل ، ولما شعر هؤلاء الجبليون بالقوة بفضل مساعدة الملك ، هاجموا هؤلاء العرب في المضائق الجبلية ومزقوهم شر ممزق بمعونة القوات الملكية . وبعد المعركة غنم هؤلاء الجبليون خيول العرب الذين قتلوا ، وكان عددها ثلاثة آلاف وثمانمائة رأس وقدموها للملك . ولم يعد الجبليون يدفعون أي جزية . وقد شهدت هذه المعركة عندما كنت في جيش الملك ، في عام ٩٢١هـ . وكان عدد المحاربين القادمين من هذا الجبل حوالي اثني عشر ألفاً[٦٦] .

ويوجد في حاحه بضعة جبال أخرى ، ولكنها غير مأهولة . ولهذا لم أتكلم عنها خشية ان أجعل هذا الكتاب مفرط الطول أو مملاً بصورة زائدة .

السوس

سنعرض الآن للكلام عن منطقة السوس . وتقع هذه المنطقة فيما وراء الأطلس باتجاه الجنوب ، تجاه منطقة حاحه ، أي عند نهاية بلاد البربر . وتبدأ عند المحيط غرباً وتنتهي في رمال الصحراء جنوباً . وتنتهي شمالاً عند الأطلس ، عند تخوم بلاد حاحه . وتنتهي في الشرق في النهر المسمى نهر السوس الذي استمدت المنطقة منه اسمها[٦٧] .

---

(٦٥) أبو عبد الله محمد السعيد الملقب بالبرتغالي .

(٦٦) لا تتكلم الوثائق البرتغالية شيئاً عن هذه المعركة الهامة التي لا يمكن أن تقع إلا في أواخر حزيران أو تموز (يونية أو يولية) ١٥١٥ م . وسنرى أن المؤلف الذي يغادر المغرب نهائياً في آب ١٥١٥ م لم يستطع أن يعرف ما إذا كان سكان جبل الحديد ظلوا على دفع الجزية للعرب بعد ذلك او امتنعوا عن دفعها .

(٦٧) لا نعرف مصدر اسم سوس . وربما اتى أصلاً من كلمة حصان ، لأن المنطقة مشهورة بتربية هذا الحيوان . وفي البداية =

وسأبدأ من الغرب وسأتكلم على كل مدينة وعلى كل موقع هام على حدة .

مدينة ماسّه

وتتألف من ثلاث مدن صغرى تبعد الواحدة عن الأخرى بحوالي الميل الواحد ، وقد بناها قدامى الأفارقة على ساحل المحيط عند حضيض الرأس الذي يؤلف بداية جبال الاطلس . وهذه المدن محاطة بأسوار من الطوب النيء ، ويمر نهر السوس الكبير من بينها . ويُعبر هذا النهر خوضاً في الصيف ، ولكن لا يمكن اجتيازه شتاءً إلا في مراكب صغيرة ليست مهيأة كل التهيئة لمثل هذه المهمة (٦٨) . وتقع هذه المدن الصغرى في غابة تختلف عن الغابات المعهودة بأنها مجموعة كبيرة من النخيل يملكها هؤلاء السكان . ولكن تمور هذه النخيل ليست جيدة إذ لا يمكن حفظها على مدى العام (٦٩) . وكل سكان «ماسّه» فلاحون يحرثون أراضيهم في أعقاب فيضانات النهر التي تقع في شهر أيلول (سبتمبر) وفي أواخر نيسان (إبريل) (٧٠) . وتحصد الحبوب في حزيران (يونية) . وإذا لم يحدث فيضان في أحد هذين الشهرين فإن المحصول ينعدم تماماً . وتندر الماشية هنا . ويقوم في خارج «ماسّه» على ضفة البحر ، جامع له مكانة كبيرة في نفوس السكان . ويقول بضعة مؤرخين أن من هذا الجامع سيخرج الخليفة العادل الذي تنبأ به الرسول محمد(٧١) .

= كانت كلمة سوس تعني مجموع المغرب (السوس الأدنى) ، ولكن هذا الاسم انحصر فيما بعد بالمنطقة الواقعة جنوبي الاطلس (ل . ماسينيون ، ١٩٠٦ ، ص ١٩٣) .

(٦٨) لقد تبينَّ أن ماسّه كانت تتألف من ثلاثة أحياء ضخمة تحمل بلا شك الاسماء الحالية : أغبالو ، آغادير نسوق ، وتاسلنوت . ولكنها قريبة من وادي ماسّه وليس من وادي السوس .

(٦٩) « ملاحظة هامة جداً وهذا يصح بالنسبة لكل النخيل الذي نجده بجوار سواحل البحر في كل البلاد العربية ، حتى إن بعض النخيل تكون وظيفته الأساسية تقديم السعف أو الجريد لاستعماله في صيد السمك ، كما في البحرين وجنوب تونس » (المترجم) .

(٧٠) تنجم فيضانات أيلول عن الأمطار الخريفية ، أما فيضانات نيسان فتسبب عن ذوبان ثلوج جبال الأطلس . (المترجم) .

(٧١) وقد أشار اليعقوبي لهذا الجامع منذ أواخر القرن التاسع هجري تحت اسم جامع البهلول . ويقول لنا الجغرافي العربي أن السفن الناقلة للحبوب والمصنوعة في الأبلة في صدر الخليج الفارسي (العربي حالياً) كانت تقطر بحراً لهذا المكان ، ومن هنا كان يركب التجار للذهاب الى الصين . وقد جعلت هذه الجملة الشارحين في حالة حيرة . ويمكن مقارنة هذا القول مع ما يذكره لنا الجغرافي ابن خرداذبة ، الذي اعتمد على مراجع النصف الأول من القرن التاسع الميلادي عن الرضبانية (الرودانيين أي سكان وادي الرون) ، وهم هؤلاء التجار اليهود المدهشون ، الذين كانوا ينطلقون بلا شك من مدينة آرل بجنوبي فرنسا ، ذاهبين أولاً الى السوس الأقصى ، ومن ثم يتجهون الى مصر مروراً ببلاد البربر ، وثم إلى سورية والعراق وفارس والسند كي

ويقال أيضاً ان الحوت عندما ابتلع النبي يونس ، لفظه تجاه ساحل ماسّه . وتتألف أخشاب هذا الجامع كلها من أضلاع الحوت ، وكثيراً ما يحدث أن يهيج البحر فيقذف على الشط الرملي بضعة حيتان ميتة . وتسبب هذه الحيتان الخوف لكل من يراهـا بسبب ضخامـة أجسامها ومنظرها المشوّه . ويقول الأهلون ان كل حوت يمر من جوار هذا الجامع يموت بسبب الكرامة التي منحها الله لهذا الجامع . وقد صعب عليّ تصديق ذلك لولا انني كنت أشاهد يومياً اكثر من حوت ميت يطفو على الماء ، ولم أكن أعرف تفسيراً لهذه الظاهرة . ولكن بعدئذ ، وعلى أثر محادثة مع شيخ يهودي من البلدة ، قال لي : ليس في ذلك شيء من الدهشة ، إذ تقع على مسافة ميلين من الساحل تقريباً بعض الصخور الحادة على شكل عقبات . وعندما يكون البحر هائجاً تسبح الحيتان هنا وهنالك والذي يرتمي على إحدى هذه الصخرات ويصطدم بها يتعرض لرضوض قاتلة تؤدي به إلى الموت من تأثيرها . ولهذا السبب يقذفها لهذه الظاهرة مما سمعته من جمهرة الناس .

ولقد ذهبت الى ماسّه في أيام الأمير شريف ، ودعاني أحد الوجهاء لتناول الغذاء معه في بستان خارج المدينة ، فصادفنا على طريقنا ضلع حوت وضع هناك على شكل قوس ، ومررنا من تحت هذا القوس كما نمر من تحت قنطرة باب وكنا راكبين جمالا ، دون ان يمس القوس رأسنا بسبب شدة ارتفاعه . ويقال ان هذا الضلع لا زال هنا منذ حوالي مائة سنة ويحتفظ به تحفة غريبة . هذا ويعثر في هذه المنطقة ، وذلك على شط البحر ذاتـه ، على العنبر من الصنف الأول ، ويباع بثمن بخس الى التجار البرتغاليين وإلى تجار فاس ، بسعر يقارب ديناراً واحداً لكل أونس [٧٢] ويقول الكثيرون أن الحوت هو الحيوان الذي يفرز العنبر . ويقول بعضهم أنه عبارة عن برازه ، ويقول آخرون أنه المني الـذي يسيل من أعضاء الذكر التناسلية ، عندما يريد الاقتراب من الأنثى ومن ثم يتصلب في الماء [٧٣] .

يصلوا الى الصين . وتتفق كل هذه الوثائق القديمة على اعتبار السوس منطقة مزدهرة . في صورة تسترعي الانتباه .أما النبوءة أو الحديث المتعلق بالفاطمي او المهدي المنتظر ، فقد استخدمها أحد الصوفيين الذي جاور في هذا الجامع ونادى بالمهدي المنتظر ، مما أدى الى هيجان عظيم من البربر ، مما دفع بزعيم البلاد لتدبير اغتياله .

(٧٢) ٢٨,٢٥ جرام .

(٧٣) يقول المؤلف في الكتاب التاسع انه استناداً الى أقوال سكان الساحل فإن حوت كاشالوCachalot هو الذي يفرز العنبر الرمادي .

تيوّت، مدينة في السوس

تيوّت مدينة قديمة بناها الأفارقة في سهل بديع جداً . وتقسم الى ثلاثة أجزاء ، يبتعد كل واحد عن الآخر بحوالي الميل ، فتشكل مثلثاً . وتضم إجمالاً حوالي ألف عائلة . ويمر نهر السوس من جوارها [٧٤]. وتنتج هذه المنطقة الوفير من القمح ، والشعير وحبوباً أخرى وبقلاً . كما تنمو فيها كمية كبيرة من قصب السكر . ولما كانوا يجهلون طبخه وتصفيته ، فإن سكرّهم يكون اسود اللون . ويأتي تجار كثر من فاس ومن مراكش ومن بلاد السودان لشراء السكر من تيوّت وفيها أيضاً كمية طيبة من التمور .

والنقد الوحيد المتعارف عليه هنا هو الذهب الصافي[٧٥] . ولا يوجد في المنطقة سوى القليل من الفضة ، والنسوة هن اللواتي يحملن هذا القليل من الفضة على شكل حلى ، وعوضا عن الربعيّة[٧٦] يتداول الأهالي قطعاً من حديد وزن الواحدة حوالي أونسة .

ولا نجد سوى القليل من الفاكهة فيما عدا التين والعنب والتمر . والزيتون لا ينمو هنا . ولكن يجلب اليها الزيت من بعض جبال مراكش ويباع في السوس بسعر خمسة عشر ديناراً للقنطار الذي يعادل مائة وخمسين رطلاً إيطاليا . ونظراً لعدم وجود عملة مسَكوكة ، فإن أونسة الذهب تعادل سبعة دنانير وثلث دينار . والأونسة هي نفس الأونسة الإيطالية ، ولكن الرطل يعادل ثماني عشرة أونسة ، ومائة رطل تعادل قنطاراً والسعر العادي للشحن ، عندما لا يكون غالياً ولا رخيصاً جداً ، هو دينار واحد لكل ثلاثة أحمال إبل ، ويزن كل حمل مائة وخمسين رطلاً إيطاليا ، هذا في أثناء فصل الشتاء ، أما في الصيف فإن أجر خمسة أو ستة أحمال يبلغ ديناراً واحداً [٧٧] .

---

(٧٤) تقع تيوّت جنوب شرق تاردونت .

(٧٥) أي التبر ، أو شذرات الذهب .

(٧٦) أي الكواترين ، وهي نقود إيطالية تساوي الواحدة منها ٣ سنت من الذهب .

(٧٧) تسمح هذه التوضيحات بإجراء الحسابات التالية : الأونس الايطالي يزن ٢٨,٢٥ جراماً ، والرطل المؤلف من ١٢ أونسة يعادل إذن ٣٣٩ جراماً . وكان الرطل المؤلف من ١٨ أونسة يعادل ٥٠٨,٦ جرامات ، والقنطار المؤلف من ١٠٠ رطل يساوي ٥٠,٨٦ كيلوجراماً . وكان حمل الجمل ، وهو وحدة وزن كانت تدعى الوسق في ذلك العصر ، وهي كلمة لم يعد لها أي معنى في أيامنا ، كانت تعادل ٤٦٥ رطلاً أي قرابة ٢٣٧ كيلو جرام .

ويصنع في مدينة تيوّت القرطواني الفاخر[٧٨] الذي يسمى المراكشي في إيطاليا . وتباع هذه الجلود بستة دنانير لكل اثني عشر ، وفي فاس بمبلغ ثمانية دنانير [٧٩] .

وفي الجزء التابع لمنطقة تيوّت والذي يقع من طرف الاطلس باتجاه الجنوب [٨٠] تكون بقاعُه المجاورة مزدانة بالعديد من القرى والمداشر ، ولكن في اتجاه الغرب تصبح هذه المنطقة خاوية لان السهل يكون هنا بيد العرب . ويوجد في وسط تيوّت جامع فسيح يدعى الجامع الكبير ، وقد أجري في وسطه فرع من النهر . ورجال هذه البلدة بطبيعتهم رهيبون ويعيشون باستمرار في حالة حرب فيما بينهم ، ومن النادر ان يقيموا في سلام . ولكل من أجزاء المدينة الثلاثة زعيم ، وتتألف الحكومة من مجلس يضم الثلاثة ، ولكن منصبهم لا يدوم اكثر من ثلاثة أشهر . وكساء اكثرية الناس هنا مثل اهل حاحه . ويلبس بعضهم الجوخ الصوفي ، ويلبسون قميصاً ويضعون عمامة فوق رأسهم ، وهي من قماش أبيض .

وتساوي قيمة الكنا[٨١] من جوخ خشن ، مثل الفيجيت[٨٢] حوالي دينار ونصف . أما قطعة قماش الكتان البرتغالي أو الفلمنكي ، من النوع المتوسط الخشونة ، فتساوي أربعة دنانير ، وطول كل قطعة أربعة وعشرون ذراعاً توسكانياً [٨٣] .

وفي هذه المدينة قضاة وفقهاء لا طاعة لهم إلا في المادة الدينية . أما في الدعاوى المدنية فإن الذي عنده أقارب اكثر هو الذي يتمتع بحظوة أعظم . وإذا حدث وقتل رجل ما آخر ، فإن أقارب القتيل لهم الحق في قتله وهنا تكون القضية قد انتهت . وإذا لم يكن بمقدورهم قتله ، فإن هذا القاتل ينفى من البلد لمدة سبعة أعوام ، أو يبقى في المدينة رغماً عنهم . وإذا أبعد عن البلد فهذا هو عقابه ، وعند انقضاء مدة النفي يقوم بصنع وليمة

---

(٧٨) نسبة إلى قرطبة التي اشتهرت بصناعة الجلود والأحذية واسمها بالاسبانية كوردوبا ، واسم صانع الأحذية بالفرنسية كوردونييه ومنها كلمة قندره وقندرجي العاميتين . (المترجم)والقرطواني هو جلد الماعز او الضأن المدبوغ بالعفص مع زهرته ، والماروكان الذي يدعى في المغرب الفلالي ، حالياً ، هو جلد الماعز المدبوغ بمادة تاكاءوت ، وهي نواة عفص الطرفاء .

(٧٩) لم يقدم المؤلف أي توضيح عن المثقال أو الدينار في فاس ، ولكن يبدو أنه شبّهه بالدوكا الإيطالي وهو ١٨ قراطاً ، وكان يزن ٣,٥٣ جرامات من الذهب .

(٨٠) أي في اتجاه الأطلس الصحراوي أو الخلفي ، وهو « الأنتي أطلس » في الخرائط الأجنبية .

(٨١) قياس إيطالي يساوي مترين .

(٨٢) ؟

(٨٣) أي قرابة ١٤ م مما يجعل سعر المتر الواحد ٣,٨ فرنكات ذهبية .

يدعو اليها كل الوجهاء ، وبهذه الطريقة يتم الصلح مع خصومه [٨٤] .

وفي تيوّت الكثير من الصناع اليهود الذين لا يخضعون لأية جزية ، وهم مطالبون فقط بتقديم بعض الهدايا الصغيرة للوجهاء .

تارودنت، مدينة في السوس

تارودنت مدينة كبيرة شيّدها قدماء الأفارقة . وتضم زهاء ثلاثة آلاف أسرة . وتقع تقريباً على مسافة تزيد قليلاً عن أربعة أميال[٨٥] جنوبي الاطلس وعلى مسافة خمسة وثلاثين ميلاً شرقي تيوّت[٨٦] . وتشابه هذه المدينة من حيث مواردها وعاداتها بقية المدن التي سبق الكلام عنها ، ولكنها أقل سكاناً . وهي مدينة اكثر تحضراً لأنه في العصر الذي كانت فيه أسرة بني مرين تحكم في فاس ، كانت تحكم ايضاً في السوس وكانت تارودنت مقر نائب الملك . ولهذا نرى فيها حتى أيامنا هذه قلعة متهدمة شيّدها هؤلاء الملوك . ولكن بعد انقراض هذه الأسرة استعادت هذه المدينة حريتها . ويكتسي السكان بالجوخ وبقماش الكتان . وفيها الكثير من الصناع . ويحكم تارودنت وجهاؤها ، إذ يتسلّم أربعة منهم سوياً السلطة التي لا يحتفظون بها أكثر من ستة أشهر . وأهل تارودنت أناس مسالمون لا يهينون جيرانهم قط .

ويقوم فوق هذه المنطقة ، من طرف جبال الاطلس ، يقوم الكثير من القرى والمداشر . أما السهول الواقعة في الجنوب فيحتلها العرب الذين جعلوا منها مراعيهم .
ويدفع لهم سكان المدينة جزية كبيرة عن الأراضي الزراعية ، حسب المألوف ، وضريبة عن أراضيهم ولكي يؤمنوا سلامة الطرق . وقد ثارت هذه المدينة في أيامنا على العرب وخضعت للأمير شريف في عام ٩٢٠ هـ [٨٧] .

---

(٨٤) « وهذا شبيه بما يسمى الجاهة في جنوب بلاد الشام » (المترجم) .

(٨٥) ٦,٥ كم .

(٨٦) تقع تارودنت على مسافة ٢٠ كيلومتر ، أي ١٢,٥ ميل شمال غرب تيّوت وليس إلى شرقها كما يذكر المؤلف .

(٨٧) أو ١٥١٤ م .

غارتغويسيم (أغادير)

اغادير قلعة واقعة عند النهاية القصوى لجبال الاطلس التي تتقدم على المحيط قرب المكان الذي يصب فيه نهر السوس في البحر [٨٨] .

وتتبع كورتها أراض زراعية ممتازة ، وقد سقطت بيد البرتغاليين قبل عشرين سنة خلت [٨٩] وقد اتفق اهل حاحه وأهل السوس على أن يستردوا هذه القلعة ، وقدم العديد من المحاربين المشاة من مناطق بعيدة لمساعدتهم على استردادها . ونصبوا قائداً عاماً عليهم كان وجيهاً وشريفاً ، أي نبيلاً من أسرة محمد ﷺ [٩٠] وحاصر القصر لبضعة أيام [٩١] وسقط عدد كبير من القتلى بين صفوف الغرباء عن المنطقة ، فتخلى هؤلاء عن هذا المشروع وعادوا أدراجهم . ولكن ظل بعض المحاربين مع الشريف بقصد متابعة الحرب ضد النصارى . وأعطى أهل سوس هذا الشريف من المال ما يكفي للإنفاق على خمسمائة فارس . وبعد ان قبض الشريف هذا المبلغ الضخم للإنفاق على الجند ، وبعد أن اكتسب خبرة في معرفة البلاد ، أعلن استقلاله ونصّب من نفسه دكتاتوراً . وعندما غادرت بلاط هذا الشريف كان لديه اكثر من ثلاثة آلاف فارس وعدد لا يحصى من المشاة ، فضلاً عن خزينة حرب هامة ، كما سبق أن قلنا ذلك مع تفاصيل أكبر في « مختصر عن التاريخ الإسلامي » [٩٢] .

تيدسي ، مدينة في السوس

تيدسي مدينة كبيرة تحوي أربعة آلاف أسرة . وقد بناها الأفارقة القدامى على مسافة ثلاثين ميلاً شرقي تارودنت وعلى مسافة ستين ميلاً من البحر وعشرين ميلاً من جبال

(٨٨) كانت البلدة تحمل اسم « أغادير لا ربع » في زمن المؤلف ، أما القلعة فكانت تدعى سانتا كروز دوكا بوداغيه . وأما كلمة غارتغويسيم التي استخدمها المؤلف فهي غير معروفة ، ولعلها تحريف لكلمة بربرية « آغر كسيمة » أو ممر كسيمة ، أو رأس كسيمة .

(٨٩) وقع الاحتلال البرتغالي عام ١٥٠٥ م أي ٩١١ هـ أي أن هذه الاسطر قد كتبت حوالي العام ٩٣١ هـ / ١٥٢٤ م .

(٩٠) هو أبو العباس أحمد الأعرج .

(٩١) من المحتمل أن يكون ذلك في ٥ آب (أغسطس) ١٥١١ م .

(٩٢) يدل هذا النص على أن المختصر المذكور كان مدبجاً سابقاً وكان من اللازم أن يظهر في رأس الكتاب الذي بين أيدينا .

الأطلس (٩٣) وكورتها كثيرة الإنتاج وخصيبة . وتنبت فيها كمية لا يستهان بها من الحبوب وقصب السكر والنيلة . ونجد فيها اناساً يزاولون التجارة مع بلاد السودان . ويعيش الناس هناك في سلام ، ورجال هذه المدينة متحضرون وأمناء . ويحكمون أنفسهم على غرار النظام الجمهوري : فالسلطة بيد ستة اشخاص ينتخبون بالقرعة ويستبدلون مرة في كل ستة عشر شهراً .

ويمر نهر السوس من قرب المدينة ولكن على مسافة ثلاثة أميال (٩٤) وفي هذه البلدة الكثير من الصناع اليهود ، كالصاغة والحدادين . . . الخ . ويقوم فيها ايضاً مسجد يخدمه عدد من الأئمة والموظفين . كما يعقد فيها سوق في كل يوم سبت يجتمع فيه عرب وفلاحون وكثير من أهل الجبال . وقد وضعت تيدسي نفسها تحت تصرف الشريف سنة ٩٢٠ هـ الذي أقام فيها ديوانه (٩٥) .

تاغاوست

تاغاوست مدينة كبيرة ، وهي أهم مدينة في سائر بلاد السوس ، ففيها ثمانية آلاف اسرة . ولها سور من الطوب النيء . وتقع هذه المدينة على مسافة ستين ميلاً من المحيط و خمسين ميلاً من جبال الأطلس باتجاه الجنوب . وقد عمرها الأفارقة . وعلى مسافة عشرة أميال منها نهر السوس(٩٦) وفيها الكثير من دكاكين الباعة والصناع في وسط المدينة . وينقسم السكان الى ثلاثة أحزاب تتصارع فيما بينها في معظم الأحيان . وقد استدعى احد الأحزاب العرب لنجدته ضد الحزب الآخر وهؤلاء العرب يقدمون عونهم تارة لهذا وتارة لذاك حسب الإمدادات التي ينالونها من أي جانب .

وتعتبر أراضي الزراعة في هذه الناحية خصبة للغاية ، والماشية وفيرة . ويباع الصوف فيها بثمن بخس ، وتصنع منه قطع قماش صغيرة يحملها تجار المدينة الى تومبوكتو

---

(٩٣) تقع تيدسي على مسافة تقارب ١٤ ميلاً أو ٢٢,٥ كم جنوب غرب تارودنت وعلى مسافة ٣٠ ميلاً أو ٤٨ كم من البحر ، وعلى مسافة تقارب ٢٠ ميلاً أو ٣٢ كم من جبال الأطلس .

(٩٤) الواقع ان نهر السوس يمر على مسافة ٢٠ كم أي ١٣ ميلاً شمال تيدسي .

(٩٥) في ١٥١٤ م .

(٩٦) إن مدينة كسابي التي تحتل اليوم موقع تاغاوست ، تقع في الحقيقة على مسافة ١٢ كيلومتر إلى الغرب من غولمين ، وعلى مسافة ٣٠ كيلومتر من البحر وأكثر من ١٧٥ كم جنوب نهر السوس .

وإلى ولاّلة وإلى بلاد السودان مرة في العام . ويعقد السوق العام مرتين في الاسبوع . ويرتدي أهل تاغاوست ثياباً لائقة . والنساء جميلات جداً ولطيفات . وتظهر السمرة على كثير من الرجال لأنهم ولدوا من بيض وسود . ولا توجد هنا حكومة محدّدة المعالم . فالذي عنده أكبر سلطة هو الذي يحكم . وقد بقيت مدة ثلاثة عشر يوما في هذه المدينة مع مستشار الشريف كي أشتري منها إماءً زنجيات لخدمة هذا الأمير ، وهذا في عام ٩١٩ هـ (٩٧) .

جبل حنكيسة

يبدأ هذا الجبل تقريباً من المحيط في الغرب ويذهب في اتجاه الشرق على مسافة أربعين ميلاً (٩٨) وعند حضيضه تقع ماسّة وبلاد السوس الأخرى (٩٩) وسكانه رجال أولو بأس شديد : فواحد من مشاتهم لا يهاب أن يدافع عن نفسه في وجه فارسين ، مع حربتين اعتاد حملها . ولا يجود القمح في هذا الجبل ، ولكن زراعة الشعير تنجح فيه وتعطي محصولاً غزيراً ، كما يكثر فيه العسل . ويتساقط الثلج في جميع الفصول . ولكن هؤلاء الجبليين لا يخشون البرد . ولهذا يظهرون أقرب للعرى في أثناء فصل الشتاء . وقد أراد الأمير شريف أن يقدم هؤلاء خضوعهم له وأن يدفعوا له الضريبة . ولكنهم لم يقبلوا أبداً ذلك وكانوا يشنون عليه الحرب على الدوام . وكانوا هم المنتصرين حتى العام الذي كان المؤلف موجوداً فيه في هذه البلاد ، في عام ٩١٩ هـ (١٠٠) .

جبل الهلالة (١٠١)

يبدأ هذا الجبل في الغرب من تخوم الجبل السابق وينتهي في منطقة جزولة في

(٩٧) سنة ١٥١٣ م .

(٩٨) ٦٤ كيلومتر .

(٩٩) لا تزال عشيرة حنكيسة ، التي تدعى حالياً نفيسة ، تسكن في الكتلة الجبلية وقمتها جبل لكيست ، وفي البربرية ادرارنكست ، الذي يرتفع الى ٢٣٧٦ م ، واسم القبيلة بالبربرية اينغيست . وهنالك بلدة تقع عند مخرج وادمست في السهل الذي يدعى تانكست .

(١٠٠) ١٥١٣م . ولا يشير تامبورال (طبعة ليون ١٥٥٦ م . ص ٦٧) الى هذا التاريخ وكذلك راموزيو .

(١٠١) ايلالن بالبربرية وهلالة بالعربية .

الشرق . وينتهي في الشمال عند سهول السوس . وسكانه رجال نبلاء وبواسل ، ولديهم أعداد كبيرة من الخيل . ويشنون دوماً الحرب بعضهم على بعض بسبب منجم فضة يقع في الجبل . ويتمتع المنتصرون بإنتاج المنجم [١٠٢] .

منطقة مراكش

موقع المنطقة

تبدأ هذه المنطقة من الغرب من جبل نيفيفة ، وتمتد شرقاً حتى جبل أتيماي . وتهبط نحو الشمال حتى جوار نهر تانسفت كي تنتهي عند مفرق نهر آسيف اينوال مع النهر السابق الذكر . وهنا تبدأ خاحه من الغرب . ولهذه المنطقة شكل المثلث تقريباً . وتنتج المنطقة القمح وحبوباً اخرى بمقادير وفيرة جداً . وفيها العديد من الانعام والكثير من المياه والانهار والعيون والثمار كالتمر والعنب والتين والتفاح والاجاص[١٠٣] من كل الانواع . وتقع المنطقة كلها تقريباً في السهل مثل لومبارديا في ايطاليا[١٠٤] . وتكون هذه الجبال مفرطة في بردها وعقيمة ، حتى أنه لا ينبت فيها شيء ما عدا الشعير .

وسنبدأ بالتعرف على القسم الغربي ووصف كل من هذه الجبال ، وكل من المدن ، حسب طريقتنا المعتادة .

الجمعة ، مدينة في هذه المنطقة

الجمعة مدينة صغيرة في السهل ، قرب نهر شيشاوة[١٠٥] على مسافة سبعة أميال[١٠٦]

---

(١٠٢) يعتبر أبناء عشيرة ايلالن أو هلالة باللغة العربية ، بكل تأكيد ، أحفاد قوم Validissimi Autololes الذين يتكلم عنهم المؤرخ الروماني بلين ، وهم الذين منعوا الرومان المنطلقين من سلا من بلوغ جبال الأطلس . ويبدو أن هؤلاء كانوا يشغلون رقعة كبيرة كانت تمتد حتى الساقية الحمراء . ولم يمكن تحديد موقع المنجم . وقد فكر البعض بأن الموضوع يتعلق بمنجم الفضة القديم في تمدولت .

(١٠٣) أو الكمثرى .

(١٠٤) كان هذا السهل يحمل اسم حوز مراكش والذي احتفظ به حتى الآن .

(١٠٥) وهو نهر شفشاوة وحالياً شيشاوة .

(١٠٦) ١١ كم .

من جبال الأطلس . وقد شيّدت على أيدي الأفارقة . بيد أنها سقطت بأيدي العرب في الزمن الذي فقدت فيه أسرة الموحدين سلطتها(١٠٧) . ولم يبق من هذه المدينة سوى النادر من الآثار(١٠٨) . ولا يزرع العرب إلا جزءاً من الأراضي التي تنتج ما يكفي معيشتهم فحسب ويتركون الباقي بوراً . وعندما كانت المدينة مأهولة ، كانت تنتج ما قيمته مائة ألف دينار من الموارد في العام ، وكانت تحوي قرابة ست آلاف أسرة . وقد مررت من جوارها وبتّ لدى عرب وجدتهم كرماء جداً . ولكنهم أناس خونة وغدارون .

ايمجاجن

ايمجاجن(١٠٩) حصن يقع في قمة أحد جبال الاطلس(١١٠) ، وليس لها سور ، بل هي محمية بموضعها الطبيعي . وتقع على مسافة خمسة وعشرين ميلاً(١١١) جنوب المدينة الآنفة الذكر . وكانت في الماضي بيد بعض وجهاء البلاد ، ولكنها سقطت بيد عمر السيّاف الرافضي الذي تكلمنا عنه فيما سبق . وقد أظهر في أثناء حكمه أكبر قدر من الجور ، إذ لم يكن يتورع عن قتل صغار الأطفال ، كما كان يبقر بطون النساء الحبالى ، ليستخرج منها الأجنة التي كان يقطعها إرباً ويضعها على أثداء أمهاتها ، فقد كانت هذه الأجنة تذوق مرارة الموت قبل أن تعرف عذوبة الحياة . وحدث هذا عام ٩٠٠ هـ(١١٢) ، وهكذا ظل الحصن مهجوراً . وأبتدىء سنة ٩٢٠ هـ(١١٣) بسكنى قسم منه ، وليس هناك ما يمكن حراثته وزرعه سوى سفوح الجبال كي يمكن الحصول على ما هو ضروري للعيش ، اذ لا يمكن المرور عبر السهل خوفاً من العرب تارة ، وخشية البرتغاليين تارة اخرى .

---

(١٠٧) بعد عام ١٢٦٩ م .

(١٠٨) وربما كانت واقعة في الموقع الحالي لقرية جماعة بوانفير .

(١٠٩) ويجعلها ماسينيون (١٩٠٦ م ص ١٨٦) مطابقة لإيميلهاين (بلاد ايمرجان) .

(١١٠) إن كتابة هذا الإسم في كتاب المؤلف يدفعنا إلى لفظة على شكل ايميجاجن ، وهو اسم لم يعثر عليه ، وربما كانت ايمين آيت واجنة ، أي الفم ، وآيت واجنّه هو اسم فخذ عشيرة نجده على مسافة ٨ كم شرق ايمينتانوت ، وعلى مسافة ٢٥ كم جنوب جماعة بو أنفير .

(١١١) ٤٠ كم .

(١١٢) بين ٢/ ١٠/ ١٤٩٤ و ٢٠/ ٩/ ١٤٩٥ م .

(١١٣) ١٥١٤ م .

تنزّه (١١٤)

تنزّه بلدة حصينة تقع في الجزء الغربي من جبال الأطلس الذي يسمى غدميْسوا . وقد بناها قدماء الأفارقة على مسافة ثمانية أميال تقريباً شرقي سيفينوال(١١٥) . وتمتد سهول فسيحة عند حضيض هذه المدينة ، وهي سهول صالحة لزراعة الحبوب . ولكن السكان الذين نكّد العرب عليهم معيشتهم لا يستطيعون زراعة الأرض . فلا يزرعون سوى سفح الجبل الواقع بين النهر والمدينة . ويضطرون مع ذلك إلى دفع ثلث دخلهم السنوي جزية لهؤلاء العرب .

سوق الجمعة الجديد (١١٦)

هذه المدينة عبارة عن حصن يقوم فوق جبل عالٍ جداً محاط بعدة جبال أخرى . وينبع من تحت هذا الحصن نهر آسيف اينوال ، وهو اسم معناه نهر الضوضاء باللسان الإفريقي(١١٧) . وينحدر هذا النهر من الجبل مع ضجيج كبير ويحفر خندقاً عميقاً ، على غرار نهر الجحيم في تيفولي ، وهي مدينة تابعة لامارة روما(١١٨) . وقد بنيت هذه المدينة في أيامنا على يد بعض الأمراء . وتضم قرابة ألف عائلة . وقد ظلت لمدة طويلة بيد طاغية من أسرة ملوك مراكش(١١٩) . ولهذا الحصن ثكنة جيدة للمشاة وللخيالة . ويجبى من قرى ومداشر هذا الجزء من الأطلس دخل يقل قليلا عن عشرة آلاف دينار . ويرتبط السكان بصداقة حميمة مع العرب ويقدمون لهم أحيانا أعطيات قيمة بديعة . وهذا ما أغاظ ملوك

---

(١١٤) ؟

(١١٥) أي حوالي ١٢ كم شرقي وادي ايمينتانوت ، وهي نقطة تشير إليها الخارطة باسم جبل تيلسّة ، وربما كان هذا تحريفاً مقبولاً عن كلمة تنزّه .

(١١٦) وتقع هذه البلدة فعلاً على مسافة ١٥ كم جنوبي بلدة الجمعة القديمة في الوادي الأعلى (ما سينيون ١٩٠٦ ، ص ١٩٦) .

(١١٧) « ويقصد طبعاً اللغة البربرية » (المترجم) .

(١١٨) إن لعبارة آسيف اينوال معنى « نهر النوالات » أي الأكواخ ، وسيقول المؤلف فيما بعد أن هذا النهر ينبع من جبل السكساوة ، أي أبعد من ذلك باتجاه الغرب . والمقصود به بالتأكيد آسيف الملّ ، الذي عرَّب سكان الساحل اسمه فسموه وادي الملاّح أي نهر الملاح . وتشير الخارطة في هذه البقعة لمدينة مذكورة عليها بإسم مجديد . ومن الممكن تشخيص الموقع لو عثر هناك على شلال يشبه شلال نهرآنييني عند بلدة تيفولي الإيطالية ، وهو الشلال الرائع الذي يبلغ ارتفاعه ١٠٨ م .

(١١٩) ربما كان المقصود هو ادريس الهنتاتي ، الذي سماه البرتغاليون ملك الجبل ، وكان من أسرة الموحدين وابن عم ملك مراكش أبي علي الناصر بن يوسف .

مراكش بضع مرات . والناس هنا ذوو تربية جيدة ، وهندامهم لائق ، والمدينة مأهولة بكثرة ، وفيها كثير من الصناع ، ويعود هذا لقربها من مراكش الواقعة على مسافة خمسين ميلاً منها(١٢٠) . وتوجد بين هذه الجبال مزارع أشجار بديعة حيث تنتج كمية كبيرة من الثمار . ويزرع أيضا الشعير والكتان والقنب . ولدى السكان عدد كبير من الماعز . كما أن لديهم ما يكفي من الفقهاء والقضاة . ومع ذلك فهؤلاء الرجال غلاظ النفوس ، شديدو الغيرة على نسائهم . وعندما قصدت هذه المدينة نزلت عند أحد أقاربي الذي كان ينوء تحت وطأة ديون ثقيلة حينما كان في فاس ، بسبب ممارسته الكيميا(١٢١) ، وهاجر إلى هذه البلدة حيث أصبح بعد زمن يسير أمين سر لأمير المدينة .

آميز ميز

آميز ميز مدينة كبيرة نوعاً ما تقع على جرف صخري في أحد جبال الأطلس على مسافة أربعة عشر ميلاً إلى الشرق من المدينة السابقة(١٢٢) ، وقد بناها القدامى . ويوجد في أسفلها ممر يمكن بواسطته اختراق جبال الاطلس للذهاب إلى منطقة جزوله ويدعى ممر « بوريش »(١٢٣) ، لأن البَرَد يتساقط فيه باستمرار ، والبرد يشبه في تساقطه الريش الأبيض

---

(١٢٠) ٨٠ كم .

(١٢١) أو « علم جابر » وهو بحث اشتغل العرب وغيرهم به أمداً طويلاً . وكان الغرض منه تحويل المعادن بعضها إلى بعض وخاصة تحويل بعضها إلى الذهب والفضة . وسمي « علم جابر » نسبة إلى جابر بن حيان الذي كتب فيه بحوثاً كثيرة . ويرتبط هذا العلم بعقائد الاسكندريين فيشتمل على عنصر الصوفية الشرقية . ويرى المشتغلون بهذا البحث أن الذهب كان أنبل المعادن ، وهدف أعمالهم هو العثور على وسيلة لإكثار الذهب بالاستعانة بالحجر الفلسفي . وقد انتقلت هذه البحوث إلى الغرب مع الصليبيين . وأما الكيمياء الحديثة فقد نبغ فيها عدد كبير من علماء المسلمين ، ويرجع إليهم الفضل في كثير من اكتشافاتها ، مثل اتقان التقطير والأنبيق وتحضير الماء الثقيل ، وهو مزيج من الدوتيريوم والأوكسجين وأكثر كثافة من الماء العادي ، والماء اللذيذ ، وهو خليط من ماء آزوتي وحامض الكلور وهيدريت الذي يذيب الذهب والبلاتين ، والأنبيق والماء القوي . وهو الأسيد النيتريكي ، وزيت الزاج ، والغول ، وحجر جهنم والسلياني . ونذكر من بين أهم علماء الكيمياء المسلمين جابر وابن سينا .

وفي العصر الوسيط كانت هناك شخصيات كبرى في عداد الكيميائيين مثل البرت الكبير وتوماس الاكويني . وكان ريمون لول ، وروجر باكون ، وآرند دوفيلونوف من الكيميائيين الحقيقيين . وفي القرن الرابع عشر والخامس عشر كان كثير من الكيميائيين عبارة عن دجالين ، ولكن كان منهم بحاثون ، دفعت أخطاؤهم ذاتها إلى تقدم علم الكيمياء الصحيح مثل باسيل فالنتان والاسحاقين وبرنار تريفزان . وظهر منهم في القرن السادس عشر مارسيل فيسان وبيك دولا ميراندول بالأضافة إلى كورينليوس أغريبا وباراسلز وفان هلمونت . (المترجم) .

(١٢٢) ٢٢ كم . وهي إلى الغرب من المدينة وليس إلى الشرق كما يقول .

(١٢٣) أي أبو الريش حسب لهجة المغاربة .

وهو يتطاير . ويمتد تحت المدينة أيضاً سهول واسعة تصل حتى مراكش على مسافة ثلاثين ميلاً(١٢٤) ؛ ويجود فيها قمح طيب كبير الحبات ، وهو أفضل ما رأيت ، ودقيقه في غاية الجودة . ولكن العرب يرهقون هذه المدينة بالإتاوات ، ويصنع ملك مراكش نفس الشيء ، حتى أن القسم الأعظم من الحقول أصبح مهجوراً . وأخذ سكان المدينة أيضاً يهجرونها وهم معدمون جداً لقلة المال ، ولكن لديهم الكثير من الأملاك ومن الغلال . ولم أنزل في هذه المدينة ولكن إلى القرب منها ، في خيمة سيدي كانون ، وهو ناسك يتمتع هنا بسمعة كبيرة(١٢٥) .

تومغلاست

تتألف تومغلاست(١٢٦) من ثلاثة قصور صغار في السهل على مسافة أربعة عشر ميلاً(١٢٧) من الأطلس وعلى مسافة عشرين ميلاً تقريباً(١٢٨) من مراكش . وجميع القصور الثلاثة محاطة بالنخيل والكروم والأشجار المثمرة . والريف المحيط بها(١٢٩) جميل وصالح لزراعة الحب ، ولكن لا يمكن زراعته بسبب غارات العرب . وتكاد تكون هذه القصور الثلاثة غير مأهولة ، إذ لا يقيم بها أكثر من خمس عشر أسرة تمت بصلة القرابة للناسك الذي سبق لي الكلام عنه قبل قليل ، ويستطيعون ، بفضل حمايته ، أن يزرعوا بعض القطع من الأرض بدون أن يدفعوا شيئاً للعرب . وهؤلاء العرب يبيتون في مساكن أهل البلد عندما يأتون إلى هذه القصور ، ومساكنهم هذه حقيرة جداً ، فهي إلى حظائر الحمير أدنى منها إلى منازل الآدميين . وهي مليئة بالبراغيث والبق وهوام أخرى كثيرة . ومياه البلدة مالحة . وقد قصدت هذه البليدة وأقمت فيها مع سيدي يحيى ، الذي قدم لجمع الضرائب من هذه البلاد باسم ملك البرتغال الذي عينّ هذا الشخص قائداً لبادية آسفي(١٣٠) .

---

(١٢٤) ٤٨ كم والصحيح ٦٠ كم .

(١٢٥) وهو المرابط سيدي أبو عبد الله محمد كانون الذي كان له فيا بعد دور تاريخي هام .

(١٢٦) يبدو أن موقعها ينطبق على موضع بلدة غويماسة .

(١٢٧) ٢٢ كم .

(١٢٨) ٤٨ كم .

(١٢٩) وهو سهل حوز مراكش.

(١٣٠) هذا اللقاء الذي جرى بين المؤلف وبين أبي زكريا يحيى بن محمد او تعفوفت ، حدث في أواخر حزيران (يونيو) أو في تموز (يوليو) ١٥١٤ م . وسيقول لنا فيا بعد بأنه تكلم معه باسم ملك فاس والأمير شريف وأنه كان مع سيدي يحيى ٥٠٠ فارس برتغالي وأكثر من ٢٠٠٠ فارس عربي .

مدينة تشرافت

وهي مدينة صغيرة واقعة على ضفة آسيفلمل(١٣١) على مسافة أربعة عشر ميلاً(١٣٢) من مراكش وعلى حوالي عشرين ميلاً(١٣٣) من الأطلس . ويوجد حولها الكثير من البساتين المغروسة بالنخيل . والأراضي صالحة لزراعة القمح . وكل سكانها يشتغلون بزراعة البساتين . غير أن فيضانات النهر الواقعة عليه هذه المدينة كثيراً ما تتلف البساتين . وفضلا عن ذلك يأتي العرب صيفاً ويلتهمون ما يجدونه قابلاً للأكل . وقد ذهبت لهذه البليدة ولم أبق فيها إلا ما يكفي من الوقت لتقديم الشعير لخيولنا . وقد شاء حسن حظي أنني لم أقتل غيلة في هذا اليوم بأيدي هؤلاء العرب .

مدينة مراكش الكبرى

مراكش مدينة كبيرة جداً ومن بين المدن الرئيسية في العالم ، ومن أكثرها شرفاً في افريقيا . وتقع هذه المدينة في سهل واسع على مسافة أربعة عشر ميلاً من الاطلس . وقد شيّدت من قبل يوسف بن تاشفين ، ملك قبيلة لمتونة(١٣٤) في الزمن الذي دخل هذه المنطقة مع قبيلته . وجعل منها عاصمة مملكته ، قرب ممر أغمات الذي يخترق الاطلس من خلاله للذهاب إلى الصحراء حيث تقطن هذه القبيلة . وقد شيّدت وفق مخططات وضعها مهرة المهندسين على يد طائفة من العمال الحاذقين . وتحاط بأرض زراعية واسعة . وكانت يقطنها مائة ألف أسرة أو أكثر في حياة علي ، ابن الملك يوسف(١٣٥) . وكان لها أربعة وعشرون باباً وجدار سور غاية في الجمال والمناعة ، مبنّى من اللبن الكلسي ومن رمل غليظ مخلوط بالجص . وعلى مسافة ستة أميال من مراكش يمر نهر كبير يدعى التانسفت(١٣٦) ، وتكثر في هذه المدينة الجوامع ، والمدارس ، والحمامات والفنادق حسب الأسلوب الشائع في افريقيا . ومن هذه الجوامع ما بناه ملوك لمتونة(١٣٧) ، ومنها ما شيده من جاءوا من

---

(١٣١) تشرافت واقعة على واد نفيس .

(١٣٢) ٢٢ كم .

(١٣٣) ٣٢ كم .

(١٣٤) لقد بناها يوسف بن تاشفين زعيم لمتونة في سنة ١٠٦٢ م .

(١٣٥) أبو الحسن علي بن يوسف الذي حكم من ٤/ ٩/ ١١٠٦ إلى ٢٦/ ١/ ١١٤٣ .

(١٣٦) في الحقيقة لا تزيد المسافة كثيراً عن أربعة أميال (٧ كم) بين نهر التانسفت ومراكش .

(١٣٧) المرابطون .

بعدهم ، وهم ملوك الموحدين . ومن هذه الجوامع يوجد جامع بديع جداً ، في قلب المدينة ، وهو الجامع الذي بناه علي بن يوسف ، أول ملك على مراكش ، ويسمى جامع علي بن يوسف . ولكن أحد ملوك الموحدين واسمه عبد المؤمن(١٣٨) هدمه وأعاد بناءه لا لشيء إلا لمجرد القضاء على اسم « علي » كي يحل اسمه مكانه . وقد كان هذا جهداً ضائعاً ، لأن الناس قد ظلوا يسمونه باسمه القديم . هذا ويوجد أيضاً بجوار القصبة تقريباً جامع آخر بناه عبد المؤمن نفسه ، وكان ثاني ملك من الأسرة التي قضت على دولة المرابطين وخلفتها(١٣٩) ، وبعدئذ جاء حفيده المنصور(١٤٠) ووسّعه بمقدار خمسين ذراعاً من كل جانب وزيّنه بالعديد من الأعمدة التي جلبها من أسبانيا . وبني تحت هذا الجامع خزان مياه(١٤١) يتمثل في نفق وجعل سقفه من رصاص محفوف بقنوات تجري فيها المياه الهاطلة على السقف وتصب في الخزان . كما شيد منارة مبنية بحجارة منحوتة ضخمة ، شبيهة ببرج الكوليزيه في روما . ويبلغ محيط هذه المنارة مائة ذراع توسكاني(١٤٢) ، وهي أعلى من برج آزينلّي في بولونيا(١٤٣) . ويرقى إلى هذه المنارة بواسطة درج يبلغ عرضه تسعة أشبار(١٤٤) . ويبلغ سمك الجدار الخارجي عشرة أشبار(١٤٥) ، وسمك جدار المنارة الداخلي خمسة أشبار(١٤٦) . ويوجد في داخل المنارة سبع غرف فسيحة(١٤٧) ، جميلة جداً ، بعضها فوق بعض . ويكون الدرج منيراً بشكل كامل لأنه يحوي ، من الأسفل للأعلى ، طاقات بهية ، مفتوحة بمهارة فنية عظيمة ، وهي أكثر عرضاً من الداخل مما هي من الخارج . وعندما يصل الانسان إلى أعلى المنارة يجد منارة صغيرة يكون أعلاها هرمي الشكل ، يبلغ

---

(١٣٨) هو الخليفة الموحدي أبو محمد عبد المؤمن بن علي وحكم من ٢١/ ٨/ ١١٣٠ إلى ٣ أو ٧/ ٤/ ١١٦٣ م .

(١٣٩) لقد كان أول إمام الموحدين المهدي محمد بن تومرت وحكم من ٢٥/ ١١/ ١١٢١ إلى ٢١/ ٨/ ١١٣٠ م .

(١٤٠) أبو يوسف يعقوب المنصور وحكم من ٣٠/ ٧/ ١١٨٤ إلى ٢١/ ١/ ١١٩٩ م .

(١٤١) يسمى حزان المياه « ماجن » في أقطار المغرب ، وتقابل هذه الكلمة « صهريج » في المشرق (المترجم)

(١٤٢) نسبة إلى توسكانيا وهي مقاطعة إيطالية . والرقم الذي يذكره يساوي ٥٥,١٢ م في حين أن محيط منارة الكتبية الشهيرة هو ٥٠ م .

(١٤٣) بولونيا مدينة إيطالية . والواقع أن ارتفاع الكتبيّة يقل عن البرج المذكور بثلاثين متراً لأن ارتفاع برج آزينللي هو ٩٧,٦ م وارتفاع الكتبيّة ٦٧,٥ م ، وبالاضافة إلى ذلك لمّا كان برج آزينللي ممشوقاً أكثر فهو يتراءى أكثر ارتفاعاً بكثير من الكتبيّة .

(١٤٤) كان شبر مراكش يعادل ٢١,٦ سم ولما كان عرض درج الكتبيّة ١,٥ م فكان يجب أن يقول سبعة أشبار .

(١٤٥) أي ٢,١٦ م والحقيقة ٢ م .

(١٤٦) ١,٠٨ م والحقيقة ١,٥ م .

(١٤٧) هي خمس غرف فقط .

إطاره خمسة وعشرون ذراعاً(١٤٨) ، أي قدر حجم المنارة تقريباً(١٤٩) ، ويبلغ ارتفاعها رمحين(١٥٠) ، وتضم ثلاثة أدوار مسقوفة عقداً يصعد اليها بسلّم خشبي . وقد ثبت ساق فوق قمة هذا الهرم ، بصورة محكمة ، وضمّت فيه ثلاث تفاحات فضية ، السفلى أكبر من الوسطى وهذه اكبر من العليا . وتزن الثلاثة ثلاثة وتسعين رطلاً إيطالياً(١٥١) . وعندما يكون الانسان في الطابق العلوي من المئذنة الصغيرة ، يجب عليه أن يدير رأسه في سائر الاتجاهات ، كما لو كان في قفص الصاري في سفينة . وإذا ما نظرنا إليها من أسفل ، لا يظهر الرجال ، مهما كانت قامتهم ، أكبر من أطفال في السنة الأولى من عمرهم . ويكتشف الناظر من أعلاها جبل آسفي الذي يقع على مسافة مائة وثلاثين ميلاً من مراكش (١٥٢) ، كما ترى أيضا السهول المجاورة حول المدينة على مسافة خمسين ميلاً تقريباً(١٥٣) .

وهذا الجامع المذكور ليس كثير الزينة من الداخل . غير أن السقف مصنوع من الخشب المخرّم مثل كثير من السقوف التي نراها في كنائس إيطاليا . وهو من أجمل مساجد العالم . ولكنه اليوم مهمل لأن سكان مراكش اعتادوا ألا يقيموا فيه سوى صلاة الجمعة ، وكذلك لأن المدينة قليلة السكان جداً ، وخاصة في الأحياء الملاصقة ، حتى لقد أصبح من الصعوبة بمكان الوصول إليه بسبب أنقاض الخرائب التي تعرقل الطريق . وكان تحت الباب الرئيسي للجامع ، في الماضي ، مائة دكان لبيع الكتب(١٥٤) ، ولكن لا يوجد شيء منها الآن .

وتبدو هذه المدينة البائسة خاوية بنسبة الثلثين . وأصبحت الأراضي الخالية مزروعة بالنخيل والكرمة والأشجار المثمرة ، لأن السكان لا يستطيعون الحصول على شبر من الأراضي الصالحة للزراعة في خارج الأسوار لكثرة ما يتعرضون لغارات العرب . ويمكن

---

(١٤٨) أي ٢٥,٣٥ م وفي الحقيقة هي ٢٧,٢٩ م .

(١٤٩) هذا في الواقع نواة المنارة لأن جدار المنارة الصغرى هو امتداد لجدار المنارة الكبرى الداخلي .

(١٥٠) وهذا القسم من المنارة تعرض للتعديل ولكن كانت توجد رماح رياضية طويلة تبلغ حوالي ستة أمتار من الطول .

(١٥١) يزن الرطل ٠٧١ , ٣٣٩ جراما ، فيكون المجموع ٥٣٣ , ٣١ كيلو جرام .

(١٥٢) أو ٢٠٨ كم ، والحقيقة أن الكتلة الجبلية التي سيسميها المؤلف جبل بني ماجر لا تبعد اكثر من ١٠٠ كم عن مراكش على خط مستقيم .

(١٥٣) أي حوالي ٨٠ كم .

(١٤٥) ومن هذا جاء اسمه : « جامع الكتبيّة » .

القول أن هذه المدينة قد هرمت قبل الأوان ، إذ في السنة التي يكتب فيها المؤلف هذا الكتاب يكون قد مضى خمسمائة سنة على بنائها في عهد يوسف بن تاشفين في عام ٤٢٤ هـ[١٥٥] . وبعد موت يوسف استلم السلطة ابنه علي[١٥٦] ، وخلفه ابنه ابراهيم[١٥٧] . وفي ذلك الزمن ظهر داعية ، يدعى المهدي ، الذي كان ولد وترعرع في هذه الجبال ، وثار ، وجمع جيوشاً جرارة وشهّر الحرب على ابراهيم[١٥٨] .

واضطر الملك للخروج مع جيشه لملاقاة جيش المهدي . ونشبت المعركة ولم يكن الحظ حليف الملك فانهزم . وقطعت عليه طريق العودة إلى مراكش ، فعزف عن الرجوع إليها وهرب نحو الشرق سالكاً حضيض سفوح الأطلس مع القليل من قواته المتبقية . ولكن المهدي لم يقنع بذلك . فكلف أحد تلامذته ، واسمه عبد المؤمن ، أن يتعقب الملك مع نصف الجيش . وبقي معه النصف الآخر لضرب الحصار على مراكش . ولم يفلح الملك في العثور على وسيلة للتخلص من عدوه ولا للدفاع عن نفسه إلى أن بلغ وهران . وخطر له أن يتحصّن فيها قدر استطاعته مع بقية قواته داخل المدينة . ولكن وصل عبدَ المؤمن في الحال وعسكر أمام وهران ، وحينئذ جاء السكان وذكروا للملك أنهم لا يستطيعون أن يعرضوا أنفسهم للضرر بسببه . وبعد أن فقد الملك البائس كل أمل أردف الزوجة التي كانت معه خلف ظهره ، وخرج من أحد أبواب المدينة ، دون أن يتعرف عليه أحد ووجّه حصانه نحو جرف عال يطل على البحر ، ثم لكز خاصرتي حصانه وتدهور وراح يسقط من صخرة إلى صخرة . ولقي الثلاثة حتفهم وتهشموا فوق رصيف صخري على الساحل ودفنوا بصورة بائسة . وعاد عبد المؤمن ظافراً إلى مراكش وشاء حسن طالعه أن يجد المهدي قد توفي . وهكذا تم انتخابه ملكاً مكانه من قبل أربعين مريداً وعشرة من حجاب المهدي ، وكانت عادة جديدة في التشريع الإسلامي . وهكذا أحكم حصار مراكش بشدة . ثم قبض على اسحق ، وهو الإبن الوحيد الذي ظل حياً من أبناء

---

(١٥٥) في الحقيقة تحدد تأسيس مراكش بعام ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م وهذه الأسطر كتبت حوالي العام ٩٣٢ هـ/ ١٥٢٥ م .

(١٥٦) وكان ذلك في ٤ أيلول (سبتمبر) ١١٠٦ م .

(١٥٧) وكان هذا تاشفين بن علي الذي نودي به ملكاً بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ١١٤٣ م .

(١٥٨) لقد بدأ محمد بن تومرت (الملقب بالمهدي بن تومرت) دعوته في عام ١١١٦ م بعد عودته من المشرق ، وفي ١١٢٠ م ثار على الملك المرابطي علي بن يوسف ، وفي يوم الجمعة ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٢١ م نودي به في جامع تينمل مهدي الموحدين . والمرجح أنه مات يوم الأربعاء ٢٠ آب (أغسطس) ١١٣٠ م ، أي قبل خصمه الملك المرابطي علي بن يوسف . بحوالي اثنتي عشرة سنة .

إبراهيم ، وهو طفل صغير ، فخنقه بيده بدون رحمة ، وبعد أن أعمل السيف في رقاب معظم الجند الذين كانوا هناك ، عمد إلى قتل شطر كبير من سكان مراكش(١٥٩) .

وحكمت أسرة عبد المؤمن عن طريق التوراث من عام ٥١٦ هـ إلى عام ٦٦٨ هـ(١٦٠) . ثم جُردت من سلطتها على أيدي ملوك أسرة بني مرين . فانظر كيف يكون الحظ قُلّبا ! وقد احتفظت هذه الأسرة الجديدة بالمملكة(١٦١) حتى عام ٧٨٥ هـ . ثم خبا نجمها وراح يحكم مراكش بعض الأمراء الذين يرجع أصلهم إلى الجبل العتيق ، المجاور للمدينة(١٦٢) .

وفي أثناء هذه التقلبات في السيادة لم يجلب أحد ضرراً على مراكش أكثر من المرينيين الذين سكنوا في فاس بعد أن جعلوها مقر البلاط الملكي (١٦٣) في حين كانوا يرسلون نائباً إلى مراكش ، وأصبحت فاس عاصمة موريتانيا وكل المنطقة الغربية . وقد عالجنا هذه القضية بصورة أكثر شمولاً في « المختصر » الذي عملناه عن التاريخ الاسلامي .

ولقد ابتعدنا قليلاً عن موضوعنا ، وحان الوقت للعودة الآن إلى وصف مراكش .

---

(١٥٩) هذا الملخص الذي ذكره عن سقوط أسرة المرابطين لا يتفق مع حقائق التاريخ . فالمهدي بن تومرت لم يقم حتى موته بأكثر من غزوات ضد قبائل الأطلس الجنوبي وضد علي بن يوسف ، ملك مراكش . ولكن كان خلفه ، أبو محمد عبد المؤمن الكومي ، الذي نودي به يوم الخميس ٢١ آب (اغسطس) ١١٣٠ م ، هو الذي انجز فعلاً عملية الاستيلاء البطيء على امبراطورية المرابطين . ولم تسقط مراكش إلا يوم السبت ١٢ آذار (مارس) ١١٤٧ م حسب كل احتمال . ويبدو أن موت تاشفين بن علي بصورة مأساوية والذي ورد ذكره هنا بصورة مختلفة ، قدحدثليلة ٢٧ رمضان من عام ٥٣٩ هـ/ أو ليلة ٢٢ إلى ٢٣ آذار (مارس) ١١٤٥ م . وعندئذ نودي بابنه إبراهيم ملكاً على مراكش ، ولكن عجز هذا الملك أدّى إلى خلعه وانتخاب عمه الصغير اسحق ابن علي . وهذا هو الذي اغتاله عبد المؤمن دون شفقة .

(١٦٠) لقد نصب عبد المؤمن بتاريخ الرابع عشر من رمضان ٥٢٤ هـ وآخر ملك من الموحدين هو أبو العلا ادريس الملقب بأبي دبوس ، الذي قتل في آخر يوم من عام ٢٢٧ هـ/ الجمعة ٣٠ آب (اغسطس) ١٢٦٩ م . ولكن بعد يومين أي الأول من ايلول (سبتمبر) أو الثاني من محرم ٦٦٨ هـ استطاع قاهره ، يعقوب بن عبد الحق ، الذي سبق أن نودي به ملكاً على الشمال بتاريخ ٣٠ تموز ١٢٥٨ م ، أن يدخل مراكش وامتلكها نهائياً وأقام فيها .

(١٦١) أي مملكة مراكش .

(١٦٢) هذا التاريخ أي ٧٨٥ هـ/ ١٣٨٣ م . هو بلا شك التاريخ الذي تنازع فيه على مراكش اثنان من سلاطين المرينيين المتنافسين وهما عبد الرحمن بن ايفاللوسن وأبو العباس احمد ابن أبي سالم . وقد حاصر الثاني عدوه في مراكش ، وتمكن أخيراً من الانتصار عليه وقتل عبد الرحمن مع ولديه . وربما كانت مراكش في هذا الوقت تحت حكم أمراء يعودون أصلاً لقبيلة هنتاتة ، وقد استقلوا استقلالا ذاتياً واتخذوا بعدئذ لقب سلطان .

(١٦٣) سنة ١٢٧٦ م .

تملك هذه المدينة قصبة[١٦٤] لا يقل اتساعها عن مدينة ، مع أسوار سميكة ومتينة وأبواب بديعة جداً بني جانباها وأسقفها[١٦٥] من الحجر المنحوت وصنعت مصاريعها من الحديد . ويقوم في وسط القصبة جامع جميل جداً تعلوه منارة فخمة رشيقة ، في قمتها ساق من حديد انتظمت فيه ثلاث تفاحات من الذهب تزن مائة وثلاثين ألف دينار افريقي[١٦٦] . والسفلى هي أكبر التفاحات والعليا هي أصغرها . وقد فكر عدة ملوك بانتزاعها وسكّها عملة عندما كانوا في حاجة ، ولكن كان يقع لهم دائما حادث خارق يقسرهم على تركها ، حتى أنهم اعتبروا المساس بها شؤماً . ومن الشائع بين الأهلين بأن هذه التفاحات قد وضعت في مكانها تحت تأثير الكواكب بحيث لا يمكن انتزاعها من مكانها ، ويضاف إلى ذلك أن الذي ثبتها نطق رقية سحرية اضطرت بعض الأرواح بتأثير منها إلى تجنيد حرس واصب . وفي أيامنا أراد ملك مراكش[١٦٧] الذي كان عليه أن يدافع عن نفسه ضد النصارى البرتغاليين ، والذي لم يكن لديه أي تقدير لتطيّر الدهماء الساذج ، أن يقتلع هذه الكرات ، ولكن سكان المدينة لم يسمحوا له بذلك ، متذرعين بأنها تؤلف أشرف زينة لمدينتهم . ونقرأ في الكتب التاريخية أن زوجة المنصور[١٦٨] رغبت ، بعد أن بنى زوجها هذا الجامع[١٦٩] في أن تخلف هي نوعاً من ذكرى عن نفسها بين تزيينات هذا البناء ، فباعت حليها الذهبية الخاصة ، والفضية والأحجار الكريمة وجميع ما قدمه لها الملك عند زواجه منها وأمرت بصنع التفاحات الذهبية الثلاث التي تعطي مظهراً جميلا للغاية فوق قمة هذه المنارة ، كما قلنا ذلك آنفا . هذا وتقوم في القصبة مدرسة جميلة جداً أو ، على الأصح ، مؤسسة للدراسات ولسكنى طلاب متنوعين .

وتحوي على ثلاثين غرفة ، وفي الطابق الأرضي قاعة كانت تعطى الدروس فيها في الماضي . وكان كل تلميذ مقبول في هذه المدرسة يعفى من مصاريفه ويكسى مرة في كل عام . وكان الأساتذة يتقاضون مرتبا يتراوح بين مائة ومائتي دينار حسب طبيعة الدروس

---

(١٦٤) تعني كلمة قصبة في بلاد المغرب الحصن أو القلعة . (المترجم) .

(١٦٥) يسمى سقف الباب أسكُفَّة . وقد تطلق هذه الكلمة كذلك على عتبته السفلى .

(١٦٦) يعود هذا البناء للعصر الموحدي . والدينار هنا يعني المثقال الموحدي ويزن ٤,٧ جرامات ويجب بكل تأكيد أن نقرأ عوضاً عما كتبه المؤلف : ثلاثة عشر الف دينار ، أي ٦٠ كجم من الذهب .

(١٦٧) أبو علي الناصر بن يوسف .

(١٦٨) أي زوجة الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن ، الملقب بالمنصور .

(١٦٩) في عام ٥٩٤ هـ أو ٢٤/ ١٠/ ١١٩٦ م الى ١٢/ ١٠/ ١١٩٧ م .

التي عهد إليهم بأمر القيام بها ، ولا يمكن قبول أحد في هذه المدرسة بدون أن يكون على اطلاع تام بمبادىء العلوم . وهذه البناية مزدانة بالفسيفساء البديعة . وحيثما لا يكون هناك فسيفساء فإن الجدران الداخلية تكون مغطاة بمربعات من قرميد مشوي ، مطلية ومقطعة على شكل أوراق شجر خفيفة[170] أو بمواد أخرى تحل محل الفسيفساء ، وهذا خاصة في غرفة الدروس وفي الدهاليز المسقوفة . وكل رقعة لا تكون مسقوفة تظهر أرضها مبلطة بمربعات مطلية تسمى الزليج كما كان الوضع في أسبانيا[171] . ونجد في وسط البناء حوضاً منقوشاً بالنحت ، مصنوعاً من المرمر الأبيض ، ولكنه منخفض حسب العادة في افريقيا . وكان يوجد في الماضي ، حسبما بلغني ، عدد كبير من الطلاب في هذه المدرسة ، ولكنهم لا يزيدون اليوم عن خمسة ، مع أستاذ شريعة ذي جهل عميق ، ليس في ذهنه إلا معارف ضحلة غامضة عن الانسانيات وأقل من ذلك عن العلوم الأخرى .

وعندما ذهبت إلى مراكش كانت لي علاقات ودية مع قاضٍ هناك كان رجلا غنياً ، وكان يعرف تاريخ افريقيا بصورة جيدة ولكنه غير ضليع في علم الشريعة . وقد حصل هذا الرجل على وظيفته بفضل الممارسة التي اكتسبها في خلال أربعين عاماً كان في أثنائها كاتب عدل ومقرباً من الملك . أما الأشخاص الآخرون الذين كانوا يشغلون وظائف عامة فقد ظهروا لي من ذوي النفوس الغليظة وذلك استناداً للتجربة التي كانت لي حينما كنت بصحبة هذا الامير ، في البرية ، في أول مرة أقصد فيها منطقة مراكش .

هذا ويوجد في القصبة أحد عشر أو اثنا عشر قصراً متقنة البنيان والزخرفة من التي بناها المنصور . وأول قصر نصادفه كان يقيم فيه الحرس من الرماة ، النصارى ، الذين كان عددهم ، عادة ، خمسمائة ، وكانوا يسيرون دوماً أمام الملك عندما كان ينتقل من مكان إلى آخر . وكان يقيم في القصر الواقع إلى جانب السابق عدد مماثل من النّبالة . وعلى مسافة أبعد من ذلك بقليل كان يسكن المستشارون وأمناء السر وكان مقامهم يسمى بالعربية « بيت القضايا » . وكان القصر الثالث يحمل اسم قصر النصر ، وهناك كانت تخزن اسلحة المدينة وذخائرها . وفي قصر آخر ، وعلى مسافة ما ، كان يسكن رئيس اسطبلات الملك ، ويوجد قرب هذا القصر ثلاثة اسطبلات مسقوفة بعقود كل منها يمكن أن يؤوي ثلاثمائة حصان بسهولة . ويوجد أيضاً اسطبلان آخران ، أحدهما للبغال يضم

---

(١٧٠) وهو يسمى حالياً بالزليج Zellij

(١٧١) كان الزليج في ذلك العصر عبارة عن بلاطات مربعة كاملة مدهونة ، وفي اللغة الأسبانية آزولوجوس .

مائة رأس ، والآخر للأفراس وإناث البغال التي كان يركبها الملك .

وبعد هذه الاسطبلات كان يوجد صومعتان كبيرتان ، وهما أيضاً على شكل أقبية . وكان لكل صومعة منهما طابق علوي . ففي الطابق الأرضي كان يخزن التبن . وفي القسم الأول من الطابق العلوي كان يخزن الشعير للخيل ، وفي القسم الثاني القمح . ويستطيع كل من هذين الطابقين أن يستوعب أكثر من ثلاثين ألف « روغجي » من الحب (١٧٢) .

وقد فتحت فوق سقف هاتين البنايتين طاقات ، ويُرقى إلى هذا السقف بواسطة درج من حجر . وتصعد الحيوانات المحملة فوق هذا السقف حيث يكال الحب ، ثم يصب من هذه الطاقات . وعندما يراد سحب الحب يكفي فتح الفوهات المفتوحة من أسفل الصوامع . وهكذا يمكن سحب الحب من هذه الصوامع وتخزينه فيها بدون مشقة .

وعلى مسافة أبعد قليلا يقوم قصر آخر جميل يستخدم مدرسة لأبناء الملك ولأبناء أسرته . ونرى فيه قاعة بديعة جداً مربعه محاطة بممشى مع نوافذ أنيقة جداً تزدان بزجاج ملون . ونجد حول هذه القاعة بضع خزائن خشبية مزدانة بنقوش محفورة مذهبة ، وتتغطى من مختلف أجزائها برسوم ذهبية . وبلون لا زوردى زاهٍ . هذا وكان يوجد قصر آخر مخصص لحرس مؤلف من بعض رجال الدرك . وفي قصر آخر كبير جداً كان يجلس فيه الملك للمقابلات العامة . وفي قصر آخر كان يجلس السفراء عندما يستقبلهم الملك وكذلك امناء السر . وكان قصر آخر مخصصاً لزوجات الملك ووصيفاتهن وجواريهن .

وإلى جوار هذا كان يقوم قصر مقسوم إلى عدة مساكن لأبناء الملك ، اي عندما يكونون في سن الشباب نوعاً ما . وعلى مسافة ما ، أي على طول جدار القصبة الذي يطل على الحقول ، كان يقع بستان جميل وواسع جداً مليء بكل أنواع الأشجار والزهور . ويرى الناظر فيه حوضاً مربعاً ، كله من المرمر ، وعمقه سبعة أشبار (١٧٤) ، في وسطه عمود كان يحمل أسداً من رخام منحوت في فن دقيق ، يتدفق من فمه ماء صاف غزير كان

(١٧٢) كيل إيطالي لا نعرف سعته بشكل دقيق .

(١٧٣)يطلق على أمين السر اسم « الكاتب » . (المترجم) .

(١٧٤) أي ١,٥م إذا كان يقصد بذلك الشبر المراكشي وهو ٢١,٦سم .

ينتشر في الحوض . وفي كل من زوايا الحوض الأربع كان يقوم فهد من رخام أبيض مبرقش ببقع خضراء مستديرة . ولا يوجد هذا المرمر في أي مكان إلا في بعض بقاع جبال الأطلس على مسافة مائه وخمسين ميلا من مراكش (١٧٥) .

وبالقرب من البستان كانت توجد حديقة حيوانات تضم العديد من الحيوانات الوحشية كالزرافات والفيلة والأسود والودّان والتيوس الجبلية . وكان للأسود مع ذلك حديقة حيوان منفصلة عن بقية الحيوانات الأخرى ، ولا تزال تدعى ، إلى اليوم ، حديقة الأسود .

هذا وبالرغم من قلة مخلفات الماضي التي قدّر لها أن تبقى من هذه المدينة ، فإن الباقي يستطيع أن يجعلنا نؤ من بالفخامة والعظمة اللتين كانتا سائديتن في عصر المنصور . أما اليوم فلم يبق مأهولاً سوى قصر الأسرة المالكة وقصر الرماة . ويسكن في القصر الأخير هذا حجّاب الملك وسائقو بغاله. أما البقية فقد تحولت إلى مأوى لأسراب الحمام البري والغربان والبوم وطيور اخرى من هذا القبيل. واما البستان الذي كان فيما مضى بهجة للناظرين فقد تحول الى مزبلة للمدينة . وقد تحول القصر الذي كان يضم المكتبة إلى حظيرة دجاج ، وتحول القسم الآخر إلى برج للحمام ، واستخدمت الخزائن التي كانت تضم الكتب أعشاشاً لهذه الطيور . وقد كان المنصور هذا بالتأكيد أميراً عظيماً ، إذ كانت سلطته تمتد من ماسّه إلى طرابلس من بلاد البربر ،وهي أشرف جزء في افريقيا. وماكان بالإمكان اجتياز امبراطوريته بالطول بأقل من تسعين يوماً سفراً ؛ ودون خمسة عشر يوماً لاختراقها عرضاً . وكان يحكم أيضاً من أوروبا على كل القسم الذي يدعي بلاد غرناطة من أسبانيا والذي يمتد من طريف الى مقاطعة آراغون والذي كان يضم جزءاً من قشتالة ومن البرتغال . ولم يكن المنصور وحده هو الذي امتلك امبراطورية بمثل هذا الاتساع ، فقد سبقه إلى ذلك جده عبد المؤمن (١٧٦) وأبوه يوسف (١٧٧) ولحقه في هذا الاتساع ابنه أبو عبد الله محمد الناصر (١٧٩) . وهذا الأخير هو الذي هزم من مملكة بلنسية ، وفقد من فرسانه بمقدار خسارته

---

(١٧٥) أي ٢٤٠ كلم .

(١٧٦) توفي في السابع من نيسان (ابريل) ١١٦٣م .

(١٧٧) أبو يعقوب يوسف ، توفي في ٢٣ تموز (يولية) ١١٨٤م .

(١٧٨) توفي في ٢١ كانون الثاني (يناير) ١١٩٩م .

(١٧٩) توفي في ٢٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٢١٣م .

من المشاة أي حوالى ستين ألف رجل ، واستطاع ان ينجو بشخصه من هذه النكبة والعودة إلى مراكش[١٨٠] . وبعد هذا الانتصار استرد النصارى شجاعتهم ، وتابعوا مشروعهم ، واسترجعوا في مدة ثلاثين عاماً ، بلنسية ، ودانية ، واليقانط ، ومرسية ، وقرطاجنة ، وقرطبة واشبيلية وجيان وعبيدة . وعلى اثر هذه الهزيمة التي لا تنسى وهذه المجزرة ، أخذت أسرة ملوك مراكش تتدهور . وعندما توفي محمد ترك ولدين بالغين أراد كلاهما الاستئثار بالسلطة . ولهذا السبب اقتتلا مما أدى لدخول عشيرة بنى مرين إلى مملكة فاس .

وإلى هذه المناطق ، وبسبب ذلك تمردت قبيلة بنى عبد الواد أيضاً واستلمت مقاليد السلطة في تلمسان ، وطردت الحاكم المعينّ من قبل تونس ، وانتخبت الملك الذي ارتضته[١٨١] . وتلك هي نهاية خلفاء المنصور . وهكذا آلت مملكة مراكش ليدي يعقوب بن عبد الحق ، أول ملك من أسرة بني مرين[١٨٢] . وفي الختام ، خسرت مراكش شهرتها القديمة وظلت مهددة بغارات الأعراب في كل مرة يرفض السكان فيها إرضاء أي رغبة من رغباتهم . وما قلته حتى الآن عن مراكش إنما رأيت بعضه بنفسي ، رأي العين على الطبيعة ، واستقيته كذلك من « تاريخ مراكش » وهو مؤلف من سبعة مجلدات ، لمؤلفه ابن عبد الحق ، مؤرخ مراكش[١٨٣] ، وهذا يظهر أيضاً في مختصرنا عن التاريخ الإسلامي .

---

(١٨٠) وهو الانكسار الرهيب الذي تعرض له المسلمون في موقعه حصن العقاب والذي كسبت فيه النصرانية معركة لاسنافاس دو تولوزه ، التي وقعت في سروات مورينا قرب مدينة كارولينا الحالية ، بتاريخ ١٤ صفر ٦٠٩هـ الموافق ١٦ تموز (يولية) ١٢١٢م .

(١٨١) لقد خلف محمد الناصر إبنه يعقوب يوسف المستنصر دون منافسة تذكر ، ولكن من الصحيح أيضاً القول ان العشيرة الزناتية بني مرين ، التي كانت تعيش حياة البداوة حتى ذلك الوقت في المناطق الصحرواية شرقي نهر الملوية ، ظهرت فجأة وبعنف في الاراضي الزراعية المعمورة من المغرب الأقصى وذلك خلال ربيع عام ١٢١٦م في أعقاب انهيار جيش الموحدين والعصيان الخطير الذي قامت به عشائر زناته في المغرب الأوسط والذي أثاره الطامع المرابطي يحي بن غانية . كما أن بني عبد الواد ، وهم من زناتة كذلك ، وكانوا من بدو منطقة تلمسان ، كان المجال واسعاً أمامهم ، إذ لم يكن ثم حاكم تونسي يتخلصون منه . بل إن الخليفة الموحدي أبا العلا ادريس المأمون عهد هو بنفسه إلى شيوخ هذه القبيلة بحكم تلمسان لكي يقفوا في وجه أبناء عمومتهم المرينيين حوالي العام ١٢٣٠م . وفي عام ١٢٣٦م نادى أميرهم الجديد ، يغموراسن بن زيان بنفسه ملكاً .

(١٨٢) لقد نودي بأبي يوسف يعقوب بن عبد الحق في شمالي المغرب يوم ٣٠ تموز (يولية) ١٢٥٨م ، فاحتل مراكش على أثر موت الخليفة الموحدي أبى العلا ادريس ، المسمى ابو دبوس ، والذي قتل في ٣٠ آب (اغسطس) ١٢٦٩ م .

(١٨٣) ابن عبد الحق المراكشي ، مؤلف كتاب بعنوان « كتاب الذيل والتكمله »

مدينة أغمات

أغمات [١٨٤] مدينة تقع على مسافة أربعة وعشرين ميلا [١٨٥] من مراكش ، شيّدت فوق سفح جبل يؤ لف جزءاً من الاطلس . وكانت بها قرابة ستة آلاف أسرة . وقد كانت في عصر الموحدين مدينة مطمئنة جداً بحكم عادل ، حتى أنها سميت مراكش الثانية . وتحيط بها كروم بديعة جداً بعضها في الجبل وبعضها في السهل . ويمر من أسفل المدينة نهر ينبع من جبال الأطلس ويصب بعدئذ في نهر التانسفت . وتجري هذه الأنهار في أرض خصبة التربة: يقال أنها تعطي أحياناً خمسين ضعف مايوضع فيها من بذور . وماءالنهر أبيض بصورة دائمة . وتشابه البلدة ونهرها مدينة نارني . ونهرها النيرا في إقليم أومبري [١٨٦] .

ويجزم بعضهم أن ماء هذا النهر يصل إلى مراكش ، وأنه بعد أن يأخذ ماءه من منبعه قرب أغمات يتابع مجراه في قنوات باطنية . وقد أمر عدة ملوك بإجراء أبحاث لمعرفة المكان الذي يأتي منه هذا الماء إلى مراكش . وبناء على أوامرهم دخل عدة رجال في القناه عند نقطة وصولها وبيدهم مصباح للاستنارة به . وعندما تقدموا مسافة ما في القناة شعروا بريح شديد أطفأت أنوارهم ، وكانت هذه الريح عاصفة لم يروا مثلها في شدتها من قبل ، وتعرضوا عدة مرات إلى خطر العجز عن العودة إلى الوراء ، بسبب هذه الريح من جهة ولأن مجرى الماء من جهة أخرى كان غاصاً بجلاميد من الحجارة الضخمة التي كان الماء يتهشم عليها كي يمر من ناحية إلى أخرى . وبعدئذ وجدوا ثقوباً عديدة عميقة جداً فاضطروا إلى العزوف عن مشروعهم وبعد هذه المحاولة لم يكن لدى أي شخص من الجرأة ما يكفي لاستئناف التنقيب .

ويقول المؤ رخون أن الملك الذي أسس مراكش توقع ، إستناداً إلى معطيات بعض المنجمين ، أنه سيتعرض لحروب عديدة . ولهذا وضع هو نفسه في المجرى الجوفي للنهر كل هذه العوائق ، مستعيناً في أعماله هذه بالفن السحري ، وذلك كيلا يستطيع أي عدو

---

(١٨٤) وتلفظ محلياً غمات ، ولكن يغلب على المكان اسم الجما ، وتقع على الضفة اليسرى لوادي غمات .

(١٨٥) ٣٨,٥ كلم .

(١٨٦) ليس هناك أكثر من تماثل غامض بين هذين المشهدين ، ولكن « نارني » التي تربض فوق تل ، وتطل من قوف سفح عمودي تقريبا على خانق نهر نيرا ، تسمح لنا بالتوضيح بأن أغمات التي وصفها المؤلف كانت تقع على اليسار عند النظر الى نهر اوريكا من السهل ـ أو غمات ـ أي من ضفة هذا النهر اليمنى ، والذي يجري في اتجاه معاكس لنهر نيرا .

معرفة مصدر الماء وبالتالي لا يستطيع سبيلا إلى قطعه عن اصل البلد(١٨٧) .

وفي اسفل أغمات ، وعلى طول النهر ، نجد ممراً يجتاز جبال الأطلس نحو إقليم جزوله .

وقد أصبحت اليوم هذه المدينة (يقصد أغمات) مأوى الذئاب (١٨٨) والثعالب والغربان والطيور وحيوانات أخرى من هذا النوع . وفي أيامي لم يكن يسكن القلعة سوى ناسك مع مائة من تلامذته الذين كان لديهم جميعاً خيول جميلة جداً. وقد حاول أن يجعل من نفسه أميراً ، ولكن لم يكن لديه تابع يحكمه . وقد نزلت عند الناسك ومكثت بضيافته قرابة ثمانية أيام . وكان أخوه أحد أصدقائي الحميمين . إذ كان طالباً في مدرسة مجاورة لبيتي في فاس . وقد واظبنا معاً على تلقي درس في التوحيد من كتاب النسفي (١٨٩) .

آنيماي

آنيماي(١٩٠) بليدة صغيرة على سفوح جبل تتجه نحو السهل ، على مسافة خمسين ميلاً(١٩١) تقريباً من مراكش ، على الطريق الذي يسلكه الناس للذهاب إلى فاس بمحاذاة سفح الجبل . ويمر نهر أغمات على مسافة خمسة وثلاثين ميلاً(١٩٢) من هناك ، ومن هذا النهر حتى آنيماي تكون الأراضي خصبة كما هو الحال في أغمات . وتخضع المنطقة من مراكش إلى نهر أغمات لأمير مراكش . أما المنطقة الممتدة من مراكش إلى آنيماي فقد كانت خاضعة لأمير من آنيماي وهو شاب باسل ، كثيراً ما كان في حالة حرب مع ملك مراكش

---

(١٨٧) « تدعى هذه الظاهرة بالجريان الكارستي ، نسبة إلى جبال الكارست اليوغوسلافية . والسبب هو أن النهر يجري من منطقة ذات صخور كلسية (جيرية) ذوّابة ، لذا يكون جريانه في بعض أجزائه باطنياً ضمن كهوف معقدة ، كمغارة قاديشا أو جعيتا في لبنان ، أو مناطق الخفوس في أواسط نجد ، أو في شبه جزيرة قطر» (المترجم) .

(١٨٨) أي ابن آوى .

(١٨٩) كتاب « العقائد النسفية » لمؤلفه نجم الدين ابي حفص عمر النسفي (١٠٦٨ - ١١٤٢م) .

(١٩٠) لقد اتخذت آنيماي اسم سيدي رحّال الذي أسس زاوية في القرن السادس عشر ، ولكن اسم مولاي آنيماي ظل يطلق على مكان قرب هذه الزاوية ، والذي يجله الكثير من المسلمين باعتباره مكان ضريح أحد أوليائهم مثلما يحترمه اليهود لأن أحد أحبارهم قدّسه . وتقع البلدة على وادي تساءوت الرافد العلوي لنهر أم الربيع .

(١٩١) ٦٤ كم .

(١٩٢) أو ٥٣ كم .

ومع العرب . وكان يحكم أيضاً بضع عشائر في جبال الأطلس . وكان كريماً وشجاعاً . ولم يكن عمره يتجاوز ستة عشر عاماً حينما اغتال أحد أعمامه ونادى بنفسه أميراً على آنيماي . ولم يلبث أن اتته فرصة دلت على شجاعته وإقدامه . فقد تحالف عدد كبير من العرب مع ثلثمائة من فرسان البرتغال وقاموا بغارة مفاجئة حتى أبواب آنيماي . ونشبت معركة بينه وبينهم ، واستطاع هذا الشاب مع مائة فارس وبعض العرب أن يقاتل بشجاعة مذهلة ، وسقط عدد كبير من العرب المهاجمين صرعى ولم يعد ولا نصراني واحد حياً إلى البرتغال . ويرجع سبب هزيمتهم إلى أنهم لم تكن لديهم أية خبرة عن البلاد . وقد حدث هذا عام ٩٢٠ هـ(١٩٣) . وحدث أن طلب الملك(١٩٤) من أمير آنيماي إتاوة فرفض الأمير مطلبه . فأرسل الملك حينئذ حملة مؤلفة من عديد من الخيالة الرماة . فقرر الأمير ملاقاة العدو ، وخرج من المدينة لمباشرة المعركة ، ولكنه تلقى رصاصة من طبنجة في صدره فسقط ميتاً في الحال . وأصبحت المدينة تابعة للملك ، وقد قدمت أرملة الأمير ، نفسها ، لقائد حملة الملك بضعة وجهاء فأسرهم وكبلهم بالأصفاد . وترك القائد وراءه حاكماً وعاد أدراجه . وقد وقع هذا الحادث عام ٩٢١ هـ(١٩٥) .

أنفيفة

أما وقد تكلمنا عن منطقة مراكش بصورة تبدو لنا كافية ، فنشرع الآن في الكلام ـ حسب النظام المعهود ـ عن أكثر جبالها شهرة . وسنبدأ بجبل أنفيفة الذي يشير ، في الغرب ، إلى بداية هذه المنطقة ويفصلها عن منطقة حاحة . وهذا الجبل كثير السكان . وفوق قمته ـ التي كثيراً ما يتساقط فيها الثلج ـ يزرع الشعير بغزارة كبيرة . وسكانه همج دون أية تربية : وعندما يشاهدون ابن مدينة يدهشون لمنظره ويستغربون ثيابه . وهذا ما فعلوه معي في أثناء اليومين اللذين قضيتهما عندهم . فقد ارتديت معطفاً أبيض اللون حسب عادة طلاب هذه البلاد . فأخذ كل رجل كنت اتحادث معه يلمسه ليتأمله ، حتى أصبح في نهاية هذين اليومين أشبه شيء بمسحة مطبخ . وقد اضطرني أحد وجهائهم أن

---

(١٩٣) لا تذكر الوثائق البرتغالية شيئاً عن ذلك الحادث ، غير أنه محتمل جداً ، ويغلب على الظن أنه حدث قبل آخر شهر من عام ٩٢٠هـ وبين ١٧ كانون الثاني (يناير) و ١٤ شباط (فبراير) عام ١٥١٥ م .

(١٩٤) أي ملك مراكش .

(١٩٥) يحتمل حدوث ذلك في حزيران أو تموز (يونية أو يولية) ١٥١٥ م .

أبادله حصانه الذي يساوي عشرة دنانير مقابل السيف الذي أحمله والذي لم يكن يساوي ديناراً ونصف الدينار في فاس . ويعود ذلك إلى أن التجار لا يأتون أبداً لهذه البقعة بسبب الاغتيالات التي ترتكب فيها . ويكثر هنا الماعز والعسل والهرجان . وابتداء من هذا الموقع يبدأ ظهور الهرجان .

جبل سمد (١٩٦)

يبدأ هذا الجبل من تخوم الجبل السابق . وينفصل عنه بنهر شيشاوة . ويمتد على مسافة عشرين ميلاً(١٩٧) باتجاه الشرق . والسكان هنا أنذال ، غلاظ وفقراء(١٩٨) . ونجد في هذا الجبل ينابيع كثيرة ويظل الثلج طيلة العام . ولا يوجد هنا شخص يحمي العدالة ولا شخص يتقيد بها . ويلجأ السكان أحياناً لأحد المسافرين الذين يرون فيه الكفاءة . وقد أمضيت ليلة في هذا الجبل ، في بيت فقيه محترم جداً بين هؤلاء الجبليين . وقد كان عليّ أن أتناول طعام أهل المنطقة ، أي دقيق الشعير المنقوع بالماء الغالي ، مع لحم تيس هرم بدا لي من قساوته أن عمره كان يتجاوز سبعة أعوام . وفضلا عن ذلك اضطررت أن أنام على الأرض العاريه . وقد استيقظت مبكراً استعداداً للسفر . وحينئذ وجدت أكثر من خمسين شخصاً يحيطون بي وأخذوا يعرضون عليّ مخاصماتهم بنفس الطريقة التي يعرضونها على قاض أو على حكم ، ونظراً لأنني كنت أجهل تقاليدهم ، فقد أجبتهم بأنني لا أعرف شيئا عن قضاياهم . وعندئذ تقدم ثلاثة من أكثر وجهائهم زعامة لمقابلتي ، وقال لي أحدهم : « أيها السيد ربما كنت تجهل عادتنا . وإليك إياها : لا يغادرنا أي غريب قبل أن يدرس ويحسم دعاوينا » ، وما كاد يلفظ هذه الكلمات حتى رأيت حصاني وقد انتزع من يدي . وقد اضطررت إلى تحمّل تسعة أيام مرة وتسعة ليال لا تقل عنها مرارة ، سواء بسبب الطعام أو بسبب الفراش . هذا وبالإضافة إلى عدد القضايا ، لم يكن هناك إنسان يعرف كتابة كلمة واحدة . وهكذا قمت بوظيفة قاض وبوظيفة كاتب عدل في آن واحد .

وفي ختام ثمانية أيام قال لي الأهالي بأنهم سيقدمون لي في صبيحة الغد هدية جميلة . فقضيت ليلة خلتها ألف عام مع الأمل ، في شعوري ، بأنني سأتقاضى مقداراً كبيراً من

---

(١٩٦) اسم موقع لم يحدد له مكان .

(١٩٧) ٣٢ كم .

(١٩٨) كثيراً ما نجد هذا التعميم لدى الجغرافيين والرحالة العرب ، وغالبا ما يسجله المؤلف نتيجة معاملة فردية ولا يمكن تعطى انطباعاً صحيحاً عن مجتمع أو مدينة أو منطقة بكاملها .

الدنانير . ومع بزوغ الفجر أجلسوني تحت باب جامع ، وبعد أداء الصلاة ، تقدم كل واحد منهم بهدية وقبّل رأسي . فقدم واحد منهم لي ديكاً ، وآخر قشرة جوزة ، وآخر ضفيرة أو اثنتين من البصل ، وغيره ضفيرة ثوم . وقدم لي أشرفهم هدية هي عبارة عن تيس . ولما لم أجد شخصا يشتري كل هذه الأشياء ، لأن المنطقة لا تعرف النقد المسكوك ، فقد تركتها لصاحب البيت لأنني لا أريد أن أحملها معي . ذاك كان أجر التعب والمقت خلال هذه الأيام العديدة . ولكن ، والحق يقال ، لقد واكبني خمسون من هؤلاء الغلاظ على طول جزء من الطريق الذي لم يكن مأموناً .

جبل سوساوة (١٩٩)

يأتي هذا الجبل بعد الجبل السابق الذكر . ويتولد منه نهر يحمل اسمه[٢٠٠] . والسكان وحشيون للغاية ويحتربون باستمرار مع جيرانهم . وأسلحتهم هي حجارة يقذفونها بالمقلاع . ويعيش الناس على الشعير والعسل ولحم الماعز . ويعيش كثير من اليهود مختلطين بهم ، وهم الذين يمارسون في هذه الجبال حرفة الحدادة ويصنعون المجارف والمناجل وحدوات حوافر الخيل . ويقومون أيضا بمهنة المعمار التي لا تحقق لهم أرباحاً هامة لأن الجدران تشيّد هنا بواسطة الطوب النيء والصلصال وتسقف البيوت بالقش ، إذ لا يوجد كلس[٢٠١] ، ولا قرميد ، ولا طوب مشوي . وتظهر كل المنازل مبنية بنفس الطريقة في سائر الجبال التي تكلمنا عنها قبل قليل . وبين سكان هذا الجبل العديد من الفقهاء الذين يرشدونهم في بعض القضايا . وقد تعرفت على بضعة منهم من الذين أتمّوا تحصيلهم في فاس ، واستقبلوني بوداد وأكثروا من الوعود في مرافقتي .

جبل سكسيوه

سكسيوة جبل غير منزرع ، عالٍ جداً ، وشديد البرودة . وهو مغطى بغابات

---

(١٩٩) جبل سعيسعاوه (ماسينيون ١٩٠٦ ، ص ١٩٧)

(٢٠٠) لقد كتب سابقاً تحت شكل سفساوة ، ومن المحتمل أن المقصود به واد شيشاوة الذي لم يعد يحمل هذا الاسم إلا في مجراه الأدنى . ولا نجد أي جبل يحتفظ بهذه التسمية .

(٢٠١) « ويسمى النورة في جزيرة العرب ، والكلس في بلاد الشام الشمالية ، ومنه جاءت كلمة كلسيوم في اللغات الأوربية ، والشيد في فلسطين والأردن ، والجير في مصر ومعظم المغرب » (المترجم)

عديدة ولا يختفي منه الثلج أبداً . ومن عادة سكانه أن يلبسوا فوق رؤ وسهم قبعات بيضاء(٢٠٢) وفي هذا الجبل عدد كبير من العيون . وهنا يتولد نهر آسيف اينوال(٢٠٣) . ونجد في هذا الجبل الكثير من الكهوف العريضة والعميقة حيث اعتاد الناس إيواء الماشية فيها في أثناء ثلاثة أشهر من العام وهي تشرين الثاني وكانون الأول وكانون الثاني (نوفمبر وديسمبر ويناير) . وتعلف هذه المواشي بالتبن وبأوراق بعض الأشجار الكبيرة جداً . وتجلب الأقوات من الجبال المجاورة إذ لا ينبت شيء هنا . ويكثر الجبن الطري والزبدة في فصلي الربيع والصيف . ويتمتع الرجال بعمر طويل ويعيشون في الغالب ثمانين ، أو تسعين ، وحتى مائة سنة . وتكون شيخوختهم قوية وخالية من العلل التي تجلبها السنون . فهم يستمرون في السير خلف حيواناتهم حتى موتهم . ولا يمكن أن نرى هنا غرباء ، وهم لا ينتعلون أحذية حقيقية في أرجلهم ، ولكي يحموا أرجلهم من الحصى يضعون تحت أقدامهم أصنافاً من النعول ، ويلفون حول أفخاذهم خرقاً مشدودة بخيوط لحمايتها من الثلج .

جبل ومدينة تينمل

تينمل هو اسم جبل عالٍ جداً وبارد للغاية . ولكنه مأهول في شتى أرجائه . وتقوم فوق قمته مدينة تحمل اسم الجبل . وهي كذلك كثيرة السكان وتزدان بمسجد جميل . ويخترقها نهر(٢٠٤) . وهنا دفن المهدي الداعية(٢٠٥) وتلميذه عبد المؤمن . وسكان المنطقة من أسوأ الأجناس وأخبثها . ويتفاخرون بشدة الثقافة لأنهم جميعاً تقريباً درسوا الشريعة الاسلامية وعقيدة هذا الداعية الذي اعتبره الناس حيناً من الدهر منشقا عن الجماعة . وما أن يروا أجنبيا حتى يميلوا الى مناقشته . وهم رديئو الكساء إذ لا يوجد أجنبي يتاجر في هذه المنطقة ، ويعيشون عيشة حيوانية فيما يتعلق بطرائقهم في نظام الحكم . غير أن لهم قاضيا على رأس مجلسهم . ويقتاتون عادة بالشعير وزيت الزيتون ولديهم كمية كبيرة من الجوز ومن تفاح الصنوبر .

---

(٢٠٢) « لعلها القبعة المتصلة بالبرنس من الخلف والتي نرى أبناء المغرب الأقصى يلبسونها حتى الآن وخاصة في الطقس البارد ، وتشبه قبعة الرهبان الكبوشيين الكاثوليك » (المترجم) .

(٢٠٣) وهو واد ايمينتانوت الذي يقع منبعه في جبل سكسيوه .

(٢٠٤) واد النفيس .

(٢٠٥) محمد تومرت

جبل غدميوا

غدميوا جبل يبدأ من جبل سميدا من الغرب ويمتد نحو الشرق على مسافة خمسة وعشرين ميلاً(٢٠٦) تقريباً حتى يصل إلى أميزمز . والسكان عبارة عن قرويين فقراء خاضعين للعرب ولأمير بلدة الجمعة الجديدة ؛ لأن مساكنهم تجاور السهل الذي يطل على الجنوب حيث يوجد جبل تينمل(٢٠٧) . ويوجد على سفوح الجبل الكثير من شجر الزيتون ومن الحقول التي يزرع فيها الشعير . وتظهر في أعالي الجبل أيضاً غابات واسعة وعديد من العيون .

جبل هنتاتة

وهو جبل عال جداً لم أر له نظيراً في علوه . ويبدأ من الغرب عند تخوم غدميوا ويمتد على مسافة خمسة وأربعين ميلاً(٢٠٨) تقريبا حتى جبل آنيماي . وسكانه رجال بواسل وأغنياء يملكون الكثير من الخيول . وهنا يقع حصن يهيمن عليه أمير ، وهو قريب صاحب مراكش(٢٠٩) ، ولكنه في حرب دائمة مع ابن عمه بسبب قرية مختلف عليها وأرض واقعة على الحدود بينهما . ويوجد في هذا الجبل العديد من الصناع اليهود الذين يدفعون الجزية لهذا الأمير . وينتسبون جميعا إلى مذهب القرائين . وهم ، كما سبق أن قلنا ، شجعان عندما يكون السلاح في أيديهم .

وتظل ذروة الجبل مستورة بالثلج على الدوام . وعندما رأيته لأول مرة خلته سحابة ، بسبب شدة ارتفاع هذا الجبل الهائل(٢١٠) . وسفوحه عارية ، بدون شجر ، ولا عشب . وهناك العديد من المواقع التي يمكن أن يستخرج منها الرخام ذو البياض الناصع والصافي . ولكن أهل المنطقة لا يعرفون قيمة هذا الرخام ، ولا يعرفون كيف

---

(٢٠٦) ٣٦ كم .

(٢٠٧) تبدو فكرة المؤلف هنا عسيرة الفهم .

(٢٠٨) ٧٢ كم .

(٢٠٩) هو « ملك الجبل » ادريس **الهنتاتي** ، ابن عم سلطان مراكش ، الناصر **الهنتاتي** .

(٢١٠) تصل قمة جبال طبقال ، أي الأقرع باللغة البربرية ، الى ٤١٦٥ م ، وهي أعلى قمة في العالم العربي ، وتشرف من ارتفاع ٢٠٠٠ م على حلبة آرّوند .

يستخرجونه ، ولا كيف يجلونه . ونجد هنا العديد من الأعمدة وتيجانها المنقوشة ، وأحواضاً مائية كبيرة وجميلة جداً تتوسطها نوافير الماء التي صنعت في عصر الملوك الأقوياء الذين تكلمنا عنهم آنفاً . والذين حالت الحروب دون تحقيق مشروعاتهم . وقد رأيت هنا الكثير من الأشياء التي تستوقف النظر . ولكن ذاكرتي الهزيلة لم تستطع استعادتها ، وخاصة لأنها كانت مشغولة بقضايا أكثر أهمية .

جبل آديمي

جبل آديمي(٢١١) جبل كبير مرتفع . ويبدأ من تخوم جبل هنتاتة من الغرب ويمتد إلى الشرق حتى نهر تساؤ وت . وهنا تقع المدينة التي قلنا آنفاً أن أميرها قتل في حرب مع ملك فاس . وتسكن هذا الجبل بضع عشائر . ونجد فيه العديد من المزارع من شجر الجوز والزيتون والسفرجل . والرجال هنا شجعان جداً ، ولديهم حيوانات من كل نوع ، لأن الهواء معتدل هنا والأرض غنية . وينفجر هنا العديد من العيون في الجبل ، وينبع كذلك النهران اللذان سنتكلم عنهما بشكل خاص في هذا « الوصف » .

*

أما وقد فرغنا الآن من مملكة مراكش ، التي تنتهي جنوباً بجبال الأطلس ، سنتكلم عن منطقة جزوله الواقعة على الجانب الآخر من الجبل ، والتي تحاذي مملكة مراكش ، ولكن تنفصل عنها بجبال الأطلس .

منطقة جزولـه

منطقة جزوله(٢١٢) إقليم مأهول بكثير من السكان ، يتاخم من الغرب جبل هلالة ،

---

(٢١١) من المحتمل أن يكون الاسم أنياي .

(٢١٢) لا يعني الاسم العربي « جزولة » ، وفي البربرية ايغزولن ، أية منطقة ، أو أية عشيرة معنية ، وإنما يعني حزباً (لف) انضمت إليه عشائر مختلفة وأفخاذ عشائر في منطقة جزولة التي يتحدث عنها المؤلف . وهذا اللفيف يقابل لفيف سكتانة ، وفي البربرية ايزوكتان . وفي العصور القديمة كان كل السكان الوطنيين القاطنين في الهضاب العليا الجزائرية وجبال الأطلس ابتداءً من خليج قابس حتى المحيط ، كانوا جميعاً ينضوون تحت عبارة جايتولي أو جيتول Gétules الفرنسية . أما حدود المنطقة التي يعطيها المؤلف لمكان جبل إيلدا فيجب قراءتها ايلالة ، أو هلالة ، وهي النطق البربري لكلمة ايلالن . كذلك يجب قراءة منطقة الدرعة عوضاً عن منطقة حاحة .

(وقد صححت فعلا في النص) (المترجم) .

وهو جبل السوس ، ويتاخم من الشمال الأطلس حتى حضيض هذا الجبل تقريباً ، ومن الشرق منطقة الدرعة .

وسكان هذا الإقليم أناس أجلاف ، ومحرومون من العملة النقدية ، ولكن لديهم الكثير من الماشية وكمية كبيرة من الشعير . وتوجد في هذه المنطقة عدة مناجم للنحاس والحديد ، وهكذا يصنعون أوعية عديدة من النحاس يحملونها إلى مختلف الأنحاء لمقايضتها بالأقمشة والتوابل والخيول وجميع ما يحتاجون اليه(٢١٣) . ولا يوجد في هذا الجبل(٢١٤) أية مدينة ، أو قصر ، بل توجد قرى كبيرة فحسب ، تضم أحياناً ألف أسرة ، وأحياناً أكثر ، وأحياناً أقل . وليس لسكان هذه الكورة أمير ، بل يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، ولهذا كثيراً ما ينقسمون على أنفسهم ويحتربون فيما بينهم . وفي أثناء كل هدنة ، يستطيع المتخاصمون أن يتاجروا فيما بينهم وأن يذهبوا من قرية لأخرى . ولكن فيما عدا هذه الأيام فهم يقتتلون كالوحوش . وفي الفترة التي مررت فيها في هذه المنطقة ، كان منظم الهدنات ناسكاً كان له بينهم شهرة القداسة . وكان هذا الرجل المسكين أعور ، والحقيقة لم أر فيه سوى الطهر والوداعة والشفقة .

ويلبس سكان هذه المنطقة صدرية قصيرة من الصوف ، دون أكمام ، ملتصقة كل الالتصاق بأجسامهم . ويتسلحون بخناجر محنية وعريضة ، مدببة في نهايتها وحادة من حافتيها ، وسيوفهم مثل سيوف أهل الدرعة . ويقام في منطقتهم سوق يستمر مدة شهرين ، وفي أثناء انعقاد السوق يقدم الطعام لكل الغرباء المتواجدين ، ولو كان عددهم عشرة آلاف . وعندما يأذن موعد السوق تعقد هدنة ويختار كل زعيم حزب قائداً مع مائة من المشاة لتأمين حراسة السوق وسلامة الوافدين إليه . وينظم هذا الحرس الدوريات ويعاقب كل المفسدين حسب أهمية جريرة كل منهم . ويقتل اللصوص فوراً إذ تخترق

(٢١٣) لقد كان لنحاس هذه المنطقة في عصر المؤلف شهرة مؤكدة تحت اسم « سيني » ، مما يشير إلى أن المنجم كان يقع في كورة آغادير ن تيسنت . ولا تزال هناك آثار عن استغلال النحاس على مسافة ٣ كم من مخفر أغادير ن تيسنت ، ولكن الاستغلال متوقف الآن . وكان هناك أيضاً استغلال للنحاس قرب قصر متهدم ، وهو قصر تامودلت ، في عكا وتيزونين . والاستثمار الوحيد المتبقي في المنطقة يقع في إيغرم شمال عكا حيث ينتج الصناع أشياء من نحاس مطروق. وليس هذا النحاس هو الذي أعطى اسمه لأغادير ن تيسنت ، ولكن الملح . وكلمة تيسنت ليست إلا تحريفاً لكلمة تيزيمت (ملح) وذلك بإبدال الميم بالنون وهو شائع في البربرية . والواقع يستغل الملح في تريت وهي قرية صغيرة بين طاطة وأغادير ن تيسنت . هـ ـ ل . H. E

(٢١٤) أي الأطلس الخلفي الحالي أو الأطلس الصحراوي .

أجسادهم برمح وتترك جثثهم طعاماً للكلاب . ويقوم هذا السوق في سهل بين جبلين[٢١٥] . ويضع التجار بضائعهم تحت خيام أو تحت أكواخ صغيرة من الأغصان . وهم يتجمعون في فئات تنفصل بعضها عن بعض حسب نوعية البضائع ، فنجد في مكان ما تجار الأقمشة ، وفي آخر العقّادين وهكذا دواليك . ولكن يقيم تجار المواشي خارج الخيام . وإلى جانب كل خيمة يقوم كوخ من الأغصان يسمح بإقامة الوجهاء فيه ، وهنا يقدم الطعام للغرباء . ورغم ارتفاع رقم النفقات فإن بيع البضائع يجلب من العوائد ضعف المصاريف التي أنفقت ، لأن أهل كل المنطقة يأتون إلى هذا السوق ، حتى من بلاد السودان ، حيث يعقدون صفقات هامة . وخلاصة القول فإن أهل جزولة الذين يتميزون بنفسية خشنة استطاعوا بالحقيقة تسيير حركة سوقهم تسييراً جيداً فيما يتعلق بالهدوء والسلام . ويبدأ السوق يوم مولد محمدﷺ الذي يقع في الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، أي الشهر الثالث من العام العربي حسب تقويمهم . وقد قصدت هذا السوق مع الأمير الشريف ، وقضيت هناك خمسة عشر يوماً للاستمتاع ، في عام ٩٢٠ هـ[٢١٦] .

منطقة دُكَّالَة

تبدأ مقاطعة دكّالة من غرب نهر التانسفت . وتنتهي شمالاً على المحيط جنوبي نهر العبيد غربي نهر أم الربيع[٢١٧] . وتمثل هذه المنطقة مسافة أربعة أيام طولاً ويومين عرضاً تقريباً . وهي كثيرة السكان ، ولكن الأهالي أشرار وجهال . ولا نجد سوى القليل من المدن المسوّرة . وسنتكلم عما يستحق الذكر من بلاد هذه المنطقة بلدة بلدة .

مدينة آسفي

آسفي مدينة شيّدها قدماء الأفارقة على ساحل المحيط . وتضم قرابة أربعة آلاف

---

(٢١٥) يعقد سوق المولد حالياً في موقع عسّة ببلاد آيت اوسّه في المجرى الأدنى لوادي الدرعة . وليس هناك احتمال كبير في أن موقعه قد تغير منذ ذلك الزمن ، غير أن هذه البليدة تقع في جنوب غرب بلاد جزوله .

(٢١٦) يصادف يوم ١٢ ربيع الأول ٩٢٠ هـ يوم الأحد ٧ أيار (مايو) ١٥١٤ م . ولا يذكر تامبورال (طبعة ليون ١٥٥٦ م ، ص ٨٣) العام الذي مرّ فيه الحسن الوزان في هذه المنطقة .

(٢١٧) يمكن تصحيح هذا الموقع بسهولة ، ولكننا نجهل التخم الشرقي لإقليم دكّالة في ذلك العصر ، ومن غير المحتمل كثيراً أن يكون مقرن وادي العبيد مع نهر أم الربيع هو الحد الفاصل بين دكالة وتادلة .

أسرة . والسكان فيها متكاثفون ، ولكنهم يفتقرون للتهـذيب . وكان في آسفـي ، فيما مضى من الزمن ، الكثير من الصناع وقرابة مائة بيت من اليهود . والأراضي المجاورة لها خصبة جداً ، ولكن الناس ليسوا أذكياء ولا يعرفون كيفية زراعتها ، حتـى ولا زراعـة الكرمة فيها . غير أن لديهم مع ذلك بضعة بساتين للخضر صغيرة . وعندما أخذت قوة ملوك مراكش بالأفول ، استولت على السلطة في آسفي أسرة تدعى أسرة فرهون . وفي زمني(٢١٨) كانت المدينة في يد أمير شجاع اسمه عبد الرحمن ، وهو الذي قتل أحد أعمامه كي يستأثر بالسلطة(٢١٩) .

وبعد هذا أخضع المدينة واحتفظ بإمارتها لنفسه لمدة طويلة . وكان لهذا الرجل ابنة بارعة الجمال شغفت حباً برجل من العامة ، ولكنه كان رئيس حزب كبير العدد ، يدعى علي بن واشيمان(٢٢٠) الذي استطاع بالتواطؤ مع أمها وإحدى الإماء ، أن يضاجع هذه البنت عدة مرات . ولما نقل الخبر إلى أبيها بواسطة الأمة استشاط غضباً من زوجتـه وهددهـا بالموت ، ولكن تظاهر بعدئذ أنه لم يعد يهتم بهذه القضية . غير أن الزوجة التي كانت تعرف بطش زوجها انذرت عشيق ابنتها بأن يأخذ حذره . ولما أصبح « علي » خائفاً على حياته فعلاً قرر قتل عبد الرحمن . وأسرّ ذلك لرجل شاب جريء كان هو أيضا زعيماً على عدد من المحاربين المشاة وكانت له فيه ثقة مطلقة(٢٢١) . وأصبح الاثنان على قلب واحد لا ينتظران سوى الفرصة السانحة . وأسرّ الملك ، من جهته ، إلى علي يوم عيد الأضحى بأنه راغب في أن يقوم معه ، بعد صلاة العيد ، بنزهة على الخيل للترويح عن النفس . وأن

(٢١٨) سيقول الحسن فيما بعد أنه ذهب إلى آسفي عام ٩٠٦ هـ/ ١٥٠٠ م وسنه حينئذ ١٢ سنة .

(٢١٩) كان هذا العم ، الذي كان يدعى رسمياً أحمد بن علي ، مشتهراً باسم حمّادوش بن فرهون ، الذي سجل البرتغاليون اسمه على شكل امادوكس بن فارام . وبتاريخ ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٤٨٨ م عهد ملك البرتغال ، حنا الثاني ، إلى هذا الشخص بزمام قيادة آسفي ، تلك المدينة التي كانت حينئذ تحت الحماية البرتغـالية قبـل عام ١٤٨١ م . وفي ايلـول (سبتمبر) ١٤٩٨ م قررت حكومة البرتغال عزل القائد أحمد ، الذي كان قد بلغ أرذل العمر ، لمصلحة ابن أخيه ، عبد الرحمن ، وبعثت رسولاً للقائد أحمد بهذا الخصوص . ولكن الأمور لم تمر بسلام ، فقد نشب شجار عنيف بين عبد الرحمن وأخ له انتهى بأن أغمد عبد الرحمن نصل رمحه في جسد أخيه . ونادى السكان بعبد الرحمن قائداً ، وتصالح القائد القديم مع ابن أخيه ، وناشد الجمهور طالباً منه الطاعة لعبد الرحمن .

(٢٢٠) يظهر علي بن واشيمان في الوثائق البرتغالية تحت اسم عليّ بن كسيمـن ، وذلك ابتـداء من شهـر حزيران (يونيو) ١٥٠٠ م . ففي ذلك التاريخ أوفد برسالة من قبل قريبه قائد آسفي ، عبد الرحمن ، إلى ملك البرتغال عمانوئيل الأول ورجع إلى عبد الرحمن حاملاً له إجابة الملك على رسالته .

(٢٢١) هذا الشخص الذي لم يكن شاباً كان يدعى أبا زكريا يحيى بن محمد تعفوفت .

على « عليّ » أن ينتظره في مكان معين(٢٢٢) . وهناك كان ينوي قتله . ولكن عليّ الذي توقع كل شيء دعا رفيقه(٢٢٣) ، وقال له بأن ساعة العمل قد أزفت لوضع مشروعهما قيد التنفيذ . فأخذا معهما عشرين فرداً من أصدقائهما ، وتسلحوا بعناية ، وجهزا مركباً بحجة إرساله إلى آزّمور ، والحقيقة لكي يتمكنوا من الهرب إذا اقتضت الحاجة . وقصدوا الجامع الذي بلغوه بعد وصول الأمير بقليل وكان يؤدي الصلاة . وكان الجامع غاصاً بجمهور عظيم . ودخل الشابان وحرسهما ، بكل حماس وعزم ، إلى الجامع واقترب الاثنان من الملك الذي كان بجوار الإمام ، دون أن يمنعهما الحرس الملكي من ذلك ، إذ لم يكن لدى الحرس أي ارتياب ، فقد كانوا يعرفون المكانة التي يتمتع بها عليّ ورفيقه لدى الملك . ومرّ أحد المتآمرين من أمامه في حين وقف الثاني ، وهو عليّ ، خلفه وأغمد خنجره في ظهره ، في حين أغمد الثاني سيفه في جسمه . وحدث هرج عظيم وهجم رجال الحرس على القاتليْن ، ولكن لما رأوا مداهمة الرجال العشرين لهم وهم شاهرون سيوفهم اعتقدوا بوجود تحالف مع السكان وهربوا . فخرج كل الناس ولم يبق في الجامع سوى المتآمرين .

وقد سمع كاتب هذه السطور علياً يقول له من لسانه ذاته ، بأنهما حينما دخلا المسجد لم يكن الأمير قد دخله بعد ، وإلى هذا يرجع السبب في أنهما مكثا في داخله فترة ما في انتظاره ، وأنهما بعد أن فاضت روحه خرجا إلى الساحة العامة وخطبا في الناس واقنعا الجمهور بأنهما قتلا الأمير ، وأن لهما الحق لأنه أراد أن يقتلهما . وهكذا هدأ الناس وارتضوا أن تكون الإمارة في أيدي هذين الرجلين . ولكن لم يظلاّ طويلاً على وفاق ، إذ كان يبيّت كل منهما للآخر .

وفي هذه الأثناء حصل أن نصح بعض التجار البرتغاليين ـ وكان عدد هؤلاء كبيراً في آسفي ـ ملك البرتغال بتعبئة أسطول يستطيع ، بدون عناء ، أن يحتل المدينة . ولم يرغب الملك ، مع هذا ، في أن يقدم على هذا المشروع إلا بعد أن أنبأه التجار بأن أهل آسفي أصبحوا منقسمين إلى عدة أحزاب ، وأن التجار تمكّنوا بفضل بعض الهدايا ، أن يقيموا علاقات وثيقة جداً مع زعيم أحد هذه الأحزاب(٢٢٤) وعقدوا معه معاهدة . فأصبح من

(٢٢٢) إن لقب الملك الذي أعطى لقائد وشيخ آسفي هو أمر مؤكد ، لأن الزعماء الصغار المحليين في ذلك العصر كانوا يتخذون لأنفسهم مختارين لقب سلطان ، والعيد المذكور هو كما يعتقد عيد الأضحى العاشر من ذي الحجة ٩١٢ هـ/ الجمعة ٢٣ نيسان (ابريل) ١٥٠٧ م .

(٢٢٣) أي يحيى أو تعوفت .

(٢٢٤) أي مع يحيى أو تعفوفت .

الممكن في هذا الوضع الاستيلاء على المدينة بأقل النفقات . ولـم يقف أمرهـم مع هذا الزعيم عند هذا الحد ، بل لقد حصلوا منه على موافقة بأن يدعهم يبنون حصناً لهم على سيف البحر لكي يضعوا فيه بضائعهم في أمان ، متذرّعين بأنهم تعرضوا ، على أثر موت الملك ، لإتلاف قسم كبير من أرزاقهم ونهبها . فشيّدوا حصناً منيعاً جداً نقلوا إليه سرّاً « طبنجات » وبنادق ضمن براميل الزيت وفي رزم البضائع . ولـم يكن أهـل البلـدة يطلبون منهم أكثر من أن يدفعوا الرسـوم المقـررة من مكس وسـواه . ولما أصبـح لدى البرتغاليين ما يكفيَ من أسلحة الدفاع والهجوم ، راحوا يبحثون عن فرص مختلفة لإثارة الاضطرابات والخلافات مع المسلمين . وهكذا استطاع غلام لأحد هؤلاء التجار ، وكان يشتري لحماً ، أن يستثير غضب البائع الذي يشتري منه ، حتى نفذ صبر البائع فصفع هذا الغلام ، فما كان من الغلام إلا أن استلّ خنجره وأغمده في صدر البائع المسكين الذي سقط ميتاً في الحال . وعلى أثر ذلك هرب القاتل والتجأ إلى الحصن البرتغالي . وقد أدّى موت هذا الرجل إلى ثورة الأهالي الذين أخذوا اسلحتهم وسارعوا إلى الحصن البرتغالي لنهبه وتقطيع من فيه إرباً إرباً . ولكن هؤلاء حينما رأوا الجمهور يقترب منهم فتحوا عليهـم نيران بنادقهم وراشقات سهامهم . وحدث ولا حرج عن هرب المسلمين مذعورين إذ سقط منهم أكثر من مائة قتيل خلال هذا الهجوم المفاجيء . ولكن هذا لم يحل بينهم وبين محاصرة الحصن خلال بضعة أيام .

وحينئذ ظهر أسطول قادم من لشبونة ، وهو أسطول جهزه الملك لهذا الغـرض ، وكان مجهزاً بكل أنواع الأسلحة وبقطع من المدفعية الثقيلـة فضـلاً عن كمية كبـيرة من المؤن . ونقل عليه خمسة آلاف من الجنود المشاة ومائة فارس(٢٢٥) ، وهكذا انتاب المسلمين الذعر فأخلوا المدينة كي يلجأوا إلى جبال بني ماجر(٢٢٦) ، ولم يبق فيها سوى أسرة الزعيم الذي وافق على بناء الحصن البرتغالي وأنصاره . واحتل قبطان الأسطول المدينة واستدعى الزعيم المذكور ، المسمّى يحيى . وأرسله إلى ملك البرتغال الذي خصص له دخلاً طيباً

---

(٢٢٥) لقد جاء جزء من هذا الأسطول من جزر ماديرا بتاريخ ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٠٧ م . وقدمت أربع سفن منه من البرتغال في مطلع شهر كانون الثاني (يناير) ١٥٠٨ م . ولا يعتقد أن عدد رجال الحملة تجاوز ١٥٠٠ رجل . وقد ظل الأسطول مرابطاً تجاه آسفي مدة ثلاثة أشهر .

(٢٢٦) لا نزال نجهل تاريخ احتلال البرتغاليين لآسفي ، ولكن استناداً إلى النص ، حدث هذا على الأرجح بعد وصول الأسطول بقليل .

ومنحه عشرين خادماً . وبعدئذ أعاده الملك إلى افريقيا ليحكم الأرياف التابعة لآسفي ، لأن قبطان الملك(٢٢٧) لم يكن يعرف عادات هذا الشعب الجاهل والأسلوب الذي يعامله بموجبه . ومنذ ذلك الحين أصبحت آسفي خاوية وأضحت المنطقة خراباً(٢٢٨) .

وقد أسهبت نوعاً ما في كلامي عن هذه القصة لكي أبينّ أن النزاع بين الأحزاب وقصة المرأة السابق ذكرها لم يؤ ديا إلى خراب آسفي وحدها ، بل جلبا الدمار على جميع أهل دكّالة . وعندما ذهبت إلى آسفي لم يكن سني تتجاوز اثنتي عشرة سنة . ولكن بعد أن مضى على ذلك حوالي أربعة عشرة عاماً كان لي لقاء مع حاكم البادية ، الذي كان موفداً من قبل ملك فاس والشريف ، أمير السوس ودكّالة . وكان حينئذ قرب مراكش مع حملة قوامها خمسمائة فارس برتغالي وأكثر من الفي فارس من العرب . وكان يجبي كل ضرائب البلاد لحساب ملك البرتغال . وكان هذا عام ٩٢٠ هـ كما سردت ذلك مفصلاً في بحوثي التاريخية(٢٢٩) .

كونتي ، مدينة في دكّالة

كونتي مدينة صغيرة(٢٣٠) تقع على مسافة عشرين ميلاً(٢٣١) من آسفي ، وقد بناها القوط في العصر الذي كانوا يحكمون فيه هذا الساحل ، وهي اليوم مخربة وأراضيها خاضعة لبعض عرب دكّالة .

---

(٢٢٧) وهو نونو فرناندز دو آتيد .

(٢٢٨) الحقيقة هي أنه على أثر مقتل القائد عبد الرحمن في نيسان (ابريل) ١٥٠٧ م ، تنازع عليّ ابن واشيان مع يحيى او تعفوفت ، وانحاز دييغو دو آزمبوجة حاكم الصويرة (موغادور) الذي عهد اليه بإدارة شئون آسفي ، انحاز إلى جانب عليّ ، وأرسل يحيى أو تعفوفت إلى لشبونة في آب (أغسطس) ١٥٠٧ م . ويبدو أن يحيى عاد في أثناء العام ١٥١١ م . أما علي بن واشيان فقد ذهب بعد احتلال آسفي ليقيم مع جماعته في تارغة ، على ضفة نهر أم الربيع وهناك سقط بيد مولاي الناصر ، شقيق ملك فاس ، في أيار (مايو) ١٥١٤ م . واقتيد إلى هذا الملك . ثم عاد وهاجر في تموز (يوليو) ١٥١٥ م إلى مملكة فاس . ويبدو أن عرض هذه الأحداث قد كتب استناداً لذكريات عن قصة رواها عليّ بن واشيان ذاته للمؤلف .

(٢٢٩) لقد سبق للمؤلف أن قال فيما يلي أن هذا اللقاء كان في تومغلاست ، بلدة يظهر أنها تنطبق على جماسّة الحالية . ومن المحتمل أن هذا حدث في عام ٩٢٠ هـ/ حزيران أوتموز (يونية أو يولية) ١٥١٤ م . ورحلة المؤلف إلى آسفي ، التي حدثت قبل أربعة عشر عاماً سابقاً ، تقع إذن في عام ٩٠٦ هـ . وكان له من العمر اثنتا عشرة سنة ، مما يثبت تاريخ ولادته بصورة تقريبية عام ٨٩٤ هـ/ أو بين ٥/ ١٢/ ١٤٨٨ و ٢٤/ ١١/ ١٤٨٩ م .

(٢٣٠) مدينة صغيرة تقع قرب رأس كانتان (القنطو) واسمها تحريف عن قنطو .

(٢٣١) ٣٢ كم .

تيت ، مدينة في دكالة

تيت(٢٣٢) مدينة قديمة تقع على مسافة أربعة وعشرين ميلاً من آزمور ، بناها الأفارقة على ساحل المحيط . وهي بريف(٢٣٣) فسيح تجود فيه زراعة القمح وتنتج كميات وفيرة منه . ولسكانها ذكاء محدود ، فهم لا يعرفون طريقة غرس البساتين ، ولا عمل أي شيء يسرّ النظر . ويلبسون ثياباً لائقة جداً بسبب تجارتهم وعلاقاتهم مع البرتغاليين . وعندما احتل هؤلاء آزمور ، استسلمت هذه المدينة (تيت) لملك البرتغال ، بالاتفاق مع قبطان الملك ودفعت جزية معينة(٢٣٤) ، وفي أيامي(٢٣٥) جاءها ملك فاس شخصياً بينما كان في نجدة أهل دكّالة . ولما عجز عن الحصول على أية نتيجة ، عمد الى نصراني كان خازناً ويهودي كان وسيطاً في شئون التجارة فشنقهما(٢٣٦) ، ونقل سكانها إلى فاس وخصص لهم مكاناً لإقامتهم هو بلد صغير كان مهجوراً منذ بعض الوقت ، على مسافة اثني عشر ميلا(٢٣٧) من فاس(٢٣٨) .

المدينة ، مدينة في دكالة

المدينة هي بلدة في دكّالة ، وهي بالفعل عاصمة هذه المنطقة . ولها سور مشيّد حسب طريقة أهل البلاد ، أي من مواد يغلب عليها الغلظة وذات منظر تعيس . ويمكن التأكيد بأن سكانها جهال . وهم يرتدون أقمشة صوفية مصنوعة محلياً . وتحمل النسوة الكثير من الحلى الفضية ومن العقيق . ورجالها شجعان ولديهم عدد لا بأس به من

---

(٢٣٢) لا تزال آثار ماثلة حتى اليوم من سور تيت القديم ، وذلك بجوار زاوية مولاي عبد الله الأمغار على ساحل البحر ، على مسافة ٢٥ كم جنوب أزمّور .

(٢٣٣) « بادية أو ريف أو حقول مزروعة أو غيطان بمعنى واحد ، وعبارة البوادي في المغرب تعني الأرياف الزراعية » (المترجم) .

(٢٣٤) لقد نزل دوق براغانس مع قواته البرتغالية على ساحل الجديدة (مازاغان) يوم الاثنين ٢٩ آب (أغسطس) ١٥٢٣ م ، وفي يوم الجمعة جاء عرب أولاد دوي وشيخ تيت للتفاوض على تسليم المدينة وخضوعها ، ولكن الأهالي الذين تملكهم الخوف أخلوها في أثناء الليل . ولم تكن تيت تبعد عن الجديدة سوى ٨ كم . وبعد سقوط آزمور الذي حدث يوم ١٣ ايلول (سبتمبر) ، أعلن أهالي تيت خضوعهم .

(٢٣٥) في مطلع تموز (يولية) ١٥١٥ م .

(٢٣٦) يحتمل أنهما كانا يعملان لحساب ملك البرتغال .

(٢٣٧) ٢٠ كم .

(٢٣٨) تؤكد الوثائق البرتغالية ، إخلاء مدينة تيت كلياً .

الخيول . وقد ضم ملك فاس سكانها إلى مملكته خشية البرتغاليين ، فقد بلغه بالفعل أن عجوزاً ، وهو رئيس حزب في المدينة ، نصح للسكان أن يدفعوا الجزية لملك البرتغال . وقد شاهدت هذا العجوز وهو يقاد حافياً مقيداً بالأغلال . وقد تملكتني شفقة كبيرة عليه لأن هذا الرجل المسكين كان مضطراً لأن يعمل ما عمل ، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنه من الأفضل دفع الجزية عوضاً عن خسارة الأملاك وتضحية الأرواح البشرية . وتوسط عدة أشخاص لدى الملك طالبين الإفراج عنه وحصلوا على ذلك لقاء دفع غرامة . وظلت المدينة بعد ذلك خاوية على عروشها . وحدث هذا سنة ٩٢١ هـ(٢٣٩) .

المائة بير ، مدينة في دكالة (٢٤٠)

وهي بليدة صغيرة فوق تل كلسي . ونجد في خارج البلدة العديد من الصوامع التي اعتاد السكان أن يخزنوا فيها حبوبهم . ويقول أهل البلاد أنه أمكن تخزين القمح في أثناء مائة سنة بدون أن يفسد أو أن تتغير رائحته . وبسبب هذا العديد من الصوامع ، التي تشابه الآبار ، دعيت هذه المدينة ، مدينة المائة بير(٢٤١) . وسكانها قليلون جداً ولا نجد فيها أي صانع ، باستثناء بعض الحدادين اليهود ، وفي الوقت الذي نقل فيه ملك فاس سكان «المدينة» (التي عقدت لها فقرة قبل بلدة المائة بير) ليستوطنوا أراضيه ، رغب أيضاً في أن يسوق أمامه هؤلاء أيضاً (أي سكان المائة بير) ، ولكنهم امتنعوا عن هذا النزوح وهربوا إلى آسفي كيلا يتركوا وطنهم . ولما رأى الملك ذلك منهم خرب مدينة المائة بير حيث لم يجد شيئاً سوى بعض الغلال والعسل وأشياء ثقيلة عديمة القيمة(٢٤٢) .

---

(٢٣٩) إن هذا الشيخ الذي انحاز إلى البرتغاليين معروف لدينا استناداً إلى الوثائق البرتغالية وكان يدعى ميمون . وليس من الصحيح أن سكان المدينة قد نقلوا في تموز (يولية) ١٥١٥ م إلى منطقة فاس ، وعلى الأقل بصورة جماعية ، لأن سكان تيت وبني ماجر هم الذين أجلوا بصورة كلية . وقبل آخر شهر آب (أغسطس) كان أكثر من ألف بيت قد عادوا لمنازلهم ، حتى كان فيها من السكان أكثر مما كانوا علية قبل حملة ملك فاس ، لأن الناس قصدوها من مراكش ومن الجبل . ولما كان المؤلف قد غادر وطنه نهائياً في تلك الفترة ، فهو لم يستطع بالفعل أن يعرف ما إذا كانت المدينة قد ظلت خالية أم لا .

(٢٤٠) المائة بير ذكرت خطأ بدلاً من سرنو .

(٢٤١) وبالفعل يوجد في المنطقة مكان يدعى مائة بير . ولكن إدمون دوتي Edmond Doutté توصل إلى أن المقصود هو بلدة سرنو ، وهي مدينة تقع على مسافة ١١ كم إلى الجنوب ، وحيث كان يسكن يحيى أو تعفوفت ، وملك البرتغال هو الذي أقطعه إياها له ولأولاده من بعده ، وذلك بموجَب خطاب مؤرخ ٢٥ آب (أغسطس) ١٥١٤ م .

« وفي ذلك عطاء من لا يملك لمن لا يستحق » (المترجم) .

(٢٤٢) تفيد وثيقة برتغالية انه لم يبق شيء من القمح في سرنو ، وهو القمح الذي نهبه ملك فاس .

السبيت، مدينة في نفس المنطقة

السبيت مدينة صغيرة على نهر أم الربيع ، باتجاه الجنوب . وتقع على مسافة أربعين ميلاً(٢٤٣) من « المدينة » وهي خاضعة لعرب دكالة . وتنتج كثيراً من القمح والعسل ، ولكن نظراً لجهل سكانها ، لا يظهر فيها حدائق من البساتين ولا من الكروم . وبعد خراب مدينة بولوان(٢٤٤) استاق ملك فاس سكانها الى مملكته . وأعطاهم مدينة صغيرة في منطقة فاس كانت غير مأهولة . وظلت سبيت مهجورة .(٢٤٥)

تامراكشت

تامراكشت (٢٤٦) مدينة صغيرة في دكالة على نهر أم الربيع . وقد بنيت من قبل الملك الذي شيّد مراكش ،ولهذاتحمل هذا الاسم.(٢٤٧) وقد كانت مأهولة جداً وتضم أربعمائة أسرة . وكانت خاضعة لآزمور ، ولكنها تخربت في العام الذي تم فيه احتلال هذه المدينة الأخيرة من قبل البرتغاليين(٢٤٨) ونقل سكانها الى « المدينة » .(٢٤٩)

ترغه

ترغه مدينة صغيرة على نهر أم الربيع على مسافة ثلاثين ميلاً من آزمور . وقد كانت كثيرة السكان وتضم حوالي ثلاثمائة اسرة ، وكانت تخضع لعرب دكالة . ولكن بعد سقوط آسفي(٢٥٠) جاء عليّ ، زعيم الحزب المعادي للبرتغاليين ، ليسكنها بعض الوقت مع بعض من أكثر رجاله شجاعة . وبعد ذلك استدعاهم ملك فاس الى مملكته مع أسرته ،

---

(٢٤٣) حوالي ٦٥ كم .

(٢٤٤) في ايار (مايو) ١٥١٤ م .

(٢٤٥) لم يصل الينا عن هذه البلدة الا فقرة وردت في رسالة يحي او تعفونت ، وقد كتبها في أواخر شهر آذار (مارس) ١٥١٤ م يعبر فيها عن نيته في المرور من اعالي القرى الواقعة فوق السّوبيت ، على طول مجرى النهر ، ولم يعثر على موقع السّوبيت .

(٢٤٦) لقد اختفت تامّراكشت ، وظل اسمها يطلق على أرض واقعة على الضفة اليمنى لنهر أم ربيع .

(٢٤٧) تصغير بربري لكلمة مراكش .

(٢٤٨) سنة ١٥١٣ م .

(٢٤٩) ورغم وقوع هذه المدينة فوق أرض منطقة تامسنة ، فإن مجرد تبعية تامّراكشت لآزمور وكون سكانها التجأوا إلى « المدينة » يبرهن على ان هذه المدينة الصغيرة كانت تعتبر في دكالة .

(٢٥٠) في بداية عام ١٥٠٨ م .

حتى لقد أصبحت ترغه ملجأ للبوم .(٢٥١)

بولوان

بولوان مدينة صغيرة أنشئت على ضفة نهر أم الربيع . وتضم قرابة خمسمائة عائلة . وكان يسكنها عديد من النبلاء الذين كانوا من كرام الناس . وتقع في منتصف الطريق من فاس إلى مراكش(٢٥٢) . وقد بنى سكان هذه البليدة عمارة ذات غرف عديدة مخططة في صورة حظيرة واسعة . ويستضاف كل المارة بالبلدة بإكرام في هذا المنزل على نفقة السكان ، لأن هؤلاء الناس أغنياء جداً بالقمح وبالماشية . ولدى كل واحد فيها زهاء مائة زوج من الابقار ، وبعضهم يحصد حوالي مائة حمل من القمح(٢٥٣) وأن منهم من يجني ثلاثة آلاف . والعرب هم الذين يشترون هذا القمح ويمتارون منه للعام كله .

وفي عام ٩٢٠ هـ (٢٥٤) أرسل ملك فاس أخاه(٢٥٥) لحماية منطقة دكالة وحكمها . وما أن وصل هذا قرب بولوان حتى علم بنبأ مفاده أن قبطان آزامور سيأتي ليخرب هذه المدينة وليأخذ سكانها أسرى . وهكذا أرسل على الفور قائدين مع ألفي فارس وقائداً آخر مع ثمانمائة من رماة النبل لنجدة بولوان . وفي الوقت الذي وصلت فيه هذه القوات كانت القوات البرتغالية قد وصلت أيضاً . وبما أن البرتغاليين تلقوا دعماً مؤلفاً من ألفي عربي(٢٥٦) فقد تحقق لهم التفوق . وعندما حصروا رماة ملك فاس في وسط السهل ، أعملوا السيف فيهم جميعاً باستثناء عشر أو اثني عشر مع بقية القوات التي هربت الى الجبال . والواقع أن المغاربة المسلمين قد أعادوا تنظيم قواتهم وقاموا بهجوم مضاد وأخذوا

---

(٢٥١) تقع ترغه على مسافة ٣٥ كم من آزمور عند مقرنوادترغه مع نهر أم الربيع ، وهي أيضاً على ضفة هذا النهر اليمنى . إذن تقع في إقليم تامسنة ، ولكن تعتبر من إقليم دكالة . وقد التجأ اليها عليّ بن واشمان مع اتباعه ، فأخذه شقيق ملك فاس سجيناً ، وهو مولاي الناصر ، الذي اقتاده مع وجهاء آخرين من دكالة في عام ١٥١٤ م . وبعد عودته الى ترغه تزعم على قبيلة بني ماجر اثناء حملة السلطان محمد سنة ١٥١٥ م ، وهاجرت هذه العشيرة الى ضواحي فاس .

(٢٥٢) وعلى الأصح على الطريق المذكور عند منتصف المسافة بين الساحل ومراكش .

(٢٥٣) لقد ذكر المؤلف بأن حمل الجمل في « السوس » كان يزن سبعمائة رطل إيطالي أي ، ٢٣٧ كلغم، ومن المحتمل جداً أن يكون الحمل المذكور معادلاً لما هو في دكالة . « أي أن بعضهم يجني قرابة ٢٣٧ طن من القمح والبعض الآخر يصل محصوله الى ٧١١ طناً » (المترجم) .

(٢٥٤) أو نيسان (إبريل) ١٥١٤ م .

(٢٥٥) مولاي الناصر ، حاكم ونائب الملك الحقيقي في منطقة فاس أو الشاوية .

(٢٥٦) وهم خيّالة جلبهم يحي أو تعفوفت من منطقة حوز مراكش .